



د. جيمس ر. دوتي

James R. Doty

في متجر السحر

رحلة طبيب جراح لفهم أغاز الدماغ وأسرار القلب

Into The Magic Shop

A Neurosurgeon's Quest to Discover the Mysteries
of the Brain and the Secrets of the Heart



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



في متجر السحر

رحلة طبيب جراح لفهم الغاز الدماغ وأسرار القلب

Into The Magic Shop

A Neurosurgeon's Quest to Discover the Mysteries
of the Brain and the Secrets of the Heart

في متجر السحر

رحلة طبيب جراح لفهم الغاز الدماغ وأسرار القلب

Into The Magic Shop

A Neurosurgeon's Quest to Discover the Mysteries

of the Brain and the Secrets of the Heart

د. جيمس ر. دوتي

James R. Doty

ترجمة

يارا برازي

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

MOHAMED KHATAB



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

Into The Magic Shop

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

.Avery an imprint of Penguin Random House L.L.C

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون،
ش.م.ل.

Copyright © 2016 © James R. Doty

All rights reserved

Arabic Copyright © 2016 by Arab Scientific Publishers,
Inc. S.A.L

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير 2017م - 1438 هـ.

ردمك 0-2957-02-614-978

جميع الحقوق محفوظة للناشر

توزيع

facebook.com/ASPArabic

twitter.com/ASPArabic

www.aspbooks.com

asparabic

الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc. s.a.l

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (+961-1)

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (+961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة
تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي
والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر
أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي
من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي
الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: علي القهوجي

اللتضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (+9611) 785107

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (+9611) 786233

أهدي هذا الكتاب إلى روث وكل أمثالها، الذين
يعلّمون الناس الحكمة وينيرون بصائرهم دون انتظار أي
شيء بالمقابل.

* * *

إلى الدلاي لاما، الذي يعلمني كل يوم أسمى المعاني
في الرحمة والعطف.

إلى زوجتي ماشا

وأولادي

جينيفر، سيباستيان وألكسندر

م در إلهامي المتجدد في يوم.

مدخل

أشياء جميلة

تُصدر فروة الرأس صوتاً مميزاً خاصاً بها عندما تُنتزع عن الجمجمة، كقطعة لاصق كبيرة تُنتزع عن المكان الذي ألصقت به، صوت غاضب مرتفع النبرة وحزين بعض الشيء. ولا يوجد في كلية الطب أيّ منهاج أو صفّ لتعليم الطلبة الأصوات والروائح التي سيواجهونها أثناء إجراء جراحة الدماغ.. ولا بدّ من استحداث مثل ذلك الصف. الأزيز الرتيب اللامبالي الذي يصدره المثقب الكهربائي وهو يحفر عظم الجمجمة، ثم المنشار الكهربائي الذي يملأ غرفة العمليات برائحة نشارة الخشب الجاف الذي يذكرنا بأيام الصيف وهو يرسم خطوطاً تصل ما بين النقاط التي حفرها المثقب في البداية. لا بدّ من استحداث صف خاص لإعطاء الطالب فكرة واضحة عن الصوت الانفجاري الرافض المقاوم - الأشبه بصوت حبّات الكستناء التي تفرقع عند شيّها - الذي يصدر عن عظم الجمجمة عند رفعها عن غشاء الأمّ الجافية، ذاك الغشاء السميك الذي يحيط بالدماغ ويحتضنه، ويمثل آخر خط دفاع يفصله عن العالم الخارجي. يقطع المقص الأمّ الجافية ببطء، وعندما يجد الطبيب نفسه وجهاً لوجه أمام الدماغ المكشوف، سيشهد اهتزازة بإيقاع مثالي مع كل خفقة من القلب، وفي أحيان أخرى.. سيظن أنه يسمع أنين اعتراض خافت على تعريته وكشف ضعفه.. على كشف مكامن سرّه العظمى وتعريضها لأضواء كشّاف العمليات الساطع أمام عيون جميع الموجودين في الغرفة.

يبدو الصبي صغيراً في مئزر المشفى، ويبدو سرير العمليات كبيراً كما

لو أنه سيبتلع الجسد الصغير وهو في انتظار جراحته.

"جدّتي صلت لأجلي.. ولأجلك أيضاً".

ارتفع صوت أنفاس والدّة الطفل في هذه اللحظة، عرفت أنها تحاول التحلي بالشجاعة لأجل ابنها، لأجل نفسها، وربما لأجلي أنا أيضاً. مرّرت يدي عبر خصلات شعره البني الطويل الناعم، ما زال هذا الصبي طفلاً أكثر منه صبياً.. ثم أخبرني بأنه احتفل للتو بعيد ميلاده.

"هل تريد مني أن أعيد عليك شرح ما سيجري اليوم يا بطل، أم أنك مستعد؟" كان يحب أن أناديه هكذا.. يا بطل.

"سوف أنام، ثم تنتزع أنت الشيء القبيح من رأسي كي لا يؤلمني بعد الآن، ثم أصحو وأرى أُمي وجدتي من جديد".

الشيء القبيح (Medulloblastoma) هو ورم نخاعي، وهو أكثر الأورام الخبيثة شيوعاً لدى الأطفال ويتموضع عادة في قاعدة الجمجمة، كما أن لفظ اسمه ليس سهلاً حتى بالنسبة إلى الراشدين ولهذا لم يكن لفظه سهلاً على الطفل الذي لم يتجاوز الرابعة من عمره - المصاب به - مهما كان ذكياً. إلا أن أورام الدماغ عند الأطفال هي بحق واحدة من أشنع الأشياء ولهذا وافقت على إطلاق ذاك الاسم عليه، إنه ورم غير منتظم الشكل يغزو الدماغ البهيّ البالغ الانتظام والدقة. تبدأ تلك الأورام بالتكاثر بين فصّي المخيخ وتنمو بلا توقف، إلى أن تضغط في النهاية على المخ نفسه لا على المخيخ وحده، إلى أن تمنع السوائل التي تجري في الدماغ من السريان عبر مساراتها. الدماغ هو واحد من أجمل الأشياء التي رأيته، وقد كانت مهمة استكشاف أسرارهِ وإيجاد طرق لعلاجه شرفاً مُنح لي، شرفاً لم أعتبره عادياً في يوم من الأيام.

"يبدو أنك مستعد لي.. سوف أرتدي قناع الأبطال الخارقين وأنام، ثم سأراك في الغرفة البيضاء الساطعة".

ابتسم لي. وقد تبدو كمamات الجراحة والنظارات المكبرة مخيفة للبعض، لكنني اليوم سأدعوها أقنعة الأبطال الخارقين، وسأطلق على غرف الإنعاش اسم الغرف البيضاء الساطعة كي لا يشعر بالخوف. الذهن شيء غريب مثير للابتسام.. لكنني لن أشرح دلالات الألفاظ لطفل في الرابعة من عمره الآن بالرغم من أن بعضاً من أكثر المرضى الذين يتمتعون بالحكمة والذين قُدر لي اللقاء بهم عبر حياتي كانوا من الأطفال. إن قلب الطفل أشبه بكتاب مفتوح، بوردة متفتحة.. الأطفال يتحدثون عن مخاوفهم، عما يربعهم، عما يفرحهم وعما يعجبهم فيك وما لا يعجبهم.. لا يملكون أجندة سرية، ولا تحتاج مطلقاً إلى التفكير بحقيقة شعورهم لأنه يظهر عليهم بجلاء.

التفت لوالدته وجدته وقلت:

"سيقوم أحد أفراد فريق الجراحة بإطلاعكم على تطورات العمل، سنقوم باستئصال كامل ولا أتوقع أي مضاعفات".

لم أكن مجرد جراح يقول لهم ما يرغبون بسماعه، إنها الحقيقة، خطّطت بالفعل لجراحة متقنة نظيفة لاستئصاله، ولاقتطاع شريحة منه لإرسالها للمختبر لمعرفة مدى خباثة هذا الورم القبيح.

أعرف أن.. الأم والجدة كلتيهما خائفتان، احتضنت يديهما على التوالي لدعمهما وطمأنتهما. لم ولن يكون هذا الأمر سهلاً أبداً.. لقد تحوّل صدام الصباح الذي كان يصيب الطفل إلى أسوأ كابوس يصيب أي والد. الأم تثق بي، والجدة تثق بالله، وأنا أثق بفريقي.

سنحاول سوياً أن ننقذ حياة الطفل.

بعد أن طلب منه اختصاصي التخدير العدّ بشكل تنازلي إلى أن غرق في النوم، ثبتّ رأس الصبي في إطار معلق بجمجمته ثم غيّرت موضع الرأس داخل الحامل إلى أن بات ملائماً لإجراء العملية، ورغم أن الممرضات يقمن

عادة بتحضير مكان العمل الجراحي بدلاً عن الجراح نفسه، إلا أنني أفضل حلاقة مكان الجرح بنفسه، وأشعر أنه طقس مقدس خاص بي.. أفكر بالطفل الغالي على قلب والديه بينما أحلق شعره وأستعرض كل خطوات العمل الذي سأقوم به في رأسي، سلّمت أول خصلة شعر قصصتها للممرضة المساعدة لتعطيها لأم الطفل في الخارج لأنها حلاقة شعره الأولى، ورغم أنه آخر شيء قد يخطر ببال أمه الآن إلا أنني أعرف أنها ستفكر بتلك الخصلات المفقودة كثيراً فيما بعد. إنها نقطة علام تذكرها كل الأمهات، نقطة فاصلة في حياة كل طفل، أول حلاقة شعر.. وأول سنّ لبني يقع من فمه، وأول يوم مدرسي، وأول دراجة يقودها، لكن الأمهات لا يفكرن بتاتاً باحتمال انضمام أول جراحة في الدماغ لتلك القائمة.

حلقت بلطف تلك الخصلات الكستنائية الفاتحة اللون آملاً أن يتمكن مريض من اختبار كل بند من بنود القائمة السابقة، أراه يبتسم في مخيلتي وفي لثته فراغ بعد سقوط أسنانه اللبنية القديمة، أراه يدخل الروضة حاملاً حقيبة ظهر كبيرة ثقيلة، أراه يقود دراجة للمرة الأولى ويختبر نسائم الحرية الفاتنة للمرة الأولى أيضاً، يقودها بسرعة، والريح تعبث بخصلات شعره، أفكر بأطفالي أثناء حلاقة شعره أيضاً.. لكن مخيلتي لا تتمكن من تصور طفل آخر غيره في مثل تلك المحطات. لا أريد تصور مستقبل يعج بزيارات المستشفيات ومراكز علاج السرطانات وجراحات أخرى، لكنني أعلم تماماً أنه سيتعرض في المستقبل للعديد من اختبارات السلامة والصور الإشعاعية باعتبار أنه أصيب في ما سبق بورم دماغي، لكنني أرفض أن أراه في المستقبل كما كان في الماضي، أرفض تعرضه للدوار والتقيؤ والسقوط المفاجئ والصراخ في بواكير كل يوم طلباً لمساعدة والدته، لنجدته من الآلام التي يسببها الشيء البغيض القبيح في رأسه.. الحياة تعج بما يفطر القلب دون التعرض لمثل هذه القضية. تابعت حلق الشعر بما يكفي للقيام بعملتي، ثم رسمت دائرتين على أسفل رأسه ووصلت بينهما بخط مستقيم.. إنه موضع الجراحة التي سنقوم بها.

جراحة الدماغ صعبة للغاية، لكن الجراحات التي تجري في أخمص

تجويف القحف الخلفي هي الأكثر صعوبة، ولا يفوقها صعوبة سوى محاولة القيام بها في رأس طفل صغير. كما أن هذا الورم كبير ويتطلب استئصاله عملاً بطيئاً دقيقاً بشق النفس.. تنظر عيوننا عبر مجهر مكبر لساعات طوال بلا كلل إلى أن ننتهي، وقد دربنا أنفسنا نحن الجراحين على إسكات أصوات أجسادنا خلال عملنا على أجساد الآخرين، نحن لا نأخذ فرصة من عملنا لدخول الحمام، لا نتناول الطعام، تعلمنا تجاهل الجوع وألم الظهر وتقلص العضلات، وأنا أذكر جيداً أول جراحة حضرتها بصفتي معاوناً لجراح شهير قدير، لم يكن يُعرف فقط ببراعته بل بكونه محارباً شرساً متغطرساً لا يقبل شريكاً أثناء إجرائه لأي عملية. غلبتني الرهبة واعتراني القلق، وقفت بجواره بلا حراك والعرق يقطر من وجهي، مقطوع الأنفاس خلف كامتي، ثم غطى البخار زجاج نظارتي ولم أعد قادراً على رؤية الأدوات ومكان العملية.. لقد عملت كثيراً واجتهدت كثيراً وقاومت كثيراً لأصل إلى هنا.. وها أنا هنا.. أقوم بجراحة دماغية كما حلمت طويلاً لكني لم أتمكن من رؤية أي شيء.. ثم وقع الشيء الذي لم يكن في الحساب.. سقطت نقطة عرق من وجهي في جرح العملية المفتوح المعقم.. تحوّل الجراح الشهير أمامي إلى صاروخ بالستي متفجر، وتحولت الجراحة الأولى التي أحضرها من انتصار على الصعيد الشخصي إلى نقطة سوداء.. لقد لوّثت العمل الجراحي وطُردت من غرفة العمليات ولم أنس مطلقاً تلك التجربة في حياتي.

جيبني اليوم بارد والرؤية في عيني بالغة الوضوح والصفاء، نبض قلبي بطيء ومنظم، لقد فعلت الخبرة فعلها وحولتني إلى جراح جيد لا يشبه ذلك الدكاتور المستبدّ، أنا أعتبر أفراد الفريق كلهم على درجة الأهمية نفسها داخل غرفة العمليات، كلّ منّا يُركّز في عمله ودوره، حيث يتابع اختصاصي التخدير قلب الطفل وتنفسه ودرجة غرقه في نومه تحت تأثير المخدر وسرعة نبضه، أما الممرضة المساعدة فتتّهم بالشاشات التي تعرض لنا عمل أجهزة جسمه المختلفة والأدوات الطبية والإمدادات، وتتأكد من وجود كل ما يمكن لي أن أحتاجه بقربي. كما علقت كيساً كبيراً على حامل معدني مجاور تحت رأس الطفل لجمع الدماء التي تسيل من رأسه، الكيس متصل بأنبوب متصل بدوره بآلة امتصاص ضخمة تقيس بلا توقف مقدار السوائل المتسرّبة لنعرف بالضبط

مقدار فقدان جسمه للدم في أي لحظة.

أما الجراح المساعد لي فهو مقيم في السنة الأخيرة من تدريبه لكنه عضو جديد في الفريق، ومع ذلك، يكاد يضاهيني انتباهاً لسيلان الدماء وأنسجة الدماغ ولكل التفاصيل الدقيقة التي تبدو غير ذات أهمية أثناء استئصال الورم. لا يمكننا التفكير في مخططاتنا لليوم التالي، أو في سياسات المستشفى، أو في أطفالنا أو بمشكلاتنا المنزلية، نحن نغرق تماماً في حالة من التركيز المفرط.. نحصر كل انتباهنا في أمر وحيد كسهم يخترق الفضاء، كحال الذهن حين التأمل. نحن ندرّب ذهننا، ثم يتولّى الذهن تدريب الجسد. كما أننا نشعر بإيقاع العمل المذهل ما بين أفراد الفريق المنسجمين حين يسود بيننا التزامن الكليّ والجاهزية التامة، تعمل أذهاننا وأجسامنا معاً بتناسق مذهل كجهاز عصبي فائق الاتساق.

أزلت آخر قطعة من الورم، فاكتشفت أنها معلقة بأحد الأوردة الرئيسية في قاعدة الجمجمة. إن شبكة الأوردة والشرايين المتموضعة في قاع الجمجمة معقدة بشكل لا يُصدّق، ولهذا.. راح مساعدي يشفط السوائل الراشحة بلا توقف بينما أبتّر بعناية آخر بقايا الورم، وفي هذه اللحظة، تشتت انتباه مساعدي للحظة واحدة فمزّق جهاز شفط السوائل وريداً ما، فتوقف كل شيء للحظة واحدة.

ثم فُتحت أبواب الجحيم.

ملأت الدماء النافرة من الوريد الممزق تجويف العمل الجراحي وبدأ الدم يتدفق خارج تلك البركة وينهمر من رأس الطفل الصغير الجميل. صرخ طبيب التخدير لينبهنا بأن ضغط دم الطفل ينخفض بسرعة خيالية وأنه لا يستطيع تعويض الدم بالسرعة نفسها التي ينبض بها. أدركت أنني مضطر لتطويق الوريد المجروح وإيقاف النزيف، لكن الجرح تحوّل إلى بحيرة من الدماء تمنعني من رؤية الوريد النازف، كما أن جهاز شفط السوائل لم يتمكن من السيطرة على النزف وراحت يد مساعدي ترتجف بشدة مما منعه من تقديم أي مساعدة لي. ثم

صاح اختصاصي التخدير: "توقف قلبه تماماً".

نزل طبيب التخدير تحت طاولة العمليات لأن رأس الطفل مقيّد داخل إطار التثبيت، معلق بكل معنى الكلمة، وطرفه الخلفي مفتوح تماماً. راح يضغط على قلبه الصغير بيد ويده الأخرى على ظهره محاولاً بيأس حتّ قلبه على الخفقان من جديد. إن أول وأهم عمل يقوم به القلب هو ضخّ الدماء، وقد توقفت هذه المضخة التي تجعل كل شيء في الجسد ممكناً عن عملها.. راح الطفل المريض ذو الأربعة أعوام ينزف حتى الموت على الطاولة أمامي باطراد بينما لم يتوان طبيب التخدير عن تدليك قلبه لدفعه إلى العمل مجدداً ولم يتوقف الجرح عن النزف، لا بدّ من إيقاف النزف كيلا يموت. يستهلك الدماغ 15 بالمائة من الدماء التي يضخها القلب ويمكنه البقاء على قيد الحياة دقائق معدودات بعد توقف القلب، يحتاج إلى الدم لأنه يحتاج إلى الأوكسجين المنحلّ فيه، وهكذا.. راح الوقت ينفد منّا لأن كلاً من القلب والدماغ يحتاجان إلى بعضهما.

حاولت بشكل محموم كبح الوريد لكن رؤيته كانت مستحيلة وسط تلك الدماء، ومع أن رأسه كان مثبتاً في الجهاز، إلا أن أجهزة التنفس الصناعي كانت تحركه بصورة طفيفة. عرف الجميع أن الوقت ينفد منّا.. نظر طبيب التخدير من تحت الطاولة إليّ فرأيت الرعب في عينيه... قد نفقد الصبي. فكرت باستعمال جهاز الإنعاش (CPR) لكن استعماله الآن يشبه محاولة تدوير محرك سيارة بينما يتوضع ناقل سرعتها على الغيار الثاني.. لن يساعدنا أبداً ونحن نفقد الدم بهذه الكثافة. مددت يدي، كأعمى.. فتحت قلبي على احتمال يتجاوز المنطق، يتجاوز الخبرة، وبدأت أقوم بما تعلمت فعله قبل عقود، لا في سنوات التدريب في المشافي، ولا في كلية الطب، بل ما تعلمته في غرفة تقع خلف متجر لبيع ألعاب السحر في صحراء كاليفورنيا.

هدّئت ذهني..

أرخيت عضلات جسدي المشدودة..

تصوّرت الوريد المتهتك، رأيته بعين عقلي، متوارياً بين شبكة أعصاب الصببي.. مددت يدي إلى الداخل مغمض العينين ومدركاً في الوقت نفسه لحياة الطفل المديدة التي تنتظره، لما لا يمكن لنا أن نراه، مدركاً لقدرة كلّ منا على فعل أشياء خرافية تفوق كل الممكنات.. إننا نمسك زمام مصائرنا وأقدارنا ولهذا لا أقبل أن يموت هذا الطفل ذو الأربعة أعوام في هذا اليوم على طاولة الجراحة بين يدي.

مددت يدي داخل بحيرة الدماء بملقط مفتوح، أغلقته وسحبت يدي بهدوء.

توقف النزف، سمعت طنين جهاز تخطيط القلب يصفر ببطء وخفوت كما لو أنه يأتيني من مكان بعيد.. كان خفقاناً بسيطاً، غير متسق، لكنه ازداد قوة وانتظاماً مع الوقت كما تفعل كل القلوب حين تعود للحياة.

شعرت بخفقان قلبي يواكب إيقاع طنين الجهاز..

أعطيت أمه بعد العملية بعضاً من الشعر المحلوق من رأسه، ونجا مريضني بأعجوبة بعد استيقاظه من تأثير المخدر، وسيعيش كأبي طفل عادي، وسيتكلم ويضحك خلال ثمان وأربعين ساعة، وسأتمكن عندها من تبشيره بأن الشيء القبيح قد رحل إلى الأبد.

الجزء الأول

في متجر السحر

الفصل الأول

سحر حقيقي

لأنكاستر، كاليفورنيا، 1968

بدأ اليوم الذي اكتشفت فيه اختفاء قفازي السحري كأني يوم آخر من صيف العام الذي نجحت فيه إلى الصف الثامن، فقد أمضيت ذلك الصيف في قيادة دراجتي في أرجاء البلدة بالرغم من ارتفاع حرارة الطقس، إلى درجة أن مقود الدراجة كان ساخناً كفرن مشتعل في بعض الأحيان، وما فتئت أشعر بطعم الغبار في حلقي، كنبته صبار تصارع شمس الصحراء والحرارة لتبقى على قيد الحياة. كنا فقراء، وكنت جائعاً على الدوام، كرهت شعور الجوع الذي لازمني طوال الوقت.. وكرهت حالة الفقر التي كنا نعيشها أبداً.

لم يسمع أحد باسم بلدتنا الصغيرة إلا حين اخترق الطيار تشاك إيغر جدار الصوت فوق قاعدة إدواردز الجوية القريبة قبل عشرين عاماً. كانت الطائرات تحلق فوقنا طوال اليوم للتمرين ولاختبار الطائرات الجديدة، ولطالما تساءلت في ذلك السن عن شعور الطيار إيغر حين حلق بطائرة Bell X-1 بسرعة ماخ 1 وحقق ما لم يفعله إنسان من قبل، فكرت بصغر حجم بلدتي حين نظر إليها من ارتفاع 45 ألف قدم ورفع سرعة الطائرة إلى السرعة التي اعتقدها الجميع ضرباً من ضروب المستحيل. لقد بدت لي صغيرة وموحشةً مُقفرة رغم أنني لم أكن أرتفع عن سطح الأرض سوى قدماً واحداً أثناء قيادة الدراجة.

لاحظت اختفاء القفاز السحري ذلك الصباح، وقد كنت أخفي كل

مقتنياتي الثمينة في صندوق خشبي تحت سريري، وقد تألفت أعلى ممتلكاتي من كراسة صغيرة تحتوي على مسودات لرسوماتي وبعض الأشعار السرية وقصاصات تحتوي على حقائق مجنونة متفرقة استهوتني، مثل الإحصائية التي قالت إن عشرين بنكاً يُسرق كل يوم حول العالم، وتقريراً علمياً يقول إن الحلزون يستطيع النوم لثلاثة أعوام، وأخرى تقول إن منح لفافة تبغ لقرد هي أمر خارج عن القانون في ولاية إنديانا، كما احتوى صندوقي على نسخة مهترئة من كتاب ديل كارنيغي: كيف تكسب الأصدقاء، وفيها عدة صفحات مميزة بعلامة على الزاوية العليا، تحتوي على ست طرق تساعدك على نيل إعجاب الناس، وقد كنت أحفظها غيباً:

أظهر الاهتمام الصادق بالناس.

ابتسم على الدوام.

تذكر أن اسم الشخص الذي تحدثه هو أعذب وأهم كلمة يمكن له أن يسمعها.

أنصت للناس، كن مستمعاً جيداً، وشجّع الآخرين للتكلم عن أنفسهم.

تحدّث مع الآخر في أمور تستهويه.

ادفع الشخص الذي تحاوره للشعور بأهمية نفسه وقم بذلك بإخلاص.

حاولت بالفعل القيام بتلك الأشياء أني تسنّى لي الحديث مع الناس، لكنني كنت أبتسم بشفتين مطبقتين لأنني فقدت أسناني الأمامية عندما كنت أصغر سنّاً، إذ وقعت وارتطم فكّي الأعلى بطاولة القهوة في بيتنا، فانكسرت أسناني اللبنية. ولهذا، فقد تسوست أسناني الدائمة التي لم تبزغ بعد ونمت مسوّدّة مائلة

للون البني. لم يملك أهلي المال الكافي لإصلاحها ولهذا حاولت الإبقاء على فمي مغلقاً طوال الوقت.

وبالإضافة إلى ذلك الكتاب، احتوى الصندوق على كل أدوات الحيل السحرية التي أمتلكها، المؤلفة من مجموعة ورق لعب موسومة بعلامات صغيرة لا تُلحظ من قبل الآخرين، وبعض القطع النقدية المعدنية المزيفة التي تتحوّل بفضل خدعة سحرية من قروش إلى فرنكات، بالإضافة لأهم ممتلكاتي، ألا وهو قفاز سحري يمكن لي إخفاء منديل حريمي داخله، أو لفافة تبغ. كان الكتاب وأدوات السحر على درجة عالية من الأهمية بالنسبة إليّ، لأنّ والدَيّ أهدياها لي. أمضيت ساعات وساعات أتمرّن على القيام بخدع القفاز، أعلم نفسي كيفية رفع يديّ كي لا يلاحظ المتفرجون الخدعة، وكيفية حشو المنديل أو السجارة داخله بخفة شديدة لتظهر فيما بعد من العدم أو لتختفي كلياً. استطعت بالفعل خداع أصدقائي والجيران داخل المبنى الذي نقطن فيه، لكن القفاز اختفى اليوم.. تبخّر، فأصبت بغمّ شديد بسبب ذلك.

لم يكن أخي في البيت كالعادة، لكنني تصورت أنه أخذه، أو أنه يعرف مكانه على الأقل. لم أكن أعرف الأماكن التي يذهب إليها كل يوم لكنني قررت امتطاء دراجتي والخروج للبحث عنه، كان ذلك القفاز أغلى ما أملك.. لم أكن شيئاً دونه.. وكنت في حاجة ماسّة لاسترجاعه.

وصلت بدراجتي إلى الجادة الأولى المنعزلة التي تحتوي على بعض المتاجر الصغيرة، ولم تكن تلك الجادة ضمن المناطق التي اعتدت التجوال فيها على دراجتي لأنها لم تكن توصل سوى إلى حقول خاوية وأعشاب طويلة وأسوار خشبية تحدد ملكيات المزارعين على الجانبين لمسافة تصل إلى ميل. رأيت مجموعة من الفتیان أمام المتجر لكنني لم أشاهد أخي بينهم، فتنفست الصعداء لأنه لو كان موجوداً بينهم لكانوا يهتمرون عليه، ولتورطت في قتال للدفاع عنه. كان يكبرني بعام ونصف لكن بنيته كانت أقل حجماً مني، وكان المتمرون يهوون إذلال ضعفاء البنية الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم. كان هناك أخصائي نظارات بجانب المتجر ودكان آخر لم تقع عيناى عليه من قبل: متجر

صبار أذن الأرنب للسحر. توقفت على الرصيف أمام تجمع المتاجر وجلت بنظري حول مرأب السيارات. لم يتجاوز عرض واجهة المتجر أكثر من خمسة ألواح زجاجية يجاورها من الجهة اليسرى باب زجاجي مغبر يعكس نور الشمس بصعوبة مما منعني من رؤية الداخل، فمشيت برفقة دراجتي إلى ذاك الباب آملاً أن أجده مفتوحاً للزبائن، وتمنيت لو أنهم يبيعون القفازات السحرية فيه وتساءلت عن السعر رغم أنني لم أملك أي قدر من المال.. السؤال لا يضر. ركنت دراجتي على الحائط وألقيت نظرة خاطفة على مجموعة الصبيان المتحلقين أمام السوق، واعتقدت أنهم لم يلاحظوني ولم يلاحظوا دراجتي، فتركتها هناك ودفعت باب المتجر، لم يتزحزح في البداية لوهلة، ثم.. وكما لو أن الأمر حصل بفعل سحر ساحر.. فُتح بلطف وسهولة، وررّ فوق رأسي جرس صغير يعلن عن دخولي.

أول ما رأيته كان طاولة زجاجية طويلة مترعة بمجموعات أوراق اللعب والعصي السحرية والأكواب البلاستيكية والعملات الذهبية، ثم لاحظت صناديق سوداء كبيرة ملاصقة للجدران، وعرفت على الفور بأنها الصناديق التي تحتوي على ألعاب السحر وخدع الخفة التي يقوم بها السحرة على خشبة المسرح، وخلفها، وبشكل ملاصق للجدران تماماً، انتصبت مكاتب مليئة عن آخرها بالكتب التي تتحدث عن ألعايب الخفة وفنّ الخداع. كما رأيت مقصلة صغيرة في الزاوية وصندوقين أخضري اللون يمكن استخدامهما لشطر أي إنسان لشطرين من وسطه. وهناك.. كانت امرأة مسنة رمادية الشعر تقرأ كتاباً سميكاً باسمه الوجه، تتحدر نظارتها حتى أدنى نقطة من أرنبه أنفها.. نزعت نظارتها ورفعت رأسها ونظرت إلى عيني مباشرة كما لم يفعل شخص راشد من قبل.

"أنا روث.. ما اسمك؟".

كانت ابتسامتها عريضة جداً وعيناها بنيتان دافئتان لطيفتان إلى درجة أنني لم أتمالك نفسي من الابتسام لها، ونسيان أمر أسناني المكسورة السوداء.

"أنا جيم". وحتى تلك اللحظة.. كان كل الناس ينادونني باسم بوب لأن

اسمي هو روبرت، ولا أذكر أبداً سبب اختصار الاسم إلى بوب، لكنني أحببتها "جيم" لسبب مجهول بالنسبة إليّ حتى الآن، وأصبح هذا هو الاسم الذي لازمني لبقية حياتي.

"حسناً يا جيم.. أنا سعيدة للغاية بزيارتك".

حرثُ جواباً، وتابعت هي التحديق في عيني بلا توقف، ثم تنهدت بعد برهة.. لكنها كانت أشبه بتهيدة سعيدة أكثر من التهيدة الحزينة.

"كيف أساعدك؟".

تبخر كل شيء من ذهني للحظة، لم أذكر السبب الذي دفعني إلى دخول المتجر وشعرت بالشعور نفسه الذي ينتاب المرء حين يجلس على كرسي ويميله إلى الخلف على قائمته الخلفيتين بلا اكتراث ثم يتنبّه قبل أن يقع أرضاً بلحظة واحدة. انتظرت إجابتي بصبر شديد دون أن تتخلّى عن ابتسامتها إلى أن وجدت الكلمات المناسبة للجواب:

"قفازي السحري..".

"قفازك؟".

"لقد فقدت قفازي السحري البلاستيكي.. هل لديكم قفازات سحرية مثله؟".

نظرت إليّ ورفعت كتفيها وكأنها لا تعرف عمّا أتكلم.

"إنه لعبة من ألعاب الخفّة.. قفاز بلاستيكي يرتديه لاعبو الخفّة".

"سأبوح لك بسرّ صغير.. لا أعرف أي شيء عن ألعاب الخفّة".

نظرت حولي.. إلى المعروضات السحرية التي لا تعد ولا تحصى، إلى كل الأدوات والخدع بكل أشكالها وألوانها ثم عدت إليها بدهشة باحثاً عن إجابة.

"ابني يمتلك المتجر لكنه غير موجود هنا الآن، أنا أنتظر عودته وأقضي وقتي في القراءة، ولا أعرف أي شيء عن القفزات وألعاب الخفة المزعومة.. أعذر منك".

"لا بأس.. سأبحث وأنظر حول المكان لا غير".

"بالطبع.. تجوّل في المكان على هواك، ثم أخبرني إذا ما وجدت ما تبحث عنه". ثم ضحكت بلطف أسعدني بلا سبب منطقي رغم أنني لم أعرف سبب ضحكتها.

تجولت في أرجاء المتجر أنقل ناظري بين أعداد لا متناهية من مجموعات أوراق اللعب السحرية والعصي والكتب، إلى أن وجدت صندوقاً زجاجياً يحتوي على قفزات سحرية معروضة للبيع. شعرت بعينيها تلاحقاني أينما تحركت، لكن مراقبتها لي لم تكن تشبه الطريقة التي يراقبني فيها صاحب المتجر المجاور لشقتنا أثناء تواجدي داخل متجره، لأنه كان يعتقد بأنني أدخل المتجر لأسرقه، وكنت أشعر بذلك كلما وطأت ذلك المتجر.

"هل تعيش في لانكاستر؟" سألتني روث.

"نعم، لكنني أقطن الطرف الآخر من البلدة، وكنت أتجول هنا بحثاً عن أخي فشاهدت متجركم وقررت استكشافه".

"هل تحب الألعاب السحرية؟".

"أعشقها".

"ماذا الذي يعجبك فيها؟".

وددت أن أقول إنها مسلية ومثيرة بالنسبة إليّ لكنني تفوهت بشيء آخر بلا تفكير:

"أحب أن أتمكن من التدريب على شيء وأصبح بارعاً فيه مع مرور الوقت.. أحب أن أكون الأمر الناهي، سواء نجحت الخدعة أم لا.. كل شيء يتعلق بي وحدي.. ولا يهمني ما يقوله الآخرون أو ما يفكرون به".

صمتت لبرهة فيما شعرت بالحرص بسبب ما قلته.

"أفهم قصدك تماماً.. أخبرني عن خدعة القفاز".

"حسناً.. تلبسينه بيدك فيعتقد الجمهور أنه يدك الحقيقية باعتبار أنه شفاف، ويجب عليك أن تمّوهي ذلك قليلاً لأن الجمهور سيكشفك إذا ما أمعن النظر فيه، وهو مجوف من الداخل.. كما يمكنك خلعه وإخفاؤه بيدك الأخرى هكذا..". ثم قمت بحركة معتادة يقوم بها لاعبو الخفة حيث أمسكت يداً بالأخرى وسحبت أصابعي بلطف شديد كما لو أنني أرتيه، ثم قلت: "تحركين طرف الإبهام بخفة إلى داخل يدك الأخرى ثم تضعين منديلاً حريراً صغيراً أو سيجارة داخله ثم تقومين بالحركات السحرية مجدداً وترتدين القفاز السحري من جديد، القفاز الذي يحتوي الآن على ما وضعته داخله.. ويبدو الأمر للآخرين وكأنك أخفيت شيئاً ما، أو يمكنك استخدامه بشكل معاكس لتظهره للآخرين وكأنه ظهر من العدم".

"فهمت.. كم أمضيت من الوقت في التمرين على هذه الخدع؟".

"عدة أشهر. أتمرن كل يوم لعدة دقائق، وفي أحيان أخرى أتمرن لساعة من الزمن.. لكنني أتمرن يومياً، وقد كان ذلك صعباً في البداية حتى مع استخدام كتيّب التعليمات لكن الأمر يصبح أسهل مع الوقت.. بإمكان أي شخص أن يقوم بها".

"تبدو خدعة جيدة، أثني عليك اجتهدك في التمرين، ولكن.. هل تعرف سبب نجاحك؟".

"ماذا تعنين؟".

"أعني سبب انطلاء تلك الخدعة على الناس.. مع أنك قلت إن زيف القفاز واضح للعيان.. لهذا، لماذا برأيك تتطلي حيلتك على الناس؟".

بدت الجدية واضحة عليها بشدة وكأنها أرادت مني تعليمها شيئاً ما حقاً.. ولم أكن معتاداً أبداً على محادثة شخص بالغ يطلب مني شرح شيء له أو تعليمه أمراً ما، ففكرت بالأمر هنيهة..

"أعتقد أنها تتطلي على الناس بسبب مهارة لاعب الخفة التي تسمح له بخداعهم.. إنهم لا يلحظون حركة يده الخفيفة والسريعة، ولكي ينجح أي شخص في هذا، عليه تشتيت انتباه الناس عن رؤية ما يقوم به حقاً".

ضحكت روث وقالت: "تشتيت انتباههم.. هذا حقيقي تماماً.. أنت تتمتع بالحكمة بالفعل، هل تحب أن تسمع رأيي في سبب نجاح الحيلة؟" وانتظرت إجابتي فشعرت بالغرابة من جديد لأن شخصاً بالغاً راشداً يطلب إذني لإطلاعي على معلومة.

"بالطبع".

"أعتقد أنها تتطلي عليهم لأن الناس لا يرون سوى ما يعتقدون بوجوده هناك لا ما هو موجود حقاً، إنها تتطلي عليهم لأن الذهن شيء عجيب، إنه لا يرى سوى ما يتوقع وجوده، والذهن في هذه الحالة يتوقع رؤية كَفِّ يد حقيقية ولهذا لا يرى سواه. يمكننا القول إن الدماغ كسول بسبب انهماكه الدائم ونشاطه المحموم الذي لا يتوقف، كما أنها تتطلي عليهم لأنهم كما قلت.. يسهل تشتيت انتباههم، لكن حركات يديك لا تشتتهم. إن معظم الناس الذين يشاهدون العروض السحرية لا يشاهدونها بالفعل.. إنهم غارقون في أفكارهم، في ندمهم على أشياء قاموا بها البارحة، أو غارقون في القلق إزاء شيء قد يحدث غداً ولهذا.. إنهم ليسوا هنا تماماً، ولهذا بالتالي لا يمكن لهم ملاحظة حقيقة القفاز؟".

لم أفهم عندها ما كانت تقوله لكنني أومأت برأسي، لا بد أن أفكر بكلماتها فيما بعد وأعيدها في ذهني وأحللها.

"لا تسيء فهمي.. أنا أهتم بالسحر، لكنني لا أثق بالسحر الذي يتطلب القيام بحيل وألاعيب وخفة اليد.. هل تعرف شيئاً عن السحر الذي أتكلم عنه؟".

"لا.. لكنه يبدو شيقاً". أجبتها لأنني أردت منها الاستمرار بكلامها، لأنني سُعدت بفكرة إقامة حوار حقيقي ما بيننا، شعرت بأهميتي.

"هل قمت من قبل بخدع تحتوي على النار؟".

"حسناً، يمكنك القيام بنفس خدعة القفاز باستخدام سيجارة مشتعلة أيضاً لكنني لم أقم بها بنفسي.. لا بد من استعمال النار لإشعال السيجارة..".

"حسناً، تخيل شرارة نار صغيرة، ثم تخيل أنك تملك القدرة على تحويلها إلى نار عظيمة.. إلى كرة نارية".

"هذا يبدو شيقاً جداً.. كيف تقومين بهذا؟".

"هنا يكمن السحر.. يمكنك تحويل تلك الشرارة الصغيرة إلى كرة نارية عظيمة باستخدام شيء واحد، ألا وهو العقل".

لم أفهم ما تعنيه بكلامها لكنني عشقت الفكرة، وكنت أحب السحرة الذين يتمكنون من تنويم الناس مغناطيسياً، ولوي الملاحق بأفكارهم والارتفاع في الهواء.

صفقت روث بيديها وقالت:

"أنت تعجبني يا جيم.. تعجبني جداً".

"شكراً". وشعرت بسعادة غامرة بسبب جملتها الأخيرة.

"سأتواجد في هذه البلدة لستة أسابيع فقط، وإذا وافقت على الحضور لمقابلتي يومياً طوال الأسابيع الستة المقبلة، فسأعلمك بعضاً من السحر، السحر

الذي لا يُباع في المتاجر، والذي سيساعدك على تحويل كل ما تريده في ذهنك وتفكر فيه إلى شيء مادي ملموس في الواقع.. أنا أتكلم معك بكل صدق.. لا حيل ولا شعوزات.. لا قفزات ولا تدريبات على خفة اليد.. ما رأيك بهذا؟".

"ما الذي يدفعك إلى القيام بهذا؟".

"لأنني أعرف كيف أحول شرارة إلى كرة نارية عظيمة، لقد علمني أحدهم ذلك في الماضي وأعتقد أن الوقت قد حان لرد الجميل ولهذا فسأعلمك.. يمكنني أن أرى شيئاً مميزاً فيك، وإذا ما حضرت إلي هنا كل يوم دون الإخلال بيوم واحد فستتمكن من ملاحظة خصوصيتك أيضاً، أعدك بذلك. سيتطلب ذلك من كلينا بذل الكثير من الجهد وسيتوجب عليك القيام بكثير من التمارين والتدريبات على ما سأعلمك إياه أكثر مما قمت به مع خدعة القفاز من قبل، لكنني أعدك بأن ما سأعلمك إياه سيغير حياتك إلى الأبد".

لم أجد كلمات مناسبة أردّ بها على ما قالته.. لم يقل لي أحد من قبل بأنني إنسان مميز، وأعرف أن روث لن تعتبرني مميزاً على الإطلاق لو عرفت حقيقة عائلتي ومنشأتي.. لم أعرف إذا ما كنت أصدق بالفعل بأنها قادرة على تعليمي كيفية تخليق الأشياء من العدم، لكنني وددت الحديث معها كما فعلنا اليوم. لقد منحني الوجود بقربها شعوراً جيداً.. شعرت بالسعادة وأحببت الإحساس الذي منحني إياه.. إحساس أنني شخص محبوب، وهو شعور غريب جداً حين يمنحه لنا شخص غريب كلياً.. لقد بدت روث مثل جدة حقيقية.. إلا عيناها.. عيناها نطقتا بالسكر والأسرار والمغامرة، ولم أكن أنتظر حدوث أي مغامرة أخرى خلال ذاك الصيف.. وها هي تلك المرأة تعرض أن تعلمني شيئاً يمكن له تغيير حياتي. يا للغرابة.. سواء كانت تستطيع أو لا تستطيع.. لم أكن أعرف، لكنني كنت أعرف أنني لن أخسر شيئاً، وشعرت بالأمل، وهو الشيء الوحيد الذي لم أشعر به من قبل.

"ماذا تقول يا جيم.. هل أنت جاهز ومستعد لتعلم شيء من السحر الحقيقي؟".

وبهذا السؤال البسيط، تحوّل مسار حياتي كلياً مهما كان ما يخبئه لي
القدر من قبل.

الفصل الثاني

جسد في فترة راحة

منذ فجر الحضارة، اعتُبر جوهر العقل والوعي عند الإنسان سرّ الأسرار وأكثرها غموضاً ومنعة على الفهم، وقد اعتبر المصريون القدماء في القرن السابع عشر قبل الميلاد أن العقل موجود في القلب. وعند الموت، كان القلب العضو الذي يُعامل بتبجيل وتقديس ويُحتفظ به مع بقية الأعضاء الداخلية، أما الدماغ، فلم تكن له أهمية تذكر عند الفراعنة، ولهذا اعتادوا إزالته قبل التحنيط من الرأس بواسطة خطاف صغير يدخلونه من خلال فتحة الأنف وتجاويفه الداخلية ثم التخلص منه. وفي القرن الرابع قبل الميلاد، اعتقد أرسطو أن عمل الدماغ هو تبريد الدم، ولهذا برأيه كان البشر (الذين يتمتعون برؤوس أكبر) أكثر عقلانية من وحوش الأرض ودوابها (ذات الدم الحار).

لقد احتاجت البشرية لخمسة آلاف عام لتقلب نظرتها إلى حقيقة الدماغ رأساً على عقب، ولم يبدأ البشر بفهم علاقة العقل الجوهرية بحقيقة هويتنا إلا مؤخراً بسبب التفكير في أحوال من يتعرضون لارتجاجات دماغية أو صدمات على الرأس أو حوادث أليمة بسبب الحروب ويُظهرون خللاً أو تدهوراً في الفكر أو السلوك الوظيفي. ومع أننا تعلمنا الكثير عن تركيبية الدماغ البنيوية وتشريحه ووظائفه، إلا أن فهمنا له ما يزال ضئيلاً محدوداً. وفي الواقع.. اعتقد الناس خلال معظم سنوات القرن العشرين أن الدماغ عضو محدود ثابت غير قابل للتغيير والتطور، أما اليوم، فنحن نعرف أنه يمتلك مرونة عظيمة تمنحه القدرة على التطور والتكيف والتحوّل، إنه يتشكل من خلال التجربة والتكرار والنوايا. لم نتمكن من ملاحظة هذا إلا بعد التقدم العلمي الهائل الذي حققناه خلال العقود

المنصرمة والذي مكنا من ملاحظة تحولات الدماغ على المستوى الخلوي والجيني الوراثي وحتى على المستوى الجزيئي. كل فرد منا كما عرفت يمتلك القدرة على تغيير وتبديل وتحويل مسارات الدارات العصبية الموجودة في أدمغتنا بشكل استثنائي وغير عادي على الإطلاق.

كانت باكورة عهدي مع المرونة الدماغية وقدرته على التحول قد حدثت مع روث في غرفة خلفية تابعة لمتجر السحر الذي يقع ضمن مجمع تجاري بسيط. لم أكن أعرف كل هذا في سن الثانية عشرة، لكنها قامت بالفعل خلال ستة أسابيع بإعادة هيكلة عقلي حرفياً. لقد قامت آنذاك بما يعتقد الكثيرون بأنه ضرب من ضروب المستحيل.

لم أخبر أحداً عن خططي بالذهاب إلى متجر السحر كل يوم لكن أحداً لم يسألني بكل الأحوال، وكان الصيف في لانكاستر أشبه بقضاء أبدية لا متناهية في جحيم تعصف به الرياح، مترافقة مع حاجة ملحة للقيام بشيء ما، شيء مهم حقاً.. لكني لم أجد ما يمكن لي القيام به بالفعل. وكان المجمع السكني الذي أعيش فيه محاطاً بأرض يباب تغزوها الأعشاب المحترقة، كان مشهداً سرمدياً لا يتغير إلا حين يرمي فيه أحدهم قطعة آلية لا يمكن إصلاحها أو يهجر فيه سيارة قديمة.. أشياء لم تعد ذات قيمة ولم يعد للناس بها حاجة، تُرمى في مكان لا يمكن لأحد أن يلاحظها فيه.

يتصرف الأطفال - كما الكبار - بأفضل طريقة ممكنة ويقومون بأفضل أداء ممكن عندما يشعرون بالثقة والقيمة، لأن الدماغ يشتهي كلاً من تينك الشعورين، وفي بيتنا.. لم يكن هناك أي منهما، لم يكن هناك وقت لتناول وجبات الطعام، ولا منبه يوقظنا صباحاً للذهاب إلى المدرسة ولم يكن هناك وقت أيضاً للنوم مساء. كانت أُمي تعدّ لنا وجبة طعام متواضعة عندما تخفّ حدة الاكتئاب لديها وتتمكن من مغادرة السرير، هذا إذا كان هناك طعام في البيت، وعندما لم يكن هناك طعام، كنت أنام جائعاً أو أذهب لزيارة صديق وأتمنى أن يطلب مني البقاء لتناول العشاء عنده.

تصورت آنذاك أنني محظوظ لأن أهلي لم يفرضوا عليّ ساعة محددة للعودة إلى المنزل كما هو حال معظم أصدقائي، ولهذا لم يكن يتوجب عليّ العودة إلى البيت في وقت محدد، ولم أكن أرغب بالعودة إليه سوى في وقت متأخر لأنني كنت أعرف أنني إذا عدت فسأشهد شجاراً معتاداً أو أحداثاً أبشع دفعتني مرات عدة لأتمنى أن أكون في مكان آخر أو شخصاً آخر. في بعض الأحيان، يكون أقصى ما تتمناه هو لقاء شخص يقول لك أي شيء.. لأن ذلك يعني أنك مهم بالنسبة إليه، وفي أحيان أخرى لا ترغب بذلك، لا لأنك لا تشعر بأهميتك بل لأنك تشعر ببساطة أنك غير مرئي، لأن آلام المحيطين بك تمحي وجودك وتخفيك عن العيون. تظاهرت بأني محظوظ لأنني لم أكن محاطاً بمن يزعجني ويطلب مني القيام بواجباتي المدرسية ويوقظني صباحاً ويطلب مني ارتداء هذا وذاك، لكنني كنت أظاهر فقط. المراهقون يشتهون الحرية، لكنهم لا يشتهونها فعلاً إلا حين يقفون على أرض صلبة راسخة تُشعرهم بالأمان.

طلبت مني روث أن أحضر إلى المتجر في تمام العاشرة صباحاً فاستيقظت باكراً فرحاً، وقد عانيت بالفعل حين خدلت للنوم في الليلة السابقة لأنني لم أتمكن من الغرق في النوم بسهولة، لم أملك أي فكرة عما تودّ أن تعلمني إياه ولم أكتثر حقاً.. كل ما رغبت به هو الكلام معها من جديد، وشعرت بالسعادة لأنني وجدت أخيراً مكاناً أذهب إليه.. شعرت بأهميتي.

رأيت روث من خلال زجاج الواجهة الأمامية في ذاك اليوم الأول من لقاءاتنا، كنت أركب دراجتي الجميلة البرتقالية ذات المقعد المائل للبياض، وأنا أذكر تلك الدراجة بوضوح شديد لأنها كانت أثمن ممتلكاتي، ولأنني اشتريتها بمالي الخاص الذي ادخرته من عملي في جزّ أعشاب الكثير الكثير من الحدائق في قِيط أيام ذاك الصيف الطويلة. لاحظت وأنا أركن الدراجة أنها وضعت عصابة زرقاء على رأسها أبعدت خصلات شعرها البني عن وجهها، وأن نظارتها تتدلى من طرفيها سلسلة معلقة برقبتها، أما رداؤها فكان يشبه الأردية التي نلبسها في حصة الفنون داخل الصف فوق ملابسنا كي لا تتسخ، وكان لونها مماثلاً تماماً لسماء لانكاستر في الصباح.. أرقّ درجات اللون الأزرق

الفتاح مع خطوط عرضية واهية بيضاء. في تلك السنوات، كان أول شيء أقوم به عندما أنهض صباحاً هو النظر من النافذة، ولسبب مجهول بالنسبة إليّ، كانت تلك السماء تشعرني بالأمل.

ابتسمت لي روث ابتسامة عريضة فابتسمت لها لكن قلبي خفق في صدري بقوة، وكنت أعرف أن خفقانه السريع هذا ناجم عن قيادة دراجتي بسرعة لكن جزءاً منه يعود أيضاً إلى عنصر المفاجأة لأنني لم أكن أعرف ما سيجري هنا، لم أكن أعرف له سبباً. لقد بدت لي فكرة جيدة البارحة ثم بدت هذا الصباح أفضل من قيادة الدراجة عبر الحقول العشبية اللانهائية، من الابتعاد الحثيث دون الوصول إلى أي مكان، والمتراقق دوماً بالأمل في إيجاد مكان أذهب إليه، ومع ذلك.. راودني الشك في تلك اللحظة.

ماذا أفعل؟ ماذا لو لم أكن ذكياً بما فيه الكفاية لتعلم السحر الذي ستعلمني إياه؟ ماذا لو عرفت حقيقة عائلتي؟ ماذا لو كانت امرأة مجنونة ستقوم بخطفي واصطحابي إلى وسط الصحراء للقيام بسحر أسود باستعمال جثتي الهامدة؟ لقد شاهدت فيلماً سينمائياً يدعى: ساحرة الفودو قبل فترة فشكت فجأة بأن تكون روث ساحرة مجنونة ستقوم بتحويلني إلى وحش تتحكم به بأفكارها للاستيلاء على العالم.

خارت قوى ذراعيّ، فتحت الباب قليلاً، ثم شعرت بأنه ثقيل للغاية على حين غرة.. لقد قاومني، فنظرت إلى الدراجة المائلة على أحد جانبيها وإلى المرأب شبه الفارغ.. ماذا أفعل هنا؟ لماذا وافقت على حدوث هذا؟ بإمكانني امتطاء دراجتي والابتعاد من هنا ونسيان المكان للأبد.

ابتسمت روث ونادت اسمي: "جيم.. تسعدني رؤيتك، لم أكن واثقة من حضورك".

أومات برأسها كما تفعل الجدّات وأشارت لي بالدخول، شعرت بدفع المكان ولم تبد لي ساحرة شمطاء شريرة مجنونة تخطط لتدميرني.

دفعت الباب فُتُح بسهولة.

"كنت تقود تلك الدراجة بسرعة شديدة وكأن أحداً يطارذك". سألتني حينما دخلت، والحقيقة، غالباً ما كنت أشعر بأنني مطارد، لكني لم أعرف هوية من يطاردني.

امتقع وجهي فجأة بحمرة الخجل.. ربما لاحظت خوفي أو شكوكي، ربما كانت تتمتع بقدرة الرؤية الخارقة التي تكشف ما يدور في العقول، نظرت إلى حذائي الرياضي المتهترئ، وتأملت الثقب الموجود على مقدمة الفردة اليمنى، شعرت بالحرج، فقبضت أصابع قدمي إلى الداخل كي لا تراه.

"هذا ابني نيل، إنه الساحر صاحب المتجر". إذا كانت قد لاحظت ثقب حذائي فلا بد أنها قد أخفت ما اكتشفته.

لم يبد نيل ساحراً مثل السحرة الحقيقيين، كان يضع نظارة سوداء وله شعر بني كشعر والدته، وبدا شخصاً عادياً جداً، لم يكن يرتدي أي قبعة سحرية وليس له شارب بديع كزملاء مهنته.

"سمعت أنك تحب السحر". قال نيل بصوت عميق وهادئ، وبجانبه، كان يضع أكثر من خمسين مجموعة مختلفة من أوراق اللعب على منضدة البيع الزجاجية.

"نعم، السحر جذاب جداً".

"هل تعرف أياً من حيل الورق؟" وتناول مجموعة ورق وبدأ يناور بها في يديه، بدت لي الأوراق وكأنها تحلق من يده اليمنى إلى اليسرى، إلى الأمام ثم إلى الخلف، ثم من جديد، تحلق في الهواء بشكل يسحر العيون، وددت أن أتعلم كيفية فعل ذلك، فتوقف ومدّ يده باتجاهي وقدم لي مجموعة الورق.

"اختر ورقة".

نظرت إلى الورق فبدت لي إحداها وكأنها تبرز قليلاً إلى الخارج أكثر من رفيقاتها، فظننت أنها الخيار الذي يدفعني لانتقائه، فما كان مني إلا أن سحبت واحدة أخرى بعيدة عنها تماماً.

"والآن.. لا ترني إياها، بل قربها منك وانظر إليها".

نظرت إلى الأسفل واستكشفتها دون أن أبعداها عن صدري خوفاً من وجود كاميرات خفية خلفي، فوجدت أنها ورقة ملكة البستون.

"والآن، ضعها مقلوبة دون أن تكشفها ضمن أوراق اللعب، ثم اخلط الأوراق بنفسك كما تريد، نعم.. هكذا".

أعطاني نيل كل الأوراق فحاولت أن أخطأها بمهارة وليونة ونجحت في ذلك.

"اخطأها من جديد".

اخطأتها مرة أخرى ونجحت في خطأها بمهارة أكبر في المرة الثانية فانتهت مرتبة فوق بعضها بأناقة.

"والآن مرة أخرى".

تذكرت خلال خلط الأوراق للمرة الثالثة أن أدفع بأصابعي بينها لتتحني بين يدي ثم قسمتها نصفين وطبقتهما بشكل متداخل.

"جيد جداً". سلمته الورق فبدأ يسحب منها أوراقاً ويكشفها، وكان يرفع إحداها بين الحين والآخر ويمعن النظر فيها ثم يقول:

"هذه ليست البطاقة التي اخترتها يا فتى". ثم سحب ورقة ملكة البستون وقال:

"هذه هي.. هذه ورقتك". ولوّح بها بشكل جميل ثم وضعها أمامي على المنضدة الزجاجية.

"هذا رائع". قلت مبتسماً متسائلاً عن كيفية اكتشافه لها، رفعتها وتفحصت جوانبها لأتأكد من أنها غير مميزة عن الأخريات.. لا شيء.

"هل تعرف من تكون صاحبة الصورة؟ من تمثل ملكة البستون؟".

حاولت أن أذكر اسم أي ملكة سمعت عنها في المدرسة أو الصف ولم أذكر سوى واحدة:

"الملكة إليزابيث". فابتسم لي نيل وقال:

"لو كانت مجموعة الورق هذه إنكليزية لكنت على حق، لكن هذه الأوراق فرنسية، وفي مجموعة الورق الفرنسية تمثل كل ملكة امرأة مختلفة من التاريخ أو الأساطير. تمثل ملكتي القلوب والديناري في الورق الفرنسي كلاً من يهوديت وراشيل، وهما امرأتان قويتان ذكرتا في التوراة، أما ملكة الإسباتي فتمثل امرأة تدعى أرجين، وهي امرأة لم أسمع عنها من قبل، لكن اسمها هو تحريف عن اسم ريچينا، الكلمة اللاتينية التي تعني: الملكة، وهي ملكة الإسباتي، أما ورقتك، هي الإلهة اليونانية أثينا، إلهة الحكمة ورفيقة كل الأبطال التاريخيين.. لو ذهبت في رحلة ملحمية بطولية، فلا بد أن تطلب من أثينا أن تكون في صفك".

"كيف عرفت أنها ورقتي؟".

"أنت تعلم بلا شك أن الساحر لا يكشف حيله لأحد أبداً، ولكن.. باعتبار أنك حضرت إلى هنا لتتعلم، فأعتقد أنني سأبوح لك بهذا السرّ. قلب نيل الورقة على قفاها وقال:

"هذه مجموعة ورق مميزة بعلامات، إنها تبدو كأى مجموعة أخرى، لكنك إن نظرت إلى هذه الزينة التي تبدو أشبه بالزهرة هنا في الأسفل، لرأيت أنها

تحتوي على ثماني بتلات، وكل بتلة تمثل ورقة من الاثنتين للتسعة، أما قلب الوردة فيمثل الرقم عشرة، وفي الزوايا، تمثل هذه الدوامات أنواع الورق الأربعة..". وأشار إلى شكل آخر بجانب الوردة ثم تابع:

"عندما يميّز الساحر مجموعة أوراق لعب بإشارات معينة يقوم بتظليل بتلة معينة أو المركز مع بتلة ما للتعبير عن ورقة الشاب أو الملكة أو الملك، وإذا لم يكن هناك أي شكل مظلل، فهذا يعني أن الورقة هي آس، ثم تظلل إحدى الزوايا هنا لتحديد نوع الورق، وهكذا ترى معي.. إذا نظرت إلى الورقة التي اخترتها فستتمكن من رؤية شيفرتها. قلب الوردة مظلل بالإضافة لثلاث بتلات مما يعني أنها ملكة، وها هنا يمكنك أن ترى أن شكل الإسبات هو الشكل المظلل على الزاوية".

أمعنت النظر في الورقة فلاحظت أن التظليل كان ناعماً جداً، لم أكن لألاحظها لو لم أعرف الشيفرة.

"يتطلب الأمر منك بعض الاجتهاد، ولكن، ما إن تحفظ الأشكال حتى تتمكن من قراءتها بسرعة ويسر".

نظرت إلى كل مجموعات الورق الموجودة أمامي على المنضدة وسألته:

"أكل هذه المجموعات مميزة بشيفرات كهذه؟".

"لا.. إنها مجموعات أوراق مختلفة للألعاب مختلفة أخرى، أنا أصنعها بنفسني، أوراق اللعب هي اختصاصي".

لقد سمعت من قبل عن هذه الأوراق المميزة الخاصة بكل خدعة ورق بعينها لكنني لم أسمع سوى بواحدة أو اثنتين، أما الأسماء الأخرى التي ردها لي فلم أسمع بها من قبل، لكنني لم أرغب بأن أبدو أمامهما كمغفل.

"هل تعرف أنهم أرسلوا خلال الحرب العالمية الأولى مجموعات أوراق

لعب استثنائية إلى سجنائهم في المعتقلات الألمانية؟ كانت كل ورقة منها تُقشّر كصورة لاصقة، وتحتوي على جزء من خريطة يمكن ترتيبها سوياً لتحصل على طريقة للهروب من المعتقل؟ كانت خدعة سحرية رائعة بحق".

أعاد نيل ملكة السباتي إلى مجموعة الورق وناولني إياها وقال:

"يمكنك الاحتفاظ بهذه المجموعة، إنها هدية مني".

أخذت منه الورق.. لم يمنحني أحد شيئاً من قبل مجاناً.

"أشكرك.. أشكرك كثيراً". وأقسمت في نفسي بأن أحفظ علامة كل ورقة منها لأصبح جيداً مثله.

"تقول أُمي أنها ستعلمك قليلاً من السحر الحقيقي".

ابتسمت له لأنني لم أعرف عمّا يتكلم.

"إن سحرها يفوق بأشواط كثيرة كل ما تراه هنا في هذا المكان. بإمكانك أن تحصل على أي شيء تريده من خلال سحرها، إنه يشبه جنّي المصباح السحري، لكنها ستعرفك على الجنّي القابع في رأسك. ولكن.. احذر أمنياتك..".

"هل سيتسنى لي أن أتمنى ثلاث أمنيات كقصة المصباح السحري؟".

"يمكنك أن تطلب ما شئت من الأمنيات، إلا أن الأمر سيتطلب منك كثيراً من التمرين، وهو أمر أصعب من تعلم حيل الورق لكنه لا يبدو كذلك في البداية.. اضطررت للتمرين لوقت طويل جداً حتى وصلت إلى نتيجة، تذكر فقط أن تنصت بانتباه لكل ما تقوله أُمي. لا توجد أي اختصارات.. عليك أن تتبع تعليماتها بالضبط وتلتزم بتطبيقها بحرفية شديدة".

أومأت برأسي له ودسست الورق في جيبِي.

"ستأخذك إلى الخلف الآن، لدينا مكتب صغير في الداخل، وتذكر..
افعل كل ما تقوله لك". ثم نظر إليها وابتسم.

مسحت روث جبين ابنها ثم نظرت إلي وقالت:

"هيا بنا يا جيم، لنبدأ".

تقدمتني روث إلى باب يقع في آخر المتجر، تبعتها وأنا لا أملك أي فكرة
عمّا سنفعله في الداخل.

كان المكتب الخلفي معتماً وعابقاً برائحة الرطوبة، لم يكن له أي نافذة،
ولم يحتو سوى على مكتب قديم بني اللون يجاوره كرسيان معدنيان، أما السجادة
التي تتوسط أرض الغرفة فكانت بنية خشنة وتبدو كعشب بني قصير ينمو ما
بين الجدران.. لم يكن المكان يحتوي على أي أدوات سحرية.. لا عصي ولا
أكواب بلاستيكية ولا أوراق لعب ولا قبعات.

"اجلس يا جيم".

جلست روث على أحد الكرسيين فجلست مقابلها على الكرسي الآخر،
كنا متواجهين وكادت ركبتنا أن تتلامس تحت المكتب، وكانت ساقي اليمنى تهتز
بتوتر صاعدة هابطة كما يحصل كلما شعرت بالتوتر، وكان ظهري للباب لكنني
حفظت موقعه تحسباً للهرب، وحسبت بعقلي الوقت اللازم للخروج من المكان
والوصول إلى دراجتي.

"أنا سعيدة لأنك حضرت إلى هنا". وابتسمت لي فشعرت بتراجع التوتر
في ساقي. ثم سألتني: "كيف تشعر؟".

"على ما يرام".

"بم تشعر الآن؟".

"لا أعرف".

"هل أنت متوتر؟".

"لا".

وضعت روث يدها على ركبتي اليمنى وضغطتها إلى الأسفل فتوقفت فجأة عن الاهتزاز. تحقّرت وتهيأت للهرب إذا ما تطورت الأمور وأخذت منحى خطيراً، ثم رفعت يدها عن ركبتي.

"كنت تهزّ ساقك كما لو كنت متوتراً".

"أعتقد أنني كنت أفكر بما ستعلميني إياه".

"السحر الذي سأعلمك إياه هو شيء لا يمكن لك شراؤه من المتجر، عمره مئات، وربما آلاف الأعوام، ولا يمكنك تعلّمه إلا إذا علّمك شخص ما".

أومأت برأسي.

"ولكن عليك أن تعطيني شيئاً في البداية".

كنت متأكداً من أنني على استعداد لأن أمنح روث أي شيء تريده كي تعلمني أسرارها، لكنني لم أكن أملك أي شيء غير دراجتي.

"ماذا تريدان؟".

"عليك أن تعاهدني بأنك ستعلم شخصاً آخر ما سأعلمك إياه في هذا الصيف، وعليك أن تجعل ذلك الشخص يعاهدك أيضاً بأنه سيعلم شخصاً آخر، وهكذا دواليك.. هل يمكن لك معاهدتي على ذلك؟".

لم يكن لديّ أي فكرة عن الشخص الذي سأعلمه في المستقبل، وفي تلك

اللحظة.. لم أكن أدري إن كنت قادراً بالفعل على تلقيه لأحد آخر، لكن روث تابعت التحديق إليّ بانتظار إجابتي، وعرفت أنه لا مناص من إجابتها بإجابة واحدة لا ثانٍ لها.

"أعاهدك".

فكرت بعقد أصابع يدي خلف ظهري ليكون العهد نابعاً من القلب، لكنني رفعت بدلاً من ذلك ثلاثة أصابع كما شاهدت أحد أبطال السينما يفعلون، وتخيلت أن طريقته تُضفي طابع الرسمية على عهدنا.

"أغمض عينيك.. أريد منك أن تتخيل نفسك ورقة شجرة تطير مع هبوب الرياح".

فتحت عيني وعبست.. كنت طويل القامة نسبة لعمرى لكني كنت نحيلاً جداً، مما جعلني أشبه بغصين عالق في الأرض من ورقة ضعيفة تحملها الرياح.

"أغمض عينيك". رددت بلطف وأومأت برأسها.

أغمضت عيني مجدداً وحاولت تخيل ورقة تطير مع الرياح، ربما كانت تنوي تنويمي مغناطيسياً لأظن بأني ورقة، وقد رأيت هذا من قبل على خشبة أحد مسارح العروض، حيث قام الساحر بتنويم الجمهور وجعلهم يظنون بأنهم حيوانات مختلفة في مزرعة. ثم جعلهم يتصارعون مع بعضهم البعض فضحكت وفتحت عيناى.

اعتدلت روث في جلستها مقابلي وكانت تمسك بخصرتيها بيديها، تنهدت قليلاً وقالت:

"جيم.. أول حيلة ستتعلمها هي كيفية إرخاء كل عضلة في جسمك، وهي ليست سهلة كما تبدو".

لم أكن واثقاً من أنني شعرت بالاسترخاء من قبل، كنت على الدوام في حالة استعداد للهروب أو القتال، فتحت عيناى مجدداً فمدت روث يدها إلى الجهة اليمنى ونظرت مباشرة في عيناى.

"لن أؤذيك.. بل سأساعدك.. هل تثق بي؟".

فكرت بسؤالها ووجدت أنني لم أكن أثق بأي شخص في حياتي، وبالتأكيد لم أكن أثق بالكبار، لكن أحداً لم يطلب مني من قبل أن أثق به، وأحببت الشعور الذي منحني إياه ذلك. رغبت بأن أضع كل ثقتي فيها، رغبت في تعلم ما تريد مني تعلمه، لكن الوضع بكامله بدا لي مفرطاً في الغرابة.

"لم؟.. لماذا ستساعديني؟".

"لأنني عرفت في اللحظة التي التقينا فيها بأنك تملك كل المقومات الدفينة اللازمة.. قرأت ذلك في وجهك.. وأرغب في تعليمك قراءة ذلك أيضاً".

لم أكن أعرف آنذاك معنى المقومات الدفينة اللازمة ولا كيف عرّفتُ أنني أمتلكها، لم أعرف آنذاك بأنها قرأت في وجه معظم زبائن متجر السحر مقومات مماثلة في ذاك اليوم من صيف عام 1968.

"حسناً.. أثق بك".

"حسناً.. سنبدأ من هنا، ركز تفكيرك على جسدك الآن، كيف تشعر؟".

"لا أعرف".

"فكر بأنك تقود دراجتك، كيف تشعر عندما تقود دراجتك بسرعة كبيرة؟".

"أشعر بشعور جيد على ما أظن".

"ماذا يفعل قلبك الآن؟".

"يخفق.. وابتسمتُ.

"هل يخفق بسرعة أم ببطء؟".

"بسرعة".

"حسناً، كيف حال يداك؟".

نظرت إلى الأسفل فلاحظت بأن يداي تمسكان بجانب الكرسي، فأفلتتهما.

"إنهما مسترخيتان".

"حسناً.. ماذا عن تنفسك؟ هل هو قوي أم عادي؟".

تنفست روث بعمق شهيقاً وزفيراً وسألتني: "أهو مثل هذا النفس؟" وبدأت تتنفس بسرعة وكأنها تلهث.

"أعتقد أنه ما بين بين".

"هل تشعر بالتوتر؟".

"لا". كذبت.

"ساقك تهتز من جديد".

"ربما قليلاً".

"الجسد يشير إلى ما يجري داخلنا، وهو أمر مذهل بالفعل، قد يسألك شخص ما عن حالك فتجيبه: لا أعلم، لأنك لا تعلم بالفعل ربما أو لأنك لا تريد الإجابة، لكن جسدي يعرف على الدوام حقيقة شعورك، يعرف عندما تشعر بالخوف، بالسعادة، بالحماس، بالعصبية، بالغضب، بالغيرة، بالحزن.. قد يفكر

ذهنك بأنك لا تعرف، لكن جسدك سيجيبك حين تسأله. لجسدك ذهن خاص به بطريقة ما. إنه يستجيب وينفعل، يستجيب أحياناً بالطريقة الصحيحة وبشكل خاطئ في أوقات أخرى.. هل تفهمني؟".

فكرت بكلامها وعرفت على الفور مدى صدقه، كنت أحزر مزاج أُمي من اللحظة الأولى التي أعود فيها إلى المنزل، من الخطوة الأولى داخله، لم تكن تحتاج لقول كلمة واحدة كي أقرر حالتها النفسية، كنت أشعر بحالتها في قلب معدتي.

رفعت كتفي وحاولت تتبع ما تقوله.

"هل تشعر بالحزن الشديد أو الغضب الشديد في بعض الأحيان؟".

"أحياناً". لكني كنت غاضباً معظم الأحيان ولم أرغب في الاعتراف بذلك.

"أريد منك أن تخبرني عن إحدى المرات التي شعرت فيها بالغضب أو بالحزن والمرارة، ثم سنتحدث عن ما يجري في جسدك عندما تتكلم عما أزعجك فيما سبق".

تلاحقت الصور في ذهني ولم أعرف بم أخبرها، هل أخبرها عن المرة التي ذهبت فيها إلى المدرسة الكاثوليكية فصفعتني الراهبة، فما كان مني إلا أن صفعتها بلا تفكير؟ أم أخبرها عن ليلة الخميس التي عاد فيها أبي مخموراً مجدداً كعادته؟ أو ربما أخبرها عما قاله الطبيب حين اضطررت لاصطحاب أُمي إلى المستشفى وشعوري بالرغبة بضربه أو الزحف إلى أقرب حفرة للاختباء فيها من هذا العالم.

"صوت أفكارك مرتفع جداً يا جيم إلى درجة أنني أسمعها، لكني لا أفهم كلماتها، أخبرني بما تفكر به الآن في الحال".

"أنا أفكر بكل الأمور التي لا أرغب بأن أقولها لك".

ابتسمت وقالت: "لا بأس.. لن تتسبب بأي مكروه، نحن نتكلم عما كنت تشعر به من قبل، والمشاعر ليست فضيلة أو إثمًا، إنها مجرد مشاعر".

لم أصدق ما قالته، وشعرت بخجل عظيم من مشاعري وغضبي وأحزاني وكل الطرق التي بدا لي فيها بأن مشاعري تجرّفني وتغلبني.. ورغبت في الفرار.

"سأقك تعلو وتهبط بسرعة إلى درجة أنك قد ركضت الآن ميلاً كاملاً في دقيقة واحدة.. سوف أعدّ إلى الثلاثة، وبعدها أطلب منك أن تخبرني قصة.. لا تفكر بما ستخبرني به.. اتفقنا؟ سوف أعدّ إلى الثلاثة الآن.. هل أنت جاهز؟".

كنت ما أزال أحاول التخلص من أفكار المتصارعة ومشاعري الهائجة إلى أن وجدت شيئاً غير محرج للغاية، لم أرغب في إخافتها منّي.

"واحد..".

ماذا لو كانت كاثوليكية، وعندها سيصيبها الرعب حين تعرف أنني صفت راهبة وطُردت من المدرسة وأبعدت عن البيت لأعيش مع أختي الكبرى وزوجها، حيث تورّطت في شجار آخر وطُردت من تلك المدرسة أيضاً؟ ماذا لو طردتني وطلبت مني عدم الحضور إلى متجرها من جديد بسبب عنفي الشديد؟

"اثنان..".

ماذا لو أخبرتها عن مدى جنوني في مواجهة والدي عندما دمر سيارتنا بسبب قيادته تحت تأثير الكحول، واضطرارنا للتجول بها وواجهتها الأمامية منبعجة إلى الداخل وصدّامها الأمامي مثبت إليها بحبل وكأننا نحمل لافئة كبيرة تقول: انظروا كم نحن فقراء.. لا يمكننا دفع كلفة إصلاح سيارتنا..؟ ماذا لو اعتقدت بأنني ابن عاق؟

"ثلاثة.. تكلم..".

"والدي يسكر.. لا يسكر كل يوم، لكنه يسكر كثيراً، إنه يذهب لاحتساء الكحول ويختفي أحياناً لأسابيع كاملة، يتركنا بلا مال إلا شيكات المساعدة الاجتماعية التي نتلقاها من الحكومة، وهي لا تكفي. وعندما لا يسكر، ننتقل في المنزل على رؤوس أصابعنا كي لا نشير جنونه. وعندما يسكر في المنزل يصبح ويشتمنا ويكسر الأشياء فتبدأ أُمي بالبكاء. يختفي أخي كلما جرى ذلك، أما أنا فأتوارى في غرفتي وأنصت لهما خوفاً من حدوث أي شيء سيء واضطراري للقيام بدور ما لإنقاذ الموقف. أنا أقلق على والدتي.. إنها تمرض كثيراً وتلازم الفراش معظم الأوقات وتبدو أسوأ حالاً كلما سكر والدي وتشاجرا.. تصرخ عليه أثناء وجوده في البيت وتسكت حين يغادر، لا تغادر الفراش ولا تأكل ولا تقوم بأي شيء، ولا أعرف ما ينبغي عليّ فعله".

"تابع يا جيم..". كانت تصغي لي بالفعل، أرادت سماع كلماتي بالفعل ولم تبد عليها الصدمة، بل ارتسمت على وجهها ابتسامة دافئة توحى بالتفهم، كما لو أنها كانت تعرف بالفعل كل ما أخبرتها إياه، أو على الأقل أنها لا تعتقد بأن عائلتي حثالة بسبب فقرنا.

"تابع..". شجعتني على المضي..

"عدت من المدرسة في أحد الأيام لأجد الهدوء يعمّ المنزل، لكنه كان نوعاً غريباً من الهدوء، دخلت غرفة أُمي فوجدتها في السرير، كانت قد ابتلعت كمية كبيرة من الحبوب المهدئة، لقد ابتلعت الكثير، فهرعت إلى الشقة المجاورة وطلبت من السيدة هناك أن تقلنا إلى المستشفى.. لقد أسعفناها من قبل في مثل هذه الحالة.. أعني والدتي.. قامت بمثل هذه المحاولات من قبل. رقدت أُمي على سرير المستشفى وجلست بجانبها وسمعتهم يتحدثون عنها خلف الستارة. كان أحدهم غاضباً بشدة لأنه مضطر للقيام بكل هذه المعاملات الورقية لأُمي، وقال أنها فعلت ذلك من قبل، وأنه ضجر من هدر الوقت على أشخاص كهؤلاء، فضحكت امرأة ما وقالت: "ربما تكون هذه المرة الأخيرة". لم أعي ما قصدته فوراً،

ثم قهقهها فاعتراني غضب شديد ورغبت في تمزيق الستارة والصراخ في وجهيهما.. لا يجب أن يكون العاملون في المستشفى بهذه القسوة.. كما شعرت بالغضب من أمي لأنني لم أفهم السبب الذي يدفعها لارتكاب ذلك.. إنه ظلم.. إنها تخرجنا.. شعرت بالغضب أيضاً من والدي لإغضابها وإغراقها بكل ذلك الحزن.. شعرت بالغضب من كليهما ومن كل العاملين في المستشفى.. أنا أغضب كثيراً في بعض الأحيان".

لا أعرف ما العمل الآن بعد أن توقفت عن الكلام.. جلست روث مقابلي بينما رحت أحملق في الثقب المخجل الموجود في حذائي.

"جيم.. نادتنني روث بلطف: "كيف يشعر جسدك الآن في هذه اللحظة بالذات؟".

رفعت كتفي.. ماذا ستفكر بعد أن عرفت كل ذلك عن عائلتي؟

"كيف حال معدتك؟".

"متهيجة".

"كيف حال صدرك؟".

"متضيق.. أشعر بألم خفيف عند التنفس..".

"ماذا عن رأسك؟".

"رأسي يؤلمني كما لو أصيب بضربة قوية".

"ماذا عن عينيك؟".

لم أعرف السبب، لكنني أدركت في اللحظة التي سألتني فيها عن عيني أنني أرغب في إغماضهما والبكاء.. لم أكن لأبك ساعتها.. لم أكن أرغب في

البكاء.. لكني لم أتمكن من منع عيناى من ذرف الدموع... وتدحرجت الدمعة الأولى على خدي..

"عيناى تحرقاننى قليلاً على ما أظن".

"أشكرك على ما أخبرتنى به عن والديك يا جيم.. ينبغي علينا التوقف أحياناً عن التفكير بما يجدر بنا التفوّه به وقول ما نحتاج لقوله فقط".

"من السهل عليك قول هذا".

ضحكنا معاً فشعرت للمرة الأولى بأني أفضل حالاً.

"لم أعد أشعر بضيق في صدري".

"جيد.. هذا جيد. سوف أعلمك تقنية تسمح لك بإرخاء كل عضلة من عضلات جسدك وأريد منك التمرين على هذا كل يوم لمدة ساعة، أريد منك التمرين في البيت مساء على كل ما سنتمرن عليه هنا كل صباح، نوع من الواجب الليلي.. والآن، قد يبدو لك الاسترخاء أمراً سهلاً، لكنه أمر يصعب تحقيقه جداً ويتطلب الكثير من التمرين".

لم أذكر في تلك الآونة أي لحظة شعرت فيها بالاسترخاء كالذي تصفه روث، لطالما شعرت بالتعب لكني لا أذكر أنني شعرت بالاسترخاء، كما أنني لم أكن واثقاً من معنى الاسترخاء نفسه.

طلبت مني روث أن أجلس بشكل مريح بالنسبة لي وأغض عيناى، ثم طلبت مني مجدداً أن أتصور بأني ورقة تحملها الرياح.. بدا لي التحليق فوق الشوارع جميلاً.. وشعرت بأني أخفّ وزناً.

"لا ترتخي.. يجب أن تبقى صاحياً وتسيطر على عضلاتك رغم الاسترخاء الذي تنتشده.. خذ نفساً عميقاً ثم ازفره.. ثلاث مرات.. تنشق الهواء من أنفك وانفخه من فمك".

تنفست بأكبر عمق ممكن ثلاث مرات.

"أريدك أن تركّز الآن على أصابع قدميك.. فكر بأصابع قدميك.. اشعر بها، حركها قليلاً، اطوها ثم افردها، تنفس بعمق ثم ازفر ببطء، تابع التنفس والتركيز على أصابع قدميك في آن معاً.. اشعر بثقلها أكثر فأكثر..".

تناولت عدة أنفاس عميقة وحاولت التركيز على أصابع قدمي، قد تعتقد أن الأمر هين لكنه لم يكن كذلك. حركتها قليلاً داخل الحذاء ثم بدأت أتساءل عما إذا كنت سأحصل على حذاء جديد قبل بدء العام الدراسي المقبل، ثم فكرت بعدم توفر المال اللازم ونسيت أصابع قدمي.

ويبدو أن روث شعرت بكل مرة جرفتني فيها أفكار بيعداً عن أصابع قدمي لأنها كانت تقاطع الصمت وتطلب مني التنفس بعمق مجدداً كلما فكرت بشيء آخر. لا يمكنني أن أخبرك بطول الوقت الذي أمضيته في التنفس والتفكير بأصابع قدمي، لكنه بدا لي دهوراً.

"تناول نفساً عميقاً الآن وركز على قدميك".

بدأت أشعر بالغضب، والملل، ما دخل قدامي بتعلم ألعاب الخفة والسحر؟ لا بد أن الوقت قد اقترب من موعد الغداء، ربما كانت تنوي تجويعي حتى الموت.. لا بد أنها قرأت أفكارني لأنني أقسم أنها عرفت متى تقاطع أفكارني بالضبط.

"عد بأفكارك إلى قدميك".

حركت كاحلي بشكل محوري وفكرت بقدمي الكبيرتين الحمقاوين الجائعتين.

"فكر الآن بكاحليك وركبتيك، أرخ عضلات فخذك واشعر بوزن ساقيك وهما تضغطان على الكرسي".

تصورت أنني أكثر الناس بدانة على سطح الأرض وأن الكرسي لن يتحمل وزني وأني سأسقط عنه وأن الأرض ستُفتح تحتي في انهيار يقودني إلى الصين بسبب الوزن الزائد.

"أرخ عضلات معدتك الآن، قلّصها ثم ابسطها. فعلت كما طلبت مني مما دفع معدتي للقرقرة بصوت مرتفع، وأنا متأكد من أنها سمعته.

"حان الآن دور صدرك يا جيم، خذ نفساً عميقاً عدة مرات ثم أرخه واشعر بضربات قلبك وأرخ العضلات المحيطة به أيضاً.. قلبك مجرد عضلة أخرى.. تضخ الدماء والأكسجين إلى أنحاء جسمك، يمكنك إرخاؤها كأني عضلة أخرى".

تساءلت إن كان جسدي سيتوقف عن العمل إذا ما أرخيت قلبي.. ماذا ستفعل روث في مثل تلك الحالة؟

"ركز على مركز صدرك واشعر بعضلات صدرك ترتخي شيئاً فشيئاً، خذ نفساً عميقاً آخر واشعر بنبض قلبك حين ترتخي أكثر، ازفر الهواء الآن وركز على إرخاء عضلات صدرك..".

لاحظت في تلك اللحظة أن قلبي قد توقف عن الخفقان بسرعة.

تعلمت في كلية الطب أن القلب مرتبط بالمخ عبر البصلة السيسائية بواسطة عصب محدد مزدوج، وعرفت أن الإنسان قادر على تحفيز النظام العصبي اللاوَدِّي لإبطاء ضربات القلب وخفض ضغط الدم إذا حفّز ذلك العصب عبر الاسترخاء وإبطاء حركة التنفس. عرفت أيضاً أن انخفاض تواتر التحفيز لذلك العصب يحفز النظام العصبي الودّي، وهو ما يحدث حين الشعور بالخوف، حيث يرتفع معدل ضربات القلب. لكن كل ما عرفته في ذلك اليوم في متجر السحر أنني شعرت بأني أفضل قليلاً، أهدأ قليلاً عندما علمتني روث كيفية الاسترخاء والتنفس. لم أكن أعرف أي شيء عن الجهاز العصبي والطرق التي لا تعد ولا تحصى لآلية اتصال القلب بالدماغ. لم يكن أي منهما..

لا قلبي ولا عقلي بحاجة لدراسة أي شيء ليعملا على ما يرام.. كنت أرسل إشارات من دماغي إلى قلبي، وكان قلبي يستجيب.

"أريد منك الآن إرخاء كتفيك ورقبتك وفكيك، دع لسانك يتدلى إلى أسفل فمك، اشعر بعينيك وجبينك وهما يسترخيان، دع كل شيء، كل عضلة في جسمك.. استرخ فقط".

لم تقل روث أي كلمة أخرى لوقت طويل بدا لي دهنراً سحيقاً، جلست هناك محاولاً الاسترخاء، محاولاً التنفس ببطء، محاولاً عدم التملل، وسمعت أنفاسها العميقة فعرفت أنه ينبغي عليّ القيام بالمثل. ولكم هو أمر صعب أن تحاول التنفس بينما تفكر بكيفية القيام بذلك، حاولت استراق نظرات خاطفة إلى روث مرة أو مرتين من خلال عيناى شبه المغمضتين فرأيت عيناها المغمضتين ووضعيتهما في الكرسي التي كانت انعكاساً تاماً لوضعيتي أنا على الكرسي. ثم تكلمت أخيراً.

"حسناً، انتهى الوقت، افتح عينيك".

فتحت عيناى واعتدلت في جلستي فشعرت بأن جسدي مختلف بالفعل عما سبق.

"انتهينا يا جيم، أراهن بأنك تتوق لوجبة خفيفة الآن". ثم سحبت درجاً في المكتب وأخرجت منه علبة بسكويت بالشوكولاتة ثم قالت:

"خذ منها قدر ما تشاء". فأخذت حفنة لأنها كانت البسكويت المفضل عندي، ثم نظرت باتجاهي من فوق إطار نظارتها وقالت:

"لقد بدأت طريقك".

لم أعرف حقاً إلى أين سيقودني هذا الطريق الذي انطلقت فيه، لم أفهم آنذاك ما هو السحر الكامن في الجلوس أسيراً لكرسي لمدة ساعة.

"أريد منك يا جيم التمرين على استرخاء جسدك خصوصاً عندما تحدث مشاكل بين أفراد أسرتك كالتى أخبرتني عنها، لأنها تمكّنك من البقاء مسترخياً حتى عندما تشعر بالغضب أو الحزن. أعرف أن هذا يبدو لك عملاً شاقاً لكنك ستتمكن في النهاية من الغرق في الاسترخاء التام خلال ثوان قليلة، إنها حيلة رائعة.. ثق بي".

"حسناً، ولكن.. هل يمكنني أن أسألك عن السبب؟".

"في الحياة، هناك كثير من الأشياء التي لا يمكننا السيطرة عليها. من الصعب أن تشعر بأنك تسيطر على كل ما يجري حولك عندما تكون صغيراً، وكأنك تستطيع بالفعل تغيير كل شيء، لكنك في الحقيقة قادر على السيطرة على جسدك وذهنك فقط، وقد لا يبدو هذا أمراً كافياً لكنه ينطوي على قوة جبارة، لأنه يعني أنك قادر على تغيير كل شيء".

"لا أعرف".

"سوف تعرف. تابع القدم والتمرين على كل ما ستتعلمه خلال هذا الصيف وستعرف يوماً ما كل الأجوبة التي تبحث عنها".

أومات برأسي لكني لم أعرف إذا ما كنت قادراً بالفعل على العودة، لم يكن هذا قريباً بأي شكل من الحيل السحرية التي أردت تعلّمها.

"هل تعرف من يكون إسحاق نيوتن؟".

"عالمٌ ما".

"نعم، جيد جداً.. كان فيزيائياً وعلام رياضيات، وربما كان واحداً من أعظم العلماء الذين ولدوا يوماً. وهناك قصة أعرفها قد تعجبك عنه، لم تكن حياته جيدة، فقد مات والده قبل ثلاثة أشهر من ولادته، نضج ذلك الطفل بلا أب بسرعة أكبر من المعتاد، ولهذا يمكن لك القول بأن حياته لم تبدأ بالطريقة

الصحيحة والعادلة. تزوجت أمه مرة أخرى عندما كان في الثالثة من العمر ولم ينشأ بينه وبين زوج والدته علاقة جيدة، وهدد في أحد المرات بإحراق البيت وكل من والدته وزوجها في الداخل. كان إسحاق يافعاً عنيفاً غاضباً عندما كان في مثل سنك، فما كان من والدته إلا أن أخرجته من المدرسة لأنها أرادت منه أن يكون مزارعاً كوالده، وكما كان كل الناس من حوله يتوقعون له أن يكون، لكن إسحاق كان يكره العمل في الزراعة، كره كل تفاصيلها، ثم قام أحد الأساتذة بإقناع والدته بإعادته إلى المدرسة، فتفوّق لا لشيء إلا لأنه كان محطّ سخرية رفاقه اللاذعة، تفوّق لأن حصوله على أعلى الدرجات كان طريقته في الانتقام. وفيما بعد.. انتسب للجامعة، لكنه اضطر إلى العمل كبواب فيها لأنه لم يكن قادراً على دفع تكاليفها، فعمل مقابل طعامه ودراسته، ولم يحصل على الامتيازات نفسها التي حصل عليها بقية الطلبة، ولا على الفرص نفسها، ولا على المال نفسه.. لكنه غيّر العالم".

لم أسمع أبداً عن علماء مشاهير كرهوا آباءهم أو تشاجروا مع رفاق صفّهم.

ودّعتُ روث وابنها نيل وكنت على عتبة الباب عندما قالت روث:

"لا تنسَ يا جيم، تمرّن على ما تكلمنا به". ونظرت في عيناى مباشرة وابتسمت. قدت دراجتي عبر شارع السوق بشعور دافئ اجتاح جسدي، ولم أملك أي فكرة حول السبب الذي يدفعها لتعليمي كيفية بث الاسترخاء في جسمي، لكنني عدت إلى المنزل وتمرنّت علّ تلك الحيلة تنفع.

أنا أعرف اليوم أن جزءاً كبيراً مما علمتني إياه روث ابتداء من ذلك اليوم مرتبط بشكل وثيق بالدماغ واستجابة الجسد للتوتر، أو ما يطلق عليه معظم الناس الآن مصطلح: قاتل أو ارحل. عندما يشعر الدماغ بتهديد أو بخوف من الموت يتدخل الجهاز العصبي اللاإرادي الذي يدعى بالجهاز العصبي الودي ويفرز مادة الأدرينالين، كما تتحفز الغدة الدرقية بسبب الهرمونات التي تطلقها منطقة ما تحت المهاد في الدماغ وتفرز مادة الكورتيزول، وأنا واثق من

أني أفرزت ذلك الهرمون عندما كنت في الثانية عشرة من عمري. في الواقع، كل ما ليس له علاقة

بغريزة البقاء يتوقف عن العمل، إذ تتباطأ عملية الهضم وتتقبض الأوعية الدموية ما عدا تلك التي تغذي العضلات الكبيرة، والتي تتمدد في المقابل، تنخفض القدرة على السمع والرؤية ويرتفع معدل نبضات القلب ويجفّ الحلق بسبب توقف الغدة اللعابية عن إفراز اللعاب.

كل هذه الاستجابات اللاإرادية مهمة حال محاولة البقاء على قيد الحياة، لكنها استجابات لا واعية لحوادث يُفترض بها أن تكون حوادث مؤقتة. والذين يعيشون في حالة مستمرة من التوتر المتواصل يعانون من جميع مضاعفاته النفسية والجسمانية، إذ يمتلكهم الغضب على الدوام والإحباط والقلق وينتابهم ألم في الصدر والصداع ويسود الأرق ليلاليهم وتتداعى قوة جهازهم المناعي.

علمتني روث - قبل وقت طويل من بدء تكلم الناس عن هرمونات التوتر - كل ما أحтаجه لتنظيم استجاباتي الجسمانية إزاء التوتر والتهديد، واليوم.. كلما دخلت غرفة العمليات، أبطئ من سرعة تنفسي وأنظم ضغط دمي وأحافظ على معدّل منخفض لضربات قلبي. وعندما أنظر من خلال الميكروسكوب وأخوض عملاً جراحياً دقيقاً داخل أكثر أجزاء الدماغ تعقيداً، تكون يداي ثابتتين وجسدي مسترخياً بسبب ما تعلمته من روث في متجر السحر. وفي الحقيقة، لو لم تحملني الأقدار لمقابلة روث، لما أصبحت جراحاً أبداً. لطالما كانت القدرة على بث الاسترخاء في الجسد قدرة عظيمة وما زالت، لكنها لم تكن سوى البداية. احتاجت روث لأكثر من عشرة أيام لتصل بي إلى نقطة أمكن لي فيها إرخاء كل عضلات جسدي، وفي صباح اليوم الحادي عشر، ركبت دراجتي إلى المتجر وجلست على الكرسي وأغمضت عيني وانتظرت روث لتقودني خطوة خطوة نحو الاسترخاء المنشود، لكنها كانت تخطط لأمر آخر.

"افتح عينيك يا جيم.. حان الوقت لنقوم بشيء إزاء الأصوات العديدة

التي تدور في رأسك".

حيلة روث الأولى

إرخاء عضلات الجسم

1. ابحث عن الوقت والزمان المناسبين للتمرين على الاسترخاء دون أن يقطعك أحد.
2. لا تبدأ التمرين إذا كنت تشعر بالتوتر أو إذا كنت تفكر بأمور أخرى أو شربت الكحول أو تناولت عقاقير مخدرة أو شعرت بالتعب.
3. اجلس قبل البدء عدة دقائق واسترخِ بهدوء قبل البدء بالتمرين، وفكر بما تريد تحقيقه بهذا التمرين، أي: حدد هدفك.
4. اغمض عينيك الآن.
5. ابدأ بتناول ثلاثة أنفاس عميقة من أنفك وازفرها بهدوء، كرر العملية إلى أن تعتاد على هذه الطريقة في التنفس كي لا يشتت تركيزك على التنفس انتباهك المكّرس للاسترخاء.
6. عندما تشعر بأنك تتنفس بشكل متناسق ومريح، فكر بكيفية جلوسك وتخيل أنك تنتظر إلى نفسك.
7. ابدأ الآن التركيز على أصابع قدميك وأرخها ثم ركز على قدميك وأرخ عضلاتها، وتخيل أنها تذوب بينما تتنفس أنت بهدوء، ركز على قدميك وأصابعك فقط، عندما ستبدأ، سيكون من السهل على أي شيء أن يشتت انتباهك أو يستولي على تفكيرك، وعندما يحصل هذا، ابدأ من جديد وعاود بث الاسترخاء في أصابع قدميك وقدميك.

8. عندما تتمكن من إرخاء قدميك، ابدأ بممارسة الفعل نفسه على ساقيك صعوداً وأرخ ساقيك وفخذيك.

9. ارخ بعدها عضلات بطنك وصدرك.

10. فكر بعمودك الفقري أرخ عضلاته وصولاً إلى كتفيك ورقبتك.

11. ارخ أخيراً عضلات وجهك ورأسك.

12. لاحظ السكينة التي تجتاحك عندما ستتمكن من بث الاسترخاء في كل عضلات جسدك، ولاحظ كم تشعر بأنك على ما يرام. في هذه المرحلة، من الطبيعي أن تشعر بالنعاس أو تغرق في النوم بالفعل.. ولا بأس في هذا، قد تحتاج إلى عدة محاولات للتوصل إلى هذه الحالة وتتمكن من المحافظة على شعور الاسترخاء دون الوقوع فريسة للنوم.. حافظ على صبرك وترفق بنفسك.

13. ركز الآن على قلبك وفكر بإرخاء عضلاته بينما تتنفس بهدوء، سينخفض معدل ضربات قلبك مع استرخاء جسدك وستتباطأ أنفاسك.

14. تخيل الآن أن جسدك المسترخي الذي يختبر للمرة الأولى ربما إحساسه بوجوده بينما تتنفس ببطء. اشعر بالدفء يتخللك، وفي هذه المرحلة، يشعر الكثيرون بأنهم يطفون أو يرتفعون عن الأرض بينما تسيطر عليهم السكينة، تابع التنفس ببطء ولا تتوقف.

15. حاول الاحتفاظ بهذا الشعور بالاسترخاء والسكينة والدفء في ذاكرتك بكل طاقتك.

16. افتح عينيك الآن واجلس لدقائق بعينين مفتوحتين وحافظ على هذه الفكرة ولا تفكر بأي شيء آخر.

التنفس والاسترخاء هي الخطوات العملية الأولى نحو ترويض الدماغ.

الفصل الثالث

التفكير بالتفكير

الساحر الجيد هو الحاوي الذي يُخَطِرُ الجمهور بأنه على وشك البدء بخدعته التالية، أما الساحر العظيم فهو من يتمكن من الجمهور ويخلب لبّهم قبل أن يدركوا بأنه بدأ بالفعل بتنفيذ خدعته التالية.

وكانت روث ساحرة عظيمة.

لم أعرف أبداً بوجود أصوات في رأسي إلى أن أشارت روث إليها، لم أكن أعرف كم كانت تلك الأصوات عالية إلى أن طلبت هي مني أن أسكتها، وكان من الصعب عليّ بما فيه الكفاية أن أحاول إرخاء جسدي، خصوصاً في البيت، في شقة صغيرة لا يتوقف فيها التلفاز عن الصياح باحتدام، ويزخر فيها كل نفس بدخان التبغ الثقيل الثابت الذي لا يتزحزح. ولكن.. لو كان إرخاء جسمي يبدو صعباً لي في تلك المرحلة، فإن إسكات أفكارني بدا لي ضرباً من ضروب المستحيل.

مضى على ترددي على متجر السحر عشرة أيام، وبدأت أشعر فيه بالراحة أكثر من بيتنا، أحببت سكينته وهدوءه. وبدأت روث بتحضير الغداء لي بعد مرور الأيام الأولى على دروسنا، فكنا ننهي تدريباتنا ثم نخرج إلى شرفة المتجر الأمامية حيث كانت تحضر علب طعام بلاستيكية ذات أغذية بيضاء تحتوي على قطع من الفواكه والجبن والبسكويت أو المكسرات. وكانت المكسرات الوحيدة التي أهواها هي حبوب الذرة، لكنني جرّبت أكل ما كانت تقدمه لي رغم

غرابية بعضها. وكانت تلك الولايم تُتبع عادة ببسكويي المفضل المحشو برقائق الشوكولاتة. أما نيل، فكان ينضم إلينا عندما لا يكون مشغولاً ويخبرنا بالقصص أو يريني خدعاً سحرية جديدة أو يعرض عليّ مجموعات الورق الجديدة التي يصنعها. كان نيل يتكلم بفم مليء بالطعام، ومع أننا كنا ثلاثياً غريباً، ومع أنني كنت حديث العهد بهما، إلا أنني شعرت بالقرب منهما بسرعة كما لو كانا أفراداً من عائلتي، لم أضطر لأن أكون الشخص الواعي الذي يهتم بالأمر ما بين ظهراي عائلة متجر السحر، وكنت أحظى بانتباههما الكامل واهتمامهما لمدة ساعتين كاملتين كل يوم. كنا نتحدث ونمزح بلا حرج على عكس ما يجري في بيتنا حيث نقاى مواضيع معينة خوفاً من الغضب أو الندم والأسى الذي قد يظهر في أي لحظة حين ذكرها. كان نيل يبدأ كل حكاياته بوضع نظارة القراءة على عينيه ثم ينظر إليّ من فوق إطارها ويبتسم.

حكا لي في أحد المرات عن مرابطته في كوريا في منطقة منزوعة السلاح، وقال إنه كان يقوم وأصداؤه بعرض بعض ألعاب الخفة داخل كافيتيريا حين دخل الضابط المسؤول عنهم وأمرهم بالذهاب فوراً إلى الخط الثامن والثلاثين، وهو الخط الفاصل بين الكوريتين الشمالية والجنوبية. وهكذا، وصل مع رفيقيه إلى نقطة العبور لكن الشرطة العسكرية لم تسمح لهم بالمرور لأنهم كانوا ما يزالون يرتدون قبعات السحرة والأردية ذات الذبول الطويلة الخاصة بالعرض السحري رغم حملهم للأسلحة. لا أعرف إذا ما كانت تلك القصص حقيقية أو مبالغاً بها، لكنها كانت تُضحكننا كثيراً.. تغرقنا في ذلك النوع من الضحك الذي لا يمكنك التوقف عنه حين يبدأ، وكنت أشعر باسترخاء تام في تلك اللحظات وأنسى الصوت الصارخ في ذهني الذي كانت روث تخبرني عنه. حكّت لي روث عن حياتها في بلدة صغيرة في أوهايو حيث يعتني الناس ببعضهم ويقضون أيام الصيف الطويلة برفقة أفراد العائلة والأصدقاء. تخيلت أن يأخذني نيل معه كمتدرب ويعلمني كل حيله السحرية الكبرى، تخيلت ملصقاً إعلانياً ضوئياً يحمل اسمينا معاً. وإني أجد محاولة التمسك بمثل تلك التجارب والرغبة بعدم إفلاتها حين تُحرم منها وتفتقر حياتك لها أمراً غريباً.. كانت الصلة التي ربطتني بروث ونيل استثنائية وحقيقية. وقد شعرت بمثل تلك الصلة مع

آخرين عبر سنيّ حياتي، أحياناً مع شخص عابر ألتقيه صدفة في مصعد، حيث ينظر كل شخص في عيني الآخر وتتشكل بينهما صلة ما لأسباب لا يمكن شرحها.. لا يكون الأمر مجرد لقاء عيون عابر، بل إدراك عميق، وعي إنسانية الآخر وحقيقة وجوده على المسار نفسه الذي جمعكما في هذه اللحظة وهذا المكان. وعندما يحصل هذا، فإن التفكير بهذه الطريقة فاتن ومدهش بما فيه الكفاية. وفي أحيان أخرى، عندما تتلاقى عيناى مع شخص مشرّد أو منهار، كنت أشعر كما لو كنت أرى وجهي نفسه يحدّق إليّ لوهلة قصيرة جداً أو لفترة أطول من ذلك، كنت أختبر ألم رحلة حياتي وأشعر بالتعاطف الوجداني العميق يليه الامتتان الشديد للنهاية التي آلت إليها حياتي اليوم. كل منّا لديه قصة، وقد تعلمت أن لبّ معظم قصصنا فيه من التماثل أكثر مما فيه من الاختلاف.. يمكن للتواصل أن يكون فائق القدرة وفعالاً، وفي بعض الأحيان، يمكن أن يؤدي لقاء قصير إلى تغيير حياة شخص ما إلى الأبد.

ومن الواضح أن هذا ما كانت حالتي عليه مع روث.. لقد غيّر ذلك اللقاء كل شيء، ووضع حياتي على مسار مختلف بعيد كل البعد عما كانت عليه. لم تكن روث كائناً خارقاً من عالم آخر، رغم أنني كنت أهوى تخيل ذلك عندما كنت في الثانية عشرة من عمري. لكنها كانت إنسانة محظوظة بامتلاكها لموهبة أصيلة روحية هائلة من التعاطف والحدس، من القدرة على الاعتناء بشخص آخر دون انتظار الحصول على أي شيء في المقابل.. لقد منحتني وقتها وانتباهها وعرفّنتني إلى نوع من السحر ما أزال أستعمله حتى اليوم، وقد شعرت في بعض الأحيان بكل جوارحي أنني أضيع وقتي في متجر السحر وأنا لن أتعلم أبداً ما تحاول تعليمي إياه، وفي أوقات أخرى، شعرت بأنها أقرب للمجانين من العقلاء. أما اليوم، فأنا أعرف بأن التقنيات التي علمتها لي كانت قديمة جداً وجزءاً هاماً من التعاليم الدينية الشرقية التي تعود لآلاف الأعوام. واليوم، لا يعترف العلم بأن المرونة العصبية حقيقة واقعة فحسب، بل وبأنها جزء لا يتجزأ من آلية عمل الدماغ. أنا أعرف اليوم أيضاً عن إمكانية تدريب الدماغ لتحسين التركيز والانتباه وعدم الاستجابة للحوارات المستمرة داخل الذهن والتي تمنعنا من اتخاذ القرارات الصائبة والمفيدة. هذا مفهوم ومعروف اليوم لكنه كان

مجهولاً تماماً في ذلك الوقت. وعندما أخبرتني بأنها ستعلمني كيفية إسكات الأصوات التي تدور في ذهني قررت إطاعتها دون أن أمتلك أي فكرة عما كانت تتحدث عنه.

"ارخ كتفيك وعنقك، ثم حنكك، واشعر بارتخاء عضلات وجهك". طلبت مني فعل الأشياء التي بتّ أعرف كيفية القيام بها الآن.

قادتني خطوة خطوة، متفوهة بالتعليمات التي أعرفها مرة أخرى بصوتها اللطيف الذي كان يجعل جسدي يشعر بالخفة إلى درجة عدم دهشتي إذا ما اكتشفت أنني كنت أحلق فوق الكرسي، أطفو كورقة من أوراق اللعب التي يلعب بها نيل.

"أفرغ الآن ذهنك من كل شيء".

كان ذلك أمراً جديداً. شعرت فجأة بوزني على الكرسي.. ما الذي تتحدث عنه روث بالضبط؟ كيف يفترض بي إسكات الصوت المتكلم في ذهني؟ تسارعت وتيرة أفكاري ففتحت عيناوي ورأيت ابتسامة على وجه روث.

"هذه حيلة جديدة". قالت.

"حسناً.. كيف أقوم بها؟".

"حسناً، هذا معقد قليلاً لأن ذهنك سوف يفكر بالتفكير نفسه، وفي اللحظة التي سيحصل فيها هذا سيتوجب عليك إيقاف التفكير بالتفكير دون التفكير به".

ماذا قلت؟

"هل تعرف من هو الحكواتي؟".

"بالطبع.. ستكونين كالحكواتي الذي سيقودني لإتمام خدعة الاسترخاء".

صفت روث بيديها مرتين وضحكت قليلاً ثم قالت:

"أخبرني.. كيف تقوم بحيلة الاسترخاء في البيت؟".

فكرت بالإجابة لهنيهة ثم قلت: "أقوم به كما أفعل هنا".

"حسناً.. أنا لست معك هناك.. ولهذا، من يقودك عندها؟".

"أنت، ولكن في ذهني".

"لكني لست أنا في ذهنك، ومن يقودك إذاً؟".

كان صوتها يطلب مني أن أركز وأسترخي في ذهني حسب ما أعتقد
فقلت:

"إنه صوتك".

"لكنه ليس أنا بالفعل.. ولهذا.. من يكون؟".

أدركت ما كانت تحاول أن تدفعني لمعرفته..

"هل هو أنا؟".

"نعم، إنه أنت.. تتكلم إلى نفسك في ذهنك، وتعتقد أنه أنا لأنه الصوت
الذي ترغب بسماعه، هذا الحكواتي ماهر للغاية في تقليد الأصوات، يمكن له
تقمص أي شخصية يريد".

"حسناً".

"نملك جميعاً هذا الصوت الذي يكلمنا بلا توقف في أذهاننا، من لحظة
استيقاظنا صباحاً إلى لحظة خلودنا للنوم ليلاً، إنه هناك على الدوام، فكر
بالأمر، إنه يشبه أحد مهندسي الصوت الذين يخبرونك على أثير الإذاعة

بالأغنية التي ستصيح بعد دقيقة، ويخبرونك بقوائم الأغنيات التي ستعرض اليوم".

فكرت بكلامها، كنت أستمع لإذاعة Boss التي كانت تبث أفضل أغاني الأربعينات في أثير لوس أنجلوس، وتخيلت مهندس الصوت الذي كان يدعى: The Real Don Steele وهو يقود خطوات حياتي.

"تخيل ذلك المذيع في رأسك، يتكلم ويتكلم طوال النهار ويخبرك بكل شيء عن كل شيء، وأنت معتاد على كلامه المتواصل إلى درجة أنك لا تلاحظ استمرار الراديو الموجود في رأسك بالعمل بأعلى صوت ممكن طوال الوقت، وأنه لا يرتاح أبداً".

هل هذا صحيح؟ لم أكن متأكداً، لم ألاحظه من قبل، بل كنت أفكر على الدوام بأشياء مختلفة لكني لم أفكر بالتفكير نفسه من قبل.

"إن هذا الصوت المتكلم في رأسك يتحكم بكل ثانية من حياتك، سواء أكانت جيدة أم سيئة، وذهنك يستجيب لما يقوله الصوت لك، وكأنه يعرفك حقاً".

شرحت لي روث ذلك وكأنها كانت تنتظر مني أن أصدَمَ أو أشعر بالتحدي لدى سماعي لفكرة أنني أفكر بأفكاري، لكني شعرت بتشويش وارتباك، فاستطردت:

"المشكلة الحقيقية هي أن ردّات أفعالك واستجاباتك في كثير من الأحيان ليست في مكانها الصحيح بالضرورة".

"حسناً.. الصوت الذي يتكلم في رأسي هو أنا.. ألا أعرف نفسي؟".

"لا.. أنت لست الصوت المتكلم في رأسك.. أنت، شخصيتك الحقيقية، هو الشخص الذي يستمع لكلام المذيع".

تساءلت عن عدد الأشخاص الذين تحسب روث بأنهم يعيشون في

داخلي، لربما كانت تسمع أصواتاً في رأسها أيضاً، لكنني كنت واثقاً من أنني الشخص الوحيد الذي يتكلم في رأسي، ولا وجود لمذيع يخبرني بحالة الطقس وعناوين الأغاني التي ستُبثُّ بعد حين.

"أريد منك أن تفهم بأنك لا تستطيع وضع ثقتك في الصوت الصادر في رأسك، ذاك الشخص الذي يكلمك طوال الوقت، لأن معظم ما يقوله لك غير صحيح. بإمكانك أن تفكر بأن هذه الحيلة تتلخص في إضعاف صوت المذيع تدريجياً حتى إطفائه كلياً، وعندها ستفهم ما أتكلم عنه".

"أعتقد أنني سأحاول".

"ماذا يقول لك المذيع الآن في هذه اللحظة بالذات؟".

فكرت بما كنت أفكر به وقلت:

"إنه يقول إنني لا أعرف عمّا تتحدثين وأن هذا لن ينجح". كما كان يقول أيضاً بأن الفكرة حمقاء للغاية لكنني لم أخبر روث بذلك. ابتسمت لي وقالت:

"هذا جيد. أترى! لقد فكرت بما كنت تفكر به، هذه أول خطوة لتحقيق نجاح الحيلة".

أومأت برأسي وكأنني فهمت.

"سنتمرن على التفكير بالتفكير. الآن.. أغمض عينيك وحاول بث الاسترخاء في جسدك من جديد".

أغمضت عيني واتبعت خطوات الاسترخاء التي تمرّنت عليها مئات المرات من قبل، بدأت بأصابع قدمي ثم تابعت صعوداً حتى رأسي، أرخيت كل عضلة عندما فكرت فيها بذهني، وبدأ لي الوضع مريحاً كما لو كنت مستلقياً في مغطس حارّ.

"ركّز فقط على أنفاسك، شهيق، ثم زفير، لا تفكر سوى بالتنفس، لا شيء سوى التنفس".

سحبت شهيقاً عبر أنفي وزفرته بهدوء، ثم سحبت شهيقاً آخر، وبعد عدة أنفاس، شعرت بقرصة على خدي فمددت يدي لأحسّها، فشعرت بوجود ثؤلول صغير. تمنّيت ألا تكون ثؤلولة كبيرة، فهناك فتاة تعجبني انتقلت للتو إلى الشقة التي تعلو شقتنا، اسمها كريس، شعرها طويل داكن يصل حتى خصرها، وقد كلمتها في أول يوم رأيّتها فيه ثم تساءلت إن كانت تعتبرني أخرقاً ما. لكنها كانت لطيفة معي، وابتسمت لي أثناء حديثنا.. هل ستوافق على التسكع برفقتي؟ تذكرت عندها أسناني المشوّهة.. لا لن توافق. بم أفكر؟ أفكر بالثأليل والأسنان المكسورة السوداء.. يا إلهي. تذكرت نظرتها لي ثم خطواتها حين ابتعدت عني.. لست جيداً بما فيه الكفاية لها.

"تابع التركيز على أنفاسك، وإذا ما حاول المذيع التكلم فتوقف عن الاستماع وعد للتركيز على أنفاسك".

لقد انطلقت أفكاري بعيداً دون أن ألاحظ ذلك، فعدت للتفكير بالتنفس ثم فكرت بالتسكع برفقة أحد زملاء المدرسة الذي يعيش في ناحية جميلة من البلدة، وكان والده يملك شركة مقاولات ويسكن في منزل كبير، وكان والداه يقودان سيارتي كاديلاك متماثلتين. لقد دعاني إلى العشاء مرة في العام الماضي، سألتني والدته خلال العشاء عن عنوان منزلنا وعمل والدي، رغبت بالزحف والتواري تحت الطاولة والاختباء من عيونهم.. فوالدي لم يكن يعمل، وتم توقيفه أكثر من مرة بسبب السكر وإزعاج الناس لوقوعه تحت تأثير الخمر. لم تكن تلك أشياء ينبغي لي إخبارها عنها ولا أعتقد أنها كانت ترغب بسماع مثل تلك الأمور.

لقد فعلتها ثانية.. فكرت بأمر آخر غير التنفس. هذا صعب.. لا يمكنني فعله.. واكتشفت أنني لا أتناول سوى خمسة أنفاس قبل أن أبدأ التفكير لا شعورياً بأمر آخر، فقررت إحصاء الأنفاس التي أتناولها قبل التفكير في شيء آخر،

فأدركت عندها أنني سأفكر حين أحصي الأنفاس أيضاً.. هذا مستحيل بالفعل، هل يستطيع الناس فعل ذلك حقاً؟ هل يمكن لروث تنفيذ هذه الحيلة بالفعل؟ كم نفساً يمكن لها أن تتناول قبل التفكير بأمر آخر؟ هل أسألها؟ هل استغرقت روث وقتاً طويلاً لتعلم هذه الحيلة أم أنني تلميذ فاشل؟ ما الهدف بأي حال؟ وهلم جراً..

حاولت جاهداً إبطاء وتيرة الأفكار لكن ذهني لم يكن قادراً على الاسترخاء ككل أعضاء جسدي.. هل ستعرف روث أنني أخدعها؟
"افتح عينيك".

نظرت إلى روث بعد فشلي الذريع فقلت:

"إنها صعبة جداً.. لا يمكنني فعلها".

"يمكنك فعل أي شيء يا جيم".

"لا يمكنني فعل هذه".

"أنت تحتاج للتمرين لا أكثر، حاول فقط إيقاف أفكارك للحظة، ثم للحظات، ثم لفترات أطول، وهكذا".

"أنا لست جيداً في هذا".

نظرت روث إليّ صامتة للحظات ثم قالت:

"كل من يحاول فعل هذه الحيلة يقول ذلك في البداية، يمكنك النجاح في أي شيء تريده، حتى في هذه الحيلة، لكنك لا تعرف بعد".

باغتني عندها ألم كل اللحظات التي شعرت فيها بأنني لست جيداً بما فيه الكفاية أو بعدم الانتماء للجماعة المحيطة بي أو بالفقر، أحرقتني عينا في

اللحظة نفسها التي فكرت فيها بذلك. كانت تلك الأحاسيس تغور بين الحين والآخر عندما كنت أقضي الوقت مع روث، وكنت أشعر بالرغبة بإلقاء رأسي إلى الطاولة والبكاء.

"من الطبيعي أن تبتعد أفكارك عن التنفس، هذا ليس جيداً أو سيئاً.. كل ما عليك فعله هو ملاحظة ذلك وإعادة الأمور إلى نصابها، إلى التنفس، وساعد ذهنك على التركيز من جديد. هذا هو كل ما عليك فعله. لا بد من فرض سيطرتك على ذهنك، كل ما أريد منك فعله هو ملاحظة أنك تفكر عندما تفكر.. وعندها سوف تبدأ بملاحظة الأوقات التي لا يستولي فيها ذهنك على كل تفكيرك.

"سأتمرن".

"ممتاز! هذا كل ما عليك فعله.. تمرن وتمرن".

"أهذا ما جرى معك؟".

"هذا ما جرى معي بالضبط". فتحسن شعوري على الفور.

"هل أرخي جسدي أولاً؟".

"أرخ جسدي أولاً ثم هدّئ ذهنك عبر تطويع أفكارك، وفي نهاية المطاف، ستتدفق كل الحيل التي أعلمك إياها معاً وستستكين وتهدأ أمواج أفكارك في الوقت نفسه، ولكن كبداية، قم بذلك خطوة خطوة.

عدت إلى البيت تلك الليلة مصمماً على إتقان فن إسكات صوت ذهني البغيض. كان والدي ما يزال في الخارج وأمي في غرفتها تلزم السرير، فجلست في غرفتي بصمت وركزت على إسكات صوت المذيع الهادر بلا توقف. تنفست ببطء، شهيقاً وزفيراً لكن الصمت لم يزد سوى قوة، وارتفع صوته أكثر. كنت أعرف أن والدي غارق في نوبة سكر وأنه لن يلبث حتى يعود إما مخموراً حتى

الصميم وإما متألماً بسبب أوجاع الصحة من تأثير الخمر. كان هذا المشهد يتكرر في حياتي مرة تلو الأخرى بلا تغيير. كان يدخل من الباب ويتشاجر مع والدتي ويعلو صوت صراخهما، يلومها على كل عثرات الماضي ثم يقطع لها وعوداً لمستقبل أفضل ولا يفي بها، ويهدأن.. ثم يتكرر المشهد من جديد.

لم يسألني أحد في المنزل عن سبب جلوسي بعينين مغمضتين على الكرسي لفترات طويلة، فيما لو لاحظني أحد من البداية، لم يسألوني عن شيء ولم يسألوني عمّ أفكر، وبطبيعة الحال، لم يسألني أحد عن شعوري، حاولت جاهداً التمرين على حيلة روث الجديدة، لكن غياب أبي المتواصل عن البيت لم يسمح سوى للقلق والحيرة بالسيطرة على أفكاري، القلق مما سيحدث حين عودته. كيف سيندلع الشجار؟ ماذا لو تناولت أُمي كمية كبيرة من الحبوب المهدئة من جديد؟ حاولت إيقاف تفكيري لكن الأمر كان مستحيلاً. هل ينبغي لي الاتصال بالشرطة أم بالإسعاف؟ بمن أستنجد؟ كيف أشرح لهم اختباء أخي الصغير تحت الملاءات حين يحضرون لأخذ والدتي؟ هل سيقبضون على أبي؟ حاولت التركيز على تنفسي لكن ذهني تابع استحضر السيناريوهات الكارثية واحداً تلو الآخر، التي تبدأ جميعها بدخول والدي من الباب، كان الأمر أشبه بمعرفة المرء المسبقة بحدوث إعصار قبل حدوثه والتجمد من الخوف دون القدرة على الهرب ناهيك عن المواجهة. كنت أحلم أحياناً بمثل هذا، وكانت كوابيس لا أحلاماً، حيث أفتح فمي لأصرخ مُحذراً لأحدهم لكن الصوت لم يكن يخرج من فمي.

شعرت بأن روث قد أدركت بأنني أناضل بكل جهدي لأنها قدّمت لي بعد عدة أيام تعليمات جديدة:

"لنحاول طريقة أخرى لإسكات الأفكار في ذهنك".

أحضرت روث شمعة وأوقدتها بعود ثقاب ووضعتها على المكتب ما بيننا وطلبت مني تحريك الكرسي إلى أن أواجه الشمعة تماماً.

"أريد منك التركيز على الشمعة، على نورها بالتحديد". طلبت مني تناول أنفاس عميقة والتركيز على نور الشمعة بلا توقف.

"لا تفكر سوى بالضوء، وكلما شطحت أفكارك بعيداً ركّز مجدداً على النور".

بطريقة ما، تمكنت من تهدئة ذهني مفتوح العينين، واكتشفت أنني كلما أغمضت عيني وأظلمت الدنيا من حولي تدافعت أسوأ مخاوفي واستولت عليّ. لم يكن هناك ما يسرق انتباهي في الظلام، ففتسابق المخاوف كلها أيّها يخرج ليسرقني. متى سيطردوننا من الشقة التي نقطنها، مجدداً؟ لماذا كُتِبَ السكر على والدي؟ هل ستتحدّث والدتي مع مرور الزمن؟ متى سنحظى بالمال؟ لماذا يستحيل عليّ إصلاح شأن عائلتي؟ ما الخطأ فيّ؟ عندما بدأت أنظر في ضوء الشمعة، شعرت أنني قد أتوه فيه، كنت أركز على اللون الأزرق في أسفل الشعلة، ثم على اللون الأرجواني في وسطها الذي كان يبدو كسكاكر عيد الهالوين، وفي بعض الأحيان، كنت أركز على ذروة الشعلة البيضاء وأشعر كما لو كنت على وشك الاندساس فيها والاختباء، وهكذا بات إسكات صوت المذيع في رأسي أسهل مع التركيز على الشعلة الوامضة مع كل نفس أتناوله. كما ذكرتني بالمرّة التي دعانا فيها أصدقاء لعائلتنا قبل عدة سنوات لزيارة كوخهم الجبلي. أذكر أنني كنت أجلس ساعات أمام المدفأة هناك، وكان والدي يحظى بعمل في ذلك الوقت وتوقف عن شرب الخمر، لفترة قصيرة.. كان والداي شخصين متحضرين وكانت صحة والدتي أفضل بكثير. جلست أمام تلك المدفأة وتأملت ألسنة النار وضعت فيها لفترة من الوقت، شعرت بالدفع، بالراحة، بالسعادة.

أمضيت الكثير من الساعات في تلك الأسابيع مع روث في مراقبة الشمعة، وحتى هذا اليوم، ما زلت أشعر بالسكينة كلما وقعت عيناى على شمعة مشتعلة. لم أجد شمعة في منزلنا في ذلك اليوم الأول. أذكر أنني ذهبت قبل عدة أسابيع من ذلك اليوم مع صديق لي إلى كنيسة كاثوليكية لأن جدته كانت مريضة، فوضع سنناً في صندوق الصدقات وأوقد شمعة وتلا صلاة لراحة نفسها، وكان ذلك غريباً جداً بالنسبة إليّ. وهكذا، غيّرت طريقي المعتاد في ذلك

اليوم واتجهت إلى الكنيسة وأخذت شمعتين وعدة أعواد ثقاب وتركت لهم بدلاً منها خمسة عشر سنتاً لم أكن أحمل غيرها في جيبى. وكل ليلة، كنت أجاهد وأحدّق إلى لهيب الشمعة محاولاً توسيع الهوة التي تفصلني عن أفكاري.

سمعت عدة مرات أثناء عملي كجراح وصف المرضى للألم الذي يتفاقم خلال الليل، لكن الألم لا يتضاعف في الليل، الحقيقة هي أن الليل لا يحتوي على ما يشئت انتباههم عن الألم، إذ يهدأ الذهن ويعلو صوت الأوجاع التي كانت موجودة أصلاً طوال النهار دون أن يشعروا بشدتها كثيراً، ولهذا السبب ذاته، كانت عيناى تحمقان في الظلمة في الثانية فجراً وتترأى أمامي كل أسباب القلق مما قد يحدث في المستقبل أو الندم والأسى مما حصل في الماضي. علمتني روث كيفية السيطرة على ذهني، وساعدتني بهذه الطريقة على تخفيف حدة الشعور بالذنب والخجل من الأحداث الماضية والقلق والخوف من تخيل أحداث مستقبلية محتملة طوال الوقت. وما هو أهم من ذلك، علمتني ألا أتفاعل عاطفياً مع هذه الأفكار كما كنت أفعل في السابق، لقد فهمت على يديها عدم جدوى الصبو إلى ماضٍ مختلف وعبثية الخوف من مستقبل مريع لأنني لا أملك السيطرة على أي منهما.

أمضينا ثلاثة أسابيع تقريباً في التمرين على ثلاثة أساليب مختلفة تساعدني على وعي أفكاري وإدخال السكينة على ذهني، أركز على أنفاسي، ثم أركز نظري على لهب شمعة، ثم - وهي الحيلة الأخيرة - أرّتل.

"هل تعرف ما هي المانترا يا جيم؟".

نفيت بحركة من رأسي، لم أكن أعرف ما تتحدث عنه.

"إنها تشبه الترنيمة، أو صوتاً تقوم به ليساعدك على تركيز أفكارك، كما فعلنا في تمرين التدريب على التنفس والتركيز على نور الشمعة، إنها طريقة أخرى لخداع ذهنك".

نظرت إليها من جديد فوجدت أنها ترتدي قلادة تحتوي على جرس وصفارة.. أهذا ما كانت تتحدث عنه؟ انحنيت باتجاهي فأصدر الجرس رنيناً خفيفاً فكدت أضحك، نظرت هي إلى الجرس وضحكت أيضاً ثم قالت:

"لا.. هذا ليس قصدي".

"أي نوع من الأصوات؟" وانتابني شعور بغرابة ما سنقوم به.

"حسناً، إنه أمر نسبي.. يردد الناس أحياناً كلمات هامة بالنسبة لهم أو عبارات لها معان سحرية، لكنك تستطيع اختيار أي كلمة تريد، الكلمات غير هامة في الحقيقة، بل الصوت هو ما يهم".

"ماذا أقول إذا؟".

"القرار في يدك.. لأنك ستردها بلا توقف مهما كانت".

"بصوت مرتفع؟".

"لا، ستردها لنفسك".

هذا غريب جداً.. لم أعرف أي كلمات مهمة بالنسبة لي ولم أتمكن من التفكير بأي شيء، لأن الكلمات الوحيدة التي اضطررت لترديدها يوماً هي اللعنات، وكنت واثقاً من أن روث لا تقصد ترديد مثل تلك الكلمات.

"ماذا اخترت؟" كانت روث تنتظر إجابتي بصبر، وكنت صفر اليدين.

"لا أعرف". كنت أعرف أن الكلمات هامة جداً في السحر.. أبراكادابرا.. افتح يا سمسم.. لا بد أنها كلمات مناسبة.

"ماهي أول كلمة أو عبارة خطرت في بالك؟".

"كريس". همست لنفسي.. إنه اسم الفتاة التي تقطن الشقة العليا، وكنت ما أزال أفكر بكلمة مناسبة لأردها.. وفجأة.. ظهرت في رأسي صورة مقبض باب.. مقبض.. مقبض باب كريس، حتى هذا اليوم، لا أعرف كيف توصلت إلى هذه النتيجة، ولا معنى اهتمامي بتلك العبارة.

نظرت روٹ إلى باہتمام وسألتنی:

"هل توصلت لشيء؟".

"نعم.. قلت، لكنني شعرت فجأة بالخجل، لقد اخترت كلمات خاطئة لأنها ستبدو عبارة حمقاء ولن تقوم بسحرها على الأغلب.

"ردها الآن فى قلبك، ولكن ردها ببطء، وقلها بهدوء كلما رددتها".

"مقبضضض.. کرییییییسس... " قلت فی نفسی.

كررت الأمر عدة مرات بلا توقف.

"الآن.. أريدك أن تردها لنفسك بلا توقف لربع ساعة كاملة".

نظرت روٹ إليّ بهدوء، وأنا متأكد من أنني نظرت إليها نظرة تدل على أنها فقدت عقلها كلياً.

"ركز عقلك فقط على صوت كل كلمة ولا تفكر بأي شيء آخر".

كانت روث على حق، من الصعب التفكير بأي شيء حين يردد المرء ترتيلة خاصة، ومع أنني كنت أردد اسم كريس مقروناً بكلمة المقبض مراراً وتكراراً إلا أنني لم أتمكن من التفكير فيها ولا بالمقبض. لم يعد مهماً إن كانت تعرف بوجودي، ولا رأيها بأسناني ولا إن لاحظت وجود البثرة على وجهي. لم يعد لهذا أي أهمية الآن، المهم الآن هو أنني لم أعد أسمع صوت المذيع الصادح في رأسي. لقد توقف عن الكلام.

تمرنت على ترديد ترتيلتي في البيت لساعات في بعض الأحيان، وقد كان مفعولها مهدئاً بشكل لا يصدق لأسباب لم أفهما سوى الآن. التكرار والنية الصادقة هي أضمن وسيلة لتغيير دماغك، وقد بدأت الأمور تتغير في حياتي بالفعل عبر جمع تقنية التنفس التي علمتنيها روث مع تركيز البصر على لهب الشمعة أو ترديد الترتيلة ببطء.

عاد والدي إلى البيت في نهاية الأمر صريع آلام اختفاء الخمر من رأسه، نادماً أسفاً، فخرجت أُمي من غرفتها وبدأت المشاجرة. الحجج والجدل نفسه مزيداً عليها إنذار الإخلاء الذي تلقيناه لترك منزلنا، كنت في غرفتي لساعات أتمرّن على التنفس والترتيل مع نفسي، فخرجت من الغرفة لأسباب لا أعرفها وأخبرتني أني أحبهما، رأيتهما بطريقة مختلفة في تلك اللحظة، ثم عدت إلى غرفتي.

لم أشعر بالغضب أو بالاستياء، بل قبلت الموقف وأدركت بعد عدة دقائق أنني لا أسمع أي شيء على الإطلاق، لا في ذهني ولا خارجه. غرق البيت في السكينة، فعدت من جديد إلى غرفة المعيشة فوجدت والداي يجلسان هناك صامتين.

"ستتغير الأمور نحو الأفضل". قال والدي.

"نحن نحبك أيضاً". أضافت أُمي.

لم أعرف في تلك اللحظة إذا ما كان كل شيء سيتغير نحو الأفضل، عرفت فقط أنهما يحبانني من كل قلبيهما، وكان ذلك بعيداً جداً عما كنت أتمناه ولا أدركه من حبهما لي. ومع ذلك.. شعرت بأنه كافٍ في تلك اللحظة.

رأيت الدماغ لأول مرة محفوظاً في إناء زجاجي مليء بالفورمالهايد، وكان رمادياً مجعّداً، أشبه بحبة جوز عملاقة أو كتلة لحم مفروم تقارب الكيلوغرامين من الحاسوب الخارق المسؤول عن كل فعل بشري. تأملت الكتلة

المتغضنة وعجبت لها.. كيف يمكن لهذه الفقاعة الهلامية الرمادية والبيضاء أن تكون مصدر الفكر واللغة ومقرّ الذاكرة. عرفت خلال سنيّ دراستي المواضيع المسؤولة عن التكلم والتذوق وكل الأفعال الحركية، لكني لم أجد كتاباً أو معلماً يمكن له أن يخبرني أو يريني خلال عمل جراحي الجزء الذي يمكن لنا أن نشرّحه لنرى تدفق الحب. لا يوجد مقطع عرضي يوثّق لنا غريزة الأم الطبيعية لحماية طفلها. لا توجد شريحة تحتوي على الدافع الغامض الذي يجبر الأب على العمل في وظيفتين ليحظى أبناؤه بأكثر مما حظي به هو في طفولته. لا يوجد مركز ملموس في الدماغ يمكن لي تحديده على أنه النقطة المسؤولة عن توجّه شخص بلمح البرق لمساعدة إنسان آخر، أو الذي يقود الغرباء للعمل معاً خلال الأزمات.

ما هو الجزء المسؤول عن دفع روث لمنحي وقتها وانتباهها وحبّها؟

لم ترّ عيناى أي شيء من تلك الأحاسيس طافياً في سائل الفورمالهايد، ولم أجدها عندما نظرت إليه من خلال المجهر أثناء إجراء الجراحات. أمضيت ليالي عديدة خلال سنوات دراسة الطب مفكراً بالدماغ، ثم في السخريّة التي يثيرها الأمر باعتبار أنني أفكر بفهمه أثناء استعماله. إلى أي حدّ نفرّق بين الذهن والدماغ؟ أنا قادر على إجراء عمل جراحي في الدماغ لا في الذهن، لكن إجراء الجراحات للدماغ لا يمكن له أبداً التسبب بتغيير ذهني.. إنها أحجية السببية، اللغز الدائري ذو الرجوع الأبدي، السؤال الذي لم يجد له أحد أي جواب.. أيهما جاء أولاً، الدجاجة أم البيضة؟ وقد سألت روث ذلك السؤال في أحد الأيام.

"جيم.. إذا كنت جائعاً حقاً فلا يهم أبداً من منهما جاء أولاً.. أليس كذلك؟" عانيت من الجوع الشديد في بعض الأحيان وكنت سأتناول بسرور شديد أياً ما يُقدّم لي منهما بالفعل.

لطالما امتلكت روث تلك القدرة على تفكيك المسائل وهيكلتها في منظور جديد. ويوماً بعد يوم، دربتني على اكتساب منظور جديد معتمداً على مشاعري

وأفكاري الخاصة، وكان ذاك التفكير بالتفكير نفسه - قدرة الدماغ على مراقبة نفسه - هي أعظم ألغاز ذاك المنظور.

أخرجت روث حيلة جديدة من جعبتها فيما كنت على وشك التوصل للقدرة على مشاهدة أفكاري قبل انتهاء العطلة الصيفية بأسبوعين فقط، مما كان يعني أنني انفصلت عنها.

"جيم.. هل شاهدت من قبل ساحراً يقطع امرأة إلى نصفين؟".

"بالطبع". وأومات برأسي.

"حسناً، سنقوم الآن بحيلة تشبهها، ولكن بقلبك. سوف نفتحها، ونقسمه من المنتصف".

لم أكن أملك أي فكرة عما كانت تقصده لكنني اعتدت بعد مرور كل ذلك الوقت لنا معاً على طريقتها في طرح الأفكار، وعرفت أن كل ما عليّ فعله هو الجلوس ووضع حزام الأمان والاستمتاع بالرحلة.

حيلة روث الثانية

ترويض الذهن

ما إن تتوصل لإرخاء جسدك حسب الحيلة الأولى حتى يكون الوقت قد حان لترويض الذهن.

ابدأ من جديد بالتركيز على أنفاسك، فمن الشائع أن تجرفك الأفكار وأن ترغب باتباعها، ركّز على تنفّسك حين تتعرض لذلك، ويعتقد البعض أن التركيز على المنخرين والأنفاس الداخلة والخارجة منها يساعد على استرجاع التركيز إلى سابق عهده.

استعمال المانترا هي تقنية مساعدة في تقليص شطط الذهن أثناء التركيز، والمانترا هي كلمة أو عبارة تكرر مراراً وتكراراً، بالإضافة إلى تركيز النظر على لهيب شمعة أو أي شيء آخر، وهذا يمنعك من الانتباه للأفكار المنبثقة في ذهنك. وفي بعض التمارين الروحية يعطي المعلم لتلميذه - تابعه - مانترا معينة دون أن يطلع عليها أحداً لتبقى سراً بينهما، لكنك قادر على انتقاء أي كلمة تريد وترددها لتكون مانتراك الشخصية. أو يمكنك بكل بساطة التركيز على شعلة أو أي شيء آخر، ابحث عما يساعدك لأن الناس مختلفون.

سيتطلب الأمر منك وقتاً ومجهوداً فلا تشعر بالإحباط، لأن الأمر قد يحتاج لعدة أسابيع أو أكثر قبل أن تبدأ بملاحظة الآثار العميقة المتأتية عن ذهن هادئ. ستفقد الرغبة في الانخراط عاطفياً في الأفكار السلبية أو المضللة في أغلب الأحيان، وستتضاعف السكينة التي شعرت بها بسبب الاسترخاء وحده لأنك لن تتفاعل عاطفياً مع الحوار الداخلي حين لا يشتت انتباهك ويسرقك. وهذه الاستجابة العاطفية هي صاحبة التأثير الأكبر على كل أعضاء جسدك.

مارس هذا التمرين الروحي لعشرين أو ثلاثين دقيقة كل يوم.

جائزة ترويض الذهن هي صفاء الفكر.

الفصل الرابع

الآلام الحية

غادرت البيت ذاك الصباح متجهاً إلى متجر السحر أبكر من المعتاد لأن أخبار الطقس توقعت أن يكون هذا اليوم واحداً من أشد أيام آب - أغسطس حراً على الإطلاق في لانكاستر، وتوقعت لدرجة الحرارة أن تفوق الأربعين. ازدحمت السماء بسحب رقيقة أشبه بالدخان الرمادي الفاتح ولم تسطع الشمس، رغم أن الجو لم يكن غائماً في الوقت نفسه، وكان كل شيء من حولي رمادياً أو بنياً بسبب ذلك. ولشدة الحرّ، شعرت بلسعات كالجمر تصعد من الأرض وتخترق دواسات الدراجة لتصل إلى قدمي وتكاد تحرق الشعيرات التي نبتت على ساقي، واضطرت أيضاً لوضع يد واحدة على المقود كي لا تحترق يداي في وقت واحد، وحاولت القيادة دون أن أضع يداي على المقود عندما مررت بشارع كاي وكنت على وشك التوصل لحالة مستقرة من القيادة بهذا الشكل عندما سمعت صرخة من الحقل المجاور لكنيسة إبيسكوبال.

عرفت الصبي الأكبر الذي كان يكيل اللكمات على الفور. كان يكبرني بصقّين في المدرسة، وقد تلقيت منه بالفعل عدة لكمات فيما سبق وكنت مع أخي ضحية لوقاحته عدة مرات، كما بصق وصديقه عليّ في أحد المرات. كانا يشكلان عصابة من فردين تبسط سيطرتها على لانكاستر كلها ما بين الثالثة والخامسة عصراً خلال العام الدراسي، ولا بدّ أنهما كانا يقومان بذلك لساعات إضافية صيفاً لأن الساعة لم تبلغ بعد العاشرة صباحاً، وها هو أحدهما يكيل اللكمات والركلات لصبي بينما يقذفه الآخر بالشتائم ويضحك. لم أتمكن من رؤية الضحية لأن الصبي كان ممدداً على الأرض ومتكوراً على نفسه. أحاط

الصبي رأسه بذراعيه لحمايته، وخلتْ لوهلة أنه أخي، ثم تذكرت أنه كان في المنزل عندما غادرت.

لست واثقاً مما دفعني للنزول عن دراجتي والصياح على الصبيين، كنت معتاداً على الدفاع عن أخي.. كانت عادة حملتها معي إلى سنّ الرشد، لكني لم أتدخل رغبة في الشجار وعلى الأخص مع هذين الصبيين بكل تأكيد. لم يسمعاني في البداية.. وشعرت أثناء اقترابي منهم أنني أتلقى كل لكمة وركلة يسددانها للصبي المرمي أرضاً وبدأ قلبي يقفز في صدري. أخذت نفساً عميقاً وصحت طالباً منهما أن يتوقفا من جديد.

"توقفا!".

كان أكبرهما منحنيّاً فوق ضحيته فتوقف عندما سمعني ونهض، ابتسم لي مكشراً عن أسنانه بوحشية ثم ركل الصبي من جديد على بطنه فأجفلت وشعرت بأني الشخص الذي تلقى تلك الضربة الموجهة في بطنه.

"من الذي سيجبرني على ذلك؟".

تحولّ اهتمامهما إليّ فتدحرج الصبي الملقى أرضاً على ظهره وحاول النهوض، كنت أعرفه من المدرسة لكني لم أذكر اسمه، كان أهله قد انتقلا للعيش هنا منذ عام بعد أن نُقِلَ والده للعمل في القاعدة الجوية المجاورة. كانت الدماء تملأ وجهه ولاحظت نظارته المرمية بجانبه في الطين، ولا بدّ أنه كان بنصف حجم ووزن كل منّا، إذ كان طول قامتي مماثلاً لهما لكنهما كانا يفوقاني وزناً بثلاثين رطلاً على الأقل. راقبته ينهض ويسرع نحو الكنيسة، ولا يمكنني لومه بالطبع على رغبته في الهروب من المكان.

"هل ستحلّ محلّه؟".

تقدّما باتجاهي فشعرت بجفاف في حلقي وطنين في أذنيّ، حاولت أخذ أنفاس عميقة كالتي درّبتني عليها روث لكني لم أتمكن من ملء رئتيّ بالهواء

كما أردت.

لن ينتهي هذا على خير.

"أعتقد نفسك بطلاً؟ أظن أنك بطل ملعون؟".

لم أجب، حاولت إرخاء ساقِيَّ ويَدَيَّ كما تعلمت في متجر السحر
وتصفية ذهني من الأفكار.. إذا اضطررت للقتال فسأقاتل.. فليكن.. لن أهرب
أبداً.

"سأبرحك ضرباً ثم سنستولي على دراجتك".

لم أجه أيضاً، وشعرت باقتراب لحظة إصابتي بركلة جانبية على
الخاصرة لكنني تابعت التحديق مباشرة في الصبي الذي كان يستمتع بالضرب
والركل، كان الرأس الأكبر ما بينهما.. قَرَب وجهه مِنِّي إلى أن تمكنت من رؤية
بعض من اللزوجة البيضاء الرغوية التي توضع على زاوية فمه.. ارتفعت
الحرارة أكثر كل ثانية وملاً العرق وجهه وتلطّخ بالأوساخ.

"إلا إذا قَبَلت قدمي".

فكّرت بروث ونيل في المتجر، لا بد أنهما بانتظاري الآن، هل ستظن
روث بأني سأغيب اليوم؟ هل سيجدني أحد هنا غارقاً في دمي؟ هل أسرع
الصبي الآخر لإحضار نجدة؟ هل استيقظ هذا الإنسان المائل أمامي وتناول
إفطاره من الحبوب والحليب وخرج فوراً من منزله لضرب الناس دون أن يغسل
فمه؟ تسارعت كل تلك الأفكار في رأسي لكنني لم أرفع نظري عن البقعة البيضاء
الجافة وتظاهرت بأنه وهج الشمعة.

"قَبَل قدمي".

رفعت نظري إلى عينيه وتكلمت للمرة الأولى منذ أن طلبت منه التوقف
عن ضرب ذاك الصبي.

"لا".

تقدم مني أكثر وأمسك بقميصي وكاد يخنقني.

"قبل قدمي". قال مهدداً وراح فمه يستطيل ليأخذ شكل ابتسامة تشبه ابتسامة شخص متأكد تماماً من أنه يحظى بسلطة وسطوة على الآخرين. ألصق وجهه بوجهي فشعرت بأنفاسه ورائحتها. أغمضت عيناى للحظة فتغير كل شيء.

فتحت عيناى ونظرت إليه مباشرة، حملقت في عينيه مباشرة كما فعل عندما نحاول فهم شيء ما أو فهم شخص ما بكل طاقتنا ثم قلت:

"يمكنك أن تفعل بي ما تشاء لكنى لن أقبل قدميك".

ضحك، ثم نظر جانباً إلى صديقه ورفع حاجبه ثم عاد بنظره إليّ. تابعت التحديق إليه دون أن يرف لي جفن فرفع قبضته واستعد ليكيل لي لكمة فلم أجفل ولم أترجع، بقيت عيناى ثابتتين على عينيه، ولم أكرث في تلك اللحظة لحجمه الذي يفوقني ولا لدم الصبي الآخر الذي يغطي قبضته.. لن أترجع الآن، لن أشعر بالخوف وأمنحه تلك القوة، ولن أقبل قدميه.. ولا قدمي أحدهما جرى.

تشابكت أنظارنا لوهلة ورأيت.. وعرف أنى رأيت.. شاهدت ألمه وخوفه.. شاهدت كل الألم والخوف اللذين كان يحاول إخفاءهما خلف تتمره على الآخرين.

أبعد نظره عني ثم نظر إلى قبضته المرفوعة ثم عاد بنظره نحوي وقال:

"يا لها من مضيعة للوقت".

أفلت قميصي ودفعني قليلاً إلى الخلف فتعثرت بشكل طفيف لكنى لم أقع أرضاً. لم ينظر إلي مرة أخرى لدقائق ثم التفت بعيداً وقال:

"الطقس حار جداً.. لنرحل من هنا".

دفعني الصبي الآخر قليلاً من الخلف لكنها كانت دفعة للتظاهر بالنصر لا أكثر. وعرفت أنه لم يعرف ما جرى للتو، لم يفهمه. ابتعدا وشاهدته يكلم المتممر السّاديّ، عرفت أنه يسأله عن سبب إحجامه عن ضربتي بصوت منخفض، فدفعه المتممر وقال:

"أخرس".

وابتعدا دون أن يلتفتا إلى الخلف.

تنفست الصعداء وراقبتهما إلى أن ابتعدا ثم عدت باتجاه دراجتي. لم أعرف حقاً ما جرى في ذلك اليوم ولم أدرك في ساعتها سبب قيامي بذلك التصرف لكنني شعرت بالرضا. تنبّهت فجأة لتأخيري.. لا بدّ أن روث تنتظرني الآن، أملت بأن لا تعتقد روث بأني أخللت بموعدي معها، فامتطيت الدراجة وسابقت الريح إلى متجر السحر.

اندفعت عبر الباب بسرعة مقطوع الأنفاس، وجاهزاً لإخبار روث ونيل بكل ما جرى على الطريق.. لقد دافعت عن نفسي وعن الصبي الصغير الذي لم يملك لذلك سبيلاً، وشعرت لأول مرة في حياتي بأني بطل، لا بد لها من مسامحتي على التأخير بعد أن تعرف بما فعلت.

"روث.. روث! نيل! أنا هنا". ناديتهما لكن أحداً منهما لم يكن في المتجر، وهذا أمر غريب.

لم يجبني أحد.

توجّهت إلى الغرفة الخلفية فسمعت أصواتهما عرضاً، كانا يتجادلان.. وكانت المرة الأولى التي أسمعهما يتجادلان.

"إنه مجرد فتى".

"سيدكر الأمر طوال حياته.. لا بد أن تصح مسار الأمور معه".

"لقد فات الأوان ووقع الضرر، سوف أشرح له كل ما جرى عندما يكبر".

"يمكن للأضرار أن تُصحّح ومن واجبنا أن نصححها". قالت روث جملتها هذه بصوت غاضب بعض الشيء.

لم أسمع تلك النبذة في صوتها من قبل فأصابني القلق.. هل أخطأت في شيء؟ هل غضبا مني بسبب التأخير؟ الأمر غير معقول.. ما هو الخطأ الكبير الذي ارتكبه نيل بحقي؟ ماذا سيشرح لي عندما أكبر؟

"اسمع يا نيل.. كل الناس ترتكب الأخطاء، وقد ارتكبت الكثير منها معك، لكنني أقول أن الأوان لم يفت بعد على تصحيح ما جرى، ستندم على سلبيتك هذه، ثق بكلامي".

ساد الهدوء، ولم أرغب في أن يخرجنا من الغرفة ليكتشف أنني أتتصت عليهما، فعدت إلى مدخل المتجر وفتحت الباب مجدداً وناديتهما.. ربما لن يكتشفا هكذا بأني سمعتهما.

"هالو.. لقد وصلت يا روث..".

خرجت روث من باب المكتب الخلفي محمّرة العينين كحال والدتي فعرفت أنها كانت تبكي.

"جيم.. لقد تأخرت".

"آسف، صادفتني مشكلة على الطريق".

تفحصتني روث ثم سألتني:

"أهذا دم على قميصك؟".

"نعم.. لكنه ليس دمي.. لا تقلقي".

ضحكت روث وقالت: "هذا يثير قلقي أكثر.. تعال إلى الخلف".

دخلت ورأيت نيل جالساً فتمتم مرحباً بي دون أن يلتفت باتجاهي، لم أعرف خطأي ولا خطأه لكن الأمر يجب أن يكون خطيراً لأن معالم الكراهية بدت جليّة على وجهه الآن.

أجلستني روث على الكرسي وقامت معي بجميع خطوات تمارين الاسترخاء ثم طلبت مني تكرار المانترا الخاصة بي بصمت. بدأت بذلك بالفعل لكنني لم أتمكن من منع نفسي من إعادة مجريات الحوار الذي سمعته صدفة.. ما هو الخطأ الذي ارتكبه نيل بحقي؟ ما هو الخطأ الكبير الذي دفع روث للبكاء؟ لم أتمكن من احتمال كل ذلك وبالطبع لم أكن قادراً على تهدئة أفكاري.

"ماذا جرى؟ ماذا فعلت؟ ما سبب غضب نيل مني؟" باغتتها بأسئلتني مغمض العينين ثم فتحتهما لأجد عيني روث المتعجبتين.

"لماذا تظن بأنك ارتكبت خطأً ما؟".

"سمعتكما تتحدثان عني.. سمعتكما صدفة.. إنه يكرهني".

نظرت روث إليّ برهة ثم هزّت رأسها وقالت:

"هل سمعت كل ذاك؟".

"نعم..". قلت ببؤس.. عرفت في قرارة قلبي بأن نيل وروث أكثر روعة من أن يكونا جزءاً من حياتي، وشعرت بأنه سيكون يومي الأخير في المتجر أيضاً.

"حقاً؟ وماذا قال نيل عنك؟".

"قال..".

فكرت بالإجابة لكنني لم أتذكر حرفية ما قاله نيل عني.

"تفضّل؟".

"قال شيئاً عن.. عن ضرر وقع".

"وهل سمعت اسمك؟".

"لا، ليس بالضبط". لم أذكر أنهما تلفظا باسمي لكنني كنت متأكداً من أن حديثهما يدور حولي، شعرت ببؤس أكبر.. هل ستكذب روث عليّ وتقول بأنهما لم يكونا يتشاجران من أجلي؟

"جيم.. لم نكن نتكلم عنك، بل عن حفيدي".

"حفيدك؟".

"نعم، نيل لديه ابن، والعلاقة معقدة ومفعمة بالأحزان، وأنا أفقده كثيراً".

"كم عمره؟".

"إنه بعمرِكَ تقريباً".

"أين هو؟".

"إنه مع والدته الآن لكن ذلك ليس هاماً، الأمر الهام الآن هو السبب الذي دفعك للاعتقاد بأننا كنا نتحدث عنك.. لماذا ظننت بأن نيل يكرهك؟".

لم أعرف بم أجيبها فقد افترضت بأنهما كانا يتكلمان عني.

"جيم.. لكل واحد منّا ظروف تسبب له الألم، ووضع ابني وحفيدي يؤلمني ويعتصر قلبي، إنه كجرح.. إذا جرحت ركبتني.. ماذا أفعل برأيك؟ لا بد لي من إيلائها بعض الاهتمام، أنظفها وألصق عليها ضماداً وأحرص عليها لتشفى، أو أتجاهلها وأتظاهر بعدم إصابتي بشيء وأنها لا تؤلمني ولا تحرقني، وأغطيها وأتمنى أن تزول من تلقاء نفسها، أهذه أفضل طريقة لإنهاء المشكلة؟".

"لا".

ومن جديد.. لم أفهم قصدها.

"جراح القلب كجراح البدن، يجب أن نعتني بها لتشفى وتلتئم، وإلا.. سيسبب لنا الجرح الألم على الدوام، وربما دام لفترة طويلة جداً. وكلنا نتعرض للأذى.. إنها الحياة، لكن تلك الجراح المؤلمة تخدم غرضاً نبيلاً أيضاً، القلوب لا تتفتح وتنمو إلا حين تصاب بالجراح.. إننا ننمو من خلال الألم وبمساعده، نتطور حين نواجه المواقف الصعبة، وهذه هي الخدعة التي ينطوي عليها مفهومنا عن الجراح التي تصيبنا. ولهذا ينبغي علينا الشعور بالامتنان لكل موقف صعب نواجهه.. أنا أشفق على الأشخاص الذين لا يعانون من المشاكل ولا يضطرون إلى المرور بصعوبات حياتية، إنهم يفتقدون لتلك الهبة، ولا يدركون السحر".

أومات لها برأسي متفهماً، لقد أمضيت وقتاً كبيراً من حياتي حتى تلك اللحظة أقارن نفسي بأصدقائي الذين يبدو بأنهم يملكون كل شيء، لم يكونوا مضطرين إلى الوقوف في الصف لدفع ثمن المشتريات في المتجر وتحمل الألم بسبب نظرات الموظفة عندما تناولها الأم كوبونات الطعام المخصصة للفقراء، أو الانتظار في صف طويل أمام بنك الطعام الحكومي للحصول على حليب مجفف وبعض الزبد والجبن، لم يتشاجر أهلهم طوال الوقت ولم يسكروا ولم يصابوا بالإغماء بسبب جرعات مفرطة من المخدرات، لم يذهبوا أبداً للنوم ليلاً وهم يحملون وزر ما جرى.. ويشعرون بالذنب. كانوا يملكون السيارات والأموال والملابس والصديقات وبيوتاً جميلة.. هل تشعر روث بالشفقة عليهم حقاً؟

"الحيلة الجديدة التي سأعلمك إياها يا جيم هي البوح بمكنونات قلبك.. بعض الناس يواجهون مشقة في هذا، لكن الأمر سيكون أسهل بالنسبة إليك".

"لم؟".

"لأن الحياة بدأت تفتح قلبك بالفعل.. أنت تملك حس الاهتمام يا جيم، أنت تهتم لشأن عائلتك، تهتم لأمر أخيك وأمك وأبوك مهما فعل، لقد قلقت حين ظننت أن نيل غاضب منك، وأنت مهتم بما فيه الكفاية لمتابعة القدوم إلى هنا كل يوم، لا أشك بتاتاً بقدرتك على الاهتمام بالآخرين.. كل هذا يصب في نطاق فتح مكنونات القلب.

فكرت بالفتى الذي تعرض للضرب صباحاً، لقد اكرثت لأمره بالفعل مع أنني لا أعرفه سوى بالشكل، لقد اهتمت لأمره بما فيه الكفاية لأتوقف بدراجتي، لقد اهتمت به لأنني أعرف أن الضحية كان يمكن أن تكون أنا، كما كنت من قبل بالفعل، اهتمت لأمره لأنني شعرت بالألم والخزي ألف مرة من قبل وقد ذبحني ذلك..

"ولا بد لك من التمرين على الجزء الآخر من عملية فتح القلب، ألا هو الاهتمام بنفسك".

أنا أهتم بنفسي بالفعل.. سيكون هذا سهلاً.

"لقد دفعك شيء ما للافتراض بأننا نتكلم عنك يا جيم، لقد ابتعدت كثيراً بتحليلك لكلام نيل عن الحقيقة وظننت أنه يكرهك".

"لقد أخطأت الظن".

"بالتأكيد.. كلنا نقع في هذا الخطأ.. قد لا نفهم بعضنا البعض، وقد لا نفهم أنفسنا، أو المواقف التي نجد أنفسنا فيها، ولهذا فإن هذه الحادثة هي درس هام بالنسبة إليك.. لا يدور كل شيء في هذا الكون حولنا، وأعتقد أنني بحاجة

لتعلم هذا الدرس بالذات فيما يتعلق بحفيدي".

أومات منصتاً.

"يختار كل منا ما يعجبه في حياته، لكننا لا نملك الكثير من الخيارات حين نكون أطفالاً، فنحن نولد لعائلات ضمن ظروف معينة دون أن يكون لنا أي حيلة لاختيارات مختلفة، لكننا نختار ظروفاً أخرى كلما تقدمت بنا السنون، نحن نقرر - واعين أو غير واعين - كيفية معاملة الآخرين لنا، نقرر ماذا نقبل في هذه الحياة وماذا لا نقبل.. سياترب عليك الاختيار يوماً ما ولا بد حينها من مجابهة العالم لأجل نفسك.. لن يقوم أحد بذلك نيابة عنك".

لم تتسن لي الفرصة مطلقاً لأخبر روث عن العراك الذي شهدته صباح ذلك اليوم، ولم أسمعها تتجادل مع نيل مرة أخرى. وفي الأسبوع التالي، علمتني كيف أفتح قلبي، شرحت لي أن الأفكار التي تدور في أذهاننا تكون شديدة الانتقاد وسلبية في أغلب الأحيان، مما يدفعنا عادة للاستجابة للمواقف الخارجية بطرق لا نرغبها وليست أفضل ما يمكننا فعله، وتلك الأفكار نفسها تدفعنا لاستعادة أحداث الماضي والاستغراق فيها مرة تلو الأخرى، وتدفعنا للحلم بما قد يكون فيما لو -، أو ما نحب أن تكون الأمور عليه فيما لو -، نفكر بالكثير الكثير مما يُغيّبنا عن واقعنا لأوقات طويلة. بدأنا ذاك الصباح بأن طلبت مني روث قول أمور لطيفة لنفسي، ويا لغرابة ذلك الأمر، إذ دفعتني لتكرار عبارات مثل: أنا إنسان جيد.. لم يحدث ذلك بسبب ذنب اقترفته، أنا شخص جيد. شعرت بأنني مهندس صوت آخر في محطة الإذاعة الذي لا يتقوه سوى بالعبارات اللطيفة المريحة. وكلما ضبطت نفسي متلبساً بالاستماع لمهندس الصوت الآخر، كنت أتوقف وأبدأ بترديد المانترا اللطيفة - العبارات اللطيفة - لنفسي.

"أنا شخص قيّم، أنا محبوب، هناك من يهتم لأمرى، أنا أهتم بالآخرين، أنا أختار الخير لنفسى، أختار الخير للآخرين، أنا أحب نفسي وأحب الآخرين، أفتح قلبي.. قلبي مفتوح للمحبة".

طلبت مني روث كتابة قائمة بهذه العبارات العشر الإيجابية المؤكدة، وتكرارها كل صباح وكل ليلة وفي كل وقت تخطر لي، وبعد تمارين الاسترخاء التي كنت أمارسها على وجه الخصوص بعد ترويض أفكاري وتطويعها، بدت لي تلك العبارات غير ذات أهمية لكنني كررتها على الدوام وشكرت الله لأنها لم تطلب مني ترديدها بصوت مرتفع. وفي وقت لاحق، طلبت مني إرسال أفكار مُحبة لنفسِي ولعائلي وأصدقائي والناس الذين لا أحبهم أو الذين أرى بأنهم لا يستحقون الحب. راقبت الحيرة على وجهي ورمقتي بنظرة تفيض مودة ولطفاً وقالت:

"يا جيم.. في أغلب الأحيان، هؤلاء الذين يؤذون الناس هم أكثر من تعرض للأذى والإساءة".

لكن ممارسة ذلك كان أمراً صعباً، شقّ عليّ التفكير بذاك الفتى الذي اضطهدني وتتمّر عليّ وضربني بقسوة واعتبار كل ما جرى أمراً عادياً غير مؤلم. لم يكن الواقع هكذا أبداً.. ما زلت أكرهه كما أكره كل من آذاني أو عاملني بخسّة ودناءة. لكنني لم أنقطع عن المحاولة مراراً وتكراراً. وبعد فترة من ذلك، اكتشفت أنني إن تخيلتهم في أوضاع قاسية مجروحين أو مضروبين، باكين متألّمين كما جرى معي فإن المهمة تكون أسهل، وأصبحت الأمور أسهل فأسهل عندما أدركت أنني أغضب بسهولة من أحدهم لأنني كنت أتألم من الداخل، كنت غاضباً من نفسي لسبب ما، ولم ألاحظ ذلك من قبل. ترددت كلماتها في ذهني: "هؤلاء الذين يؤذون الناس هم أكثر من تعرض للأذى". لقد كانت على حق.

هذه هي القصة.. إذا تمكنت من شفاء جروح نفسك، فلن تتألم بعد ذلك، ولن تؤذي الآخرين. يا إلهي.. هل كانت جلساتي مع روث تشفيني من جراحي؟

أخبرتني روث الأسبوع الماضي بأنها ستعلمني كيفية الحصول على أي شيء أريده. وكنت جاهزاً للانتقال لتلك الخطوة، فقد ضجرت من الحديث عن القلب، وآلمني التفكير الطويل به، لأنه ذكرني بكثير من الحوادث المجحفة التي

أمضيت الكثير من الوقت محاولاً دفنها في داخلي كي لا تؤلمني بكل تلك الشدة. لكنني اكتشفت بأنها تتقلص وتتصلب وتصبح أقل إيلاماً كلما ظهرت على السطح، وأخيراً.. تقلصت استجابتي العاطفية الانفعالية إلى حدّها الأدنى حين أستعيد أحداث الماضي المؤلمة، تمكنت من استعادتها في ذهني دون الاستغراق في الألم، دون لوم نفسي أو الظن بأن كل ما جرى كان خطأي. تمكنت أخيراً من استعادتها ومشاهدتها في ذهني بلا اكتراث، اكتشفت أنني توقفت عن إيلاء مهندس الصوت المتكلم في ذهني كل اهتمامي ولاحظت أن صوته خفت كثيراً، كثيراً جداً.

فتحت روث شقاً كبيراً في قلبي، آلمني في أغلب الأحيان لكنه كان أمراً جيداً جداً.

يشارك كل البشر في أمر واحد، وهو الصوت الأول الذي نسمعه، إنه خفق قلوب أمهاتنا، الإيقاع المنتظم الذي يمثل الصلة الأولى التي يعرفها كل واحد منّا، لا نعرفها بعقولنا، بل بقلوبنا. القلب هو المكان الذي نجد فيه راحتنا وأماننا أثناء مرورنا بأحلك المواقف، إنه ما يجمعنا سوية، وهو ذاته ما يُكسر حين نفترق. للقلب سحره الخاص، إنه الحب.

عندما بدأ ريتشارد ديفدسون بدراسة الشفقة مع رهبان التبت الذين كانوا يتأملون لأوقات طويلة جداً، طلب منهم ارتداء خوذات مبطنة بأقطاب كهربائية راسمة لعمل الدماغ بأعداد خيالية لقياس شدة شفقتهم أو تعاطفهم. ضحك الرهبان عندما سمعوا بالأمر، وظن العلماء بأنهم ضحكوا من منظر الخوذات المليئة بالأقطاب الكهربائية الموصولة بأسلاك طويلة بدت كشعر مستعار أشعث طويل. لكنهم لم يضحكوا من شكل الخوذ كما ظن العلماء، لقد أخطأوا، وشرح لهم أحد الرهبان سبب الضحك قائلاً:

"كل الناس تعرف، الشفقة والتعاطف لا تصدر عن الدماغ، بل تُشعّ من القلب".

أثبت البحث بأن القلب يمتلك وعيه الخاص العميق، لا يتأثر بل يؤثر بشكل فاعل على الدماغ نفسه، على عواطفنا ومحاكماتنا العقلية وخياراتنا. وأنه لا يفكر وحده بشكل منعزل عن الدماغ فقط، بل ويرسل الإشارات لكل أنحاء الجسم، وأن العصب الحائر الذي يخرج من المخ ويتفرع إلى عدد لا يحصى من الأعصاب الفائقة الدقة الواصلة حتى القلب وأعضاء أخرى هو ركن أساسي من الجهاز العصبي اللاإرادي.

إن إيقاع نبض القلب المعروف باسم معدل ضربات القلب هو انعكاس لحالتنا العاطفية الباطنية الواقعة مباشرة تحت تأثير ذاك الجهاز العصبي اللاإرادي، ولهذا.. تنخفض وتيرة العصب الحائر في أوقات الشدة أو الخوف ويغلبه قسم آخر من الجهاز العصبي اللاإرادي يدعى الجهاز العصبي الودّي.

وهذا الجهاز العصبي الودّي مرتبط بقسم بدائي من جهازنا العصبي مُصمّم للاستجابة حال الخطر أو الخوف عبر رفع مستوى ضغط الدم ومعدل ضربات القلب أو خفضها، وفي الحالة المعاكسة ترتفع وتيرة تأثير العصب الحائر حين يشعر الإنسان بالهدوء والراحة ويسيطر الجهاز العصبي السيمبتاوي على الجسم، فيحفزه على الهضم والاستيعاب والاسترخاء على النقيض من توجيهات العصب الحائر التي تحرض الجسم على القتال أو الهرب. وقد تمكن الباحثون من تحليل كيفية استجابات القلب والجهاز العصبي لمسببات الضغط النفسي والانفعالات العاطفية عبر قياس نبضات القلب ودراستها، فعرفوا أن مشاعر الحب والتعاطف مرتبطة بارتفاع عدد نبضات القلب، واكتشفوا بأن تلك النبضات تنخفض حين نشعر بانعدام الأمن أو الغضب أو الإحباط وتصبح أكثر نعومة وانتظاماً. ويلتبس هذا الأمر على كثير من الناس لأن المنطق يقول بارتفاع تلك الوتيرة حين الضغط مثلاً، إذ يفترض الناس بأن تلك النبضات يجب أن تنحو منحى عشوائياً مثلاً أو تصبح غير منتظمة أو متغيرة، والعكس صحيح، إذ يفترض الناس بأن النبض ينتظم حين نشعر بالهدوء والاسترخاء، إلا أن الحقيقة معاكسة تماماً لما نظن.

كما أنّ أحد أهم أسباب نوبات القلب المفاجئة المثيرة للاهتمام هو انعدام تقلبات معدل ضربات القلب، وينتج هذا عن كثرة التعرض للأخطار وما ينتج عنه من انخفاض في وتيرة العصب الودي. يتسبب الضغط النفسي والقلق والخوف الدائم والتفكير السلبي بتهيج الدم في القلب وتحركه بقوة شديدة غير معتادة مماثلاً في حركته تلك صرخة أحدهم داخل مسرح مكتظ بالناس: "نار". مرة تلو الأخرى، وحينها، لا بد أن يقع أحدهم صريعاً تحت أقدام الآخرين.

ساعدتني روث على تشكيل ارتباطات عصبية جديدة في دماغي، وكانت تلك تجربتي الأولى في مضمار الجراحة العصبية حتى قبل استحداث تلك المفردة العلمية التي قدمها عالم النفس الأمريكي وليام جيمس لأول مرة قبل 1 عاماً إلا أنها لم تستخدم وثُفهم وتُصبح ممكنة إلا في أواخر القرن العشرين. لم تدربني روث على تغيير هيكلية دماغي عبر استحداث دارات عصبية جديدة فقط، بل دربتني أيضاً على تنظيم عمل العصب الودي، مما أدى بدوره إلى التأثير على حالتي العاطفية ومعدل ضربات القلب عندي ومستوى ضغط الدم. تمكنت روث بحدسها وحده من تحويلي إلى شخص أكثر تركيزاً وانتباهاً، أكثر هدوءاً، وتمكنت من رفع مستوى جهازي المناعي وخفض مستوى التوتر الذي كان يستحوذ عليّ وفي النهاية، تمكنت من خفض مستوى ضغط الدم في جسدي، وفعلت كل هذا لإيمانها بما كانت تعلمه لي دون أن تعرف أي شيء عن علم النفس الحقيقي المائل خلف سحرها ذاك. سألتني أمي في أحد الأيام إن كنت أتعاطى المخدرات، ولم أكن قد تعاطيتها بعد في ذلك الوقت، فقد كنت أخافها وأخاف الكحول بعد أن حاولت أمي الانتحار عبر تناول المخدرات عدة مرات. وقد سألتني ذلك ثم شرحت لي بأنها تراني هادئاً وسعيداً ولا أشبه الصبي الذي كان يبدو كمن يعيش على حافة بركان. لقد حسّنت روث قدرتي على تنظيم عواطفِي وزيادة مقدار تعاطفي مع كل ما يجري حولي، وزادت بذلك تواصلِي الاجتماعي بالناس وجعلتني شخصاً أكثر تفاؤلاً. لقد غيرت الطريقة التي كنت أرى بها نفسي والعالم من حولي.

وقد غير ذلك كل شيء.

يعرف أعظم السحرة وأكثرهم موهبة كيفية الاستحواذ على انتباه الجمهور والتلاعب بذكرياتهم والتأثير على خياراتهم دون انتباههم. وقد قادتني روث خطوة خطوة لتعلم كيفية السيطرة على انتباهي ذاته عبر تدريبي على بث الاسترخاء في جسدي وترويض أفكاري، لقد علمتني كيفية تأدية أعظم خدعة سحرية في العالم كله، علمتني القيام بخدعة أكبر من أي شيء قام به هوديني العظيم نفسه أمام أذكى مشاهد وأكثرهم شكاً على الإطلاق.. ألا وهو ذهني نفسه.

تعلمت عبر تعلم كيفية مراقبة أفكاري أن أفصل نفسي عنها، وهذا على الأقل ما قالته روث عن هذه النقطة لأنني لم أفهمها في ذلك الوقت على الإطلاق. ومع ذلك، لم يظهر لي أي تغيير كبير في حياتي، فما زلت أعيش في شقة صغيرة تقع في مكان لا يرغب أي شخص في العيش فيه، كنت ما أزال فقيراً، لم يكن لي سوى عدد قليل من الأصدقاء وبلا أي علاقات اجتماعية، ومع أنني كنت متأكداً من حب والدي لي إلا أن حياتي بقيت على حالها. بدا للجميع في ذلك الوقت بأن المرء لا يكون غنياً ولا يصبح غنياً إلا إن ولد هكذا، أما إن ولدت فقيراً فلا أمل لك بذلك. حاولت فتح قلبي مردداً بلا كلل الجمل التي كتبتها لنفسي، لكنني بقيت في ذهني ذاك الطفل الفقير الذي يعيش في شقة حقيرة، الجائع للطعام والحب على حدٍ سواء.

كان عندي قصة جاهزة في ذهني عن ماهيتي وما قد يحمله لي المستقبل، لم أكن جاهزاً بعد لأرى جراحي كما يجب، لأعرف أنها هباتٌ ومِنَح، لكنني كنت جاهزاً لتعلم الخدعة الأخيرة من روث في الأسبوع الأخير قبل أن تعود إلى أوهايو.

"جيم.. أعرف أن بعضاً مما أخبرتك إياه لا يبدو لك حقيقياً، وأنه لم يغير أي شيء في حياتك، إلا أنني أريد أن أخبرك بأنه قد فعل، وقد غير في حياتك أكثر بكثير مما يمكنك أن تدرك الآن".

أومات برأسي وحاولت مقاطعتها لأخبرها بأنها قامت بالكثير لكنها لم تسمح لي بالكلام.

"لا نملك الكثير من الوقت يا جيم، ولهذا سأعلمك أعظم خدعة سحرية أعرفها في الوقت المتبقي لنا، لكنك مضطر لتنفيذ كل ما أقوله لك.. كل كلمة، وهذه خدعة مهمة لأنها ستسمح لك بالحصول على كل ما تعتقد بأنك ترغب به، على عكس كل ما أمضينا الوقت الماضي في تعلمه. ولسوء الحظ.. فإنها خدعة خطيرة لأنها قادرة على منحك كل ما تعتقد أنك تريده. لا بد أن تفهم أن ما تعتقد بأنك تريده لا يكون حسناً لك وللآخرين على الدوام. لا بد أن تفتح قلبك لتعلم ما تريده قبل أن تستعمل ذلك السحر، وإلا.. إذا لم تعلم ما تريده وحصلت على ما تظن بأنك تريده فسينتهي بك الأمر في الحصول على ما لا تريده".

ماذا؟ ماذا قلت؟

في ذلك الوقت، لم أكن أفهم على الإطلاق ما كانت تحاول إخباري عنه، لم أسمع سوى عبارة: "سوف تمكنك هذه الخدعة من الحصول على كل ما تريد".

كنت جاهزاً.. أخيراً.. عرفت أنه السحر الذي سيغير حياتي كما وعدتني روث، وقد حاولت دفعها لتلقيني تلك الخدعة قبل ذلك، فقد كررت لها عدة مرات بأن قلبي مفتوح وأني جاهز للانتقال للخدعة الأخيرة لكنها كانت ترفض على الدوام.

"جيم.. لا يمكنك التغاضي عن خطوة فتح القلب.. إنها أهم جزء في هذه العملية، ثق بي.. عاهدني بأنك ستقوم بهذا أولاً قبل تنفيذ الخدعة الأخيرة.. أعرف أنك تظن بأنني أعلمك خدعاً وربما كانت تلك التعاليم خدعاً سحرية بطريقة أو بأخرى، لكن تذكر من فضلك بأن هذه الخدع لها قوتها.. إذا لم تأخذ كلامي على محمل الجد فلا بد من أن تدفع الثمن الباهظ في المستقبل.. تعلم هذا مني الآن كي لا تضطر لتعلمه بالطريقة الصعبة فيما

بعد".

"أعاهدك.. كنت على استعداد لمعاهدتها على أي شيء لتعلم الخدعة

الأخيرة.. أفتح قلبي أو لا أفتح.. لم أكرث للأمر.. كنت أعرف ما أريده بالتمام والكمال.

بالضبط.

أتمنى لو أنني أنصتُ لكلامها بشكل أفضل، أتمنى لو كنت قد تعلمت في سن الثانية عشرة خوض الحياة بقلب متسع مفتوح أمام الآخرين والعالم.. يا لتلك الآلام التي كنت سأمنع حدوثها! يا لذلك الاختلاف الذي كان سيطراً على الدروس التي لقنتني إياها الحياة! يا للعلاقات الفاشلة التي كانت لتنجح! هل كنت لأكون زوجاً أفضل؟ وأباً أفضل؟ وطبيباً أفضل؟ هل كنت سأندفع خلال النصف الأول من حياتي بغير تلك الطريقة الهوجاء الحمقاء؟ ما هي الاختيارات الأخرى التي كنت لأختارها؟ من الصعب جداً التكهن بكل تلك الأمور، وأعتقد أننا لا نختار سوى ما نُدرّ علينا اختياره، وقد قُدر على بعضنا تعلم الدروس بأصعب طريقة ممكنة، هكذا بكل بساطة. حاولت روث مساعدتي بكل طاقتها، إذ علمتني الانبراء للدفاع عن نفسي ومنع الآخرين من تقرير قيمتي، قيمة الشخص الذي أنا عليه، أو مقدار قدراتي الدفينة. حاولت منعي من أذية نفسي، لكنني كنت يافعاً جائعاً، فما كان مني إلا أن هاجمت العالم كما لو كان عدواً لدوداً لي حين دربتني وفتحت أبوابه أمامي. لا توجد طريقة تسمح لي بأن أعرف آنذاك ما أعرفه الآن، لأنني لو كنت أعرف، لفتحت قلبي حينها حقاً. الدماغ قوي جداً، لكنه لن يعطينا ما نريده حقاً إلا إن فتحنا قلوبنا أولاً.

إن اختبار الألم يمكن أن يتحول إلى هبة حين يصمم المرء على التعلم من تلك الآلام، إلا أنه يخلو من النبل والعدالة حين تسببه بلا داع لنفسك ولكل من يرافقك على درب حياتك. لقد علمتني روث سحراً عظيماً، وكنت أستطيع إنقاذ نفسي وكثيراً آخرين من التعرض للآلام والمعاناة لو أوليت كلماتها في ذلك اليوم اهتماماً أكبر.

لكنني كنت مجرد مراقق، وكان الاهتمام شيئاً حديثاً بدأت تعلمه للتو.

حيلة روث الثالثة

فتح أبواب القلب

1. تنفيذ الحيلة الأولى: بث الاسترخاء في أوصال الجسد.
2. عندما تشعر بالاسترخاء، ركّز على انتظام أنفاسك وحاول تفريغ ذهنك من كل الأفكار.
3. عندما تتقافز الأفكار في ذهنك عُدْ إلى التركيز على انتظام أنفاسك.
4. تابع التنفس ولا تتوانى عن إفراغ ذهنك من الأفكار.
5. فكر الآن بالشخص الذي منحك حباً مطلقاً غير مشروطاً، وهذا الحب اللامشروط لا يخلو من الآلام وليس حباً مثالياً منزهاً عن الأخطاء، إنه يعني أن ذاك الشخص أَحَبَّكَ بلا أنانية من قبل أو لفترة من الزمن. إذا لم تجد في حياتك مثل ذلك الشخص ففكر بشخص منحتك أنت حباً غير مشروط.
6. استغرق في الدفء والغبطة التي يمنحها مثل ذلك الحب مع التنفس ببطء، اشعر بقوة ذلك الحب، بأنك مقبول ومُصان ومحبوب رغم كل مثالبك وعيوبك.
7. فكر بشخص تهتم لأمره وانوِ بثّ ذلك الحب اللامشروط وعكسه له، واعلم أن هذه الهدية التي ترسلها له هي ذات الهدية التي أرسلها لك أحدهم وأنها ستمنح الآخر شعور الحماية والرعاية الذي يحتاجه.
8. فكر مجدداً وتذكّر أثناء بثّك لحبك اللامشروط - الطريقة التي شعرت بها عندما أحاطك الشخص الذي منحك الحب أولاً برعايته واهتمامه وقبوله لك.

9. اعكس له مرة أخرى الإحساس بالرعاية والحماية والمحبة التي شعرت بها من قبل رغم كل أخطائك وشوائبك، فكر بشخص تعرفه ولا تشعر تجاهه بأي شيء. والآن، انو بثّ كل تلك الشحنات العاطفية الإيجابية له، متمنياً له حياة سعيدة بأقل قدر ممكن من المعاناة. تمثله في قلبك وتصور مستقبله وسعادته ودع نفسك لتتعم بدفء ذاك الشعور.

10. فكر الآن بشخص ربطتك به علاقة صعبة أو بشخص لا ترتاح له أو تبغضه، واعلم أن أفعال المرء في أغلب الأحيان هي تجسيد لآلامه، افهمها وانظر لها كما تنظر لنفسك، كياناً ناقصاً تشوبه السلبيات يناضل في بعض الأحيان ويرتكب الهفوات في الأحيان الأخرى، فكر بالشخص الذي منحك حبه اللامشروط وبالطريقة التي انعكس فيها فعله ذاك عليك، والآن امنح ذلك الحب نفسه لذاك الشخص الآخر الذي تبغضه.

11. انظر لكل شخص تراه على أنه كيان ناقص غير كامل ولا مثالي مثلك تماماً، كياناً له مثالبه، كياناً اختار منعطفات خاطئة في حياته وآذى الآخرين في بعض الأوقات، لكنه يصارع الأيام ويستحق الحب، مثلك تماماً. امنح الآخرين الحب اللامشروط بكل تصميم ونية صادقة على ذلك، اغمرهم بالمحبة في ذهنك ولا تكثر مطلقاً لطريقة تجاوبهم مع حنانك.

الغرض من هذا هو ارتقاؤك لشخص ذو قلب كبير.

القلب الكبير يتواصل مع الآخرين

وهذا يغيّر كل شيء.

الفصل الخامس

ثلاث أمنيات

انتهى فصل الصيف ذاك مع وعد روث بتعليمي أعظم وأقوى حيلة قادرة على تغيير مسار الحياة وأكثرها سرية على الإطلاق. لم أكن قد عرفت بعد كنه تلك الحيلة لكنني تخيلت نفسي كأعظم ساحر اعتلى يوماً خشبة مسرح. قام أغلب السحرة بإظهار الحمامات من قلب المناديل أو الأرانب من قلب القبعات أو أوراق اللعب بشكل مراوح من العدم، أما أهمهم فقام بإخفاء نفسه عن عيون الناس، بالظهور فجأة من العدم. ولم يبدأ فصل الصيف ذاك بآمال كبرى ولا بمخططات أصبو إليها، لكن روث.. مثل عفريت يخرج من مصباح سحري ليقدم ثلاث أمنيات، أخبرتني كيف أستحضر لنفسي أي شيء أريده من العدم.

كان أسبوعها الأخير هنا وبدأ لي أن الأسابيع الستة المنصرمة قد دامت عمراً بأكمله، وانقضت كما ينقضي أيضاً، بلمحة عين. بدا لي أن إمضاء ستة أسابيع في تعلم أربع حيل هي فترة طويلة، لكنها أخبرتني أن الناس يحتاجون غالباً لسنوات لاكتساب وإتقان تلك المهارات السحرية، وطلبت مني الاستمرار في التدريب على تلك الحيل لتحويلها إلى عادات يومية لي. فتابعنا المرنان على تلك الحيل كل يوم إلى أن استوعبتها بعد أن تابعت الذهاب إلى متجر السحر كلما استطعت، وعندها فقط، قبلت روث أن تعلمني الحيلة التالية والأخيرة.

حاولت عدم التفكير في ما سأفعله حين تغادر أو بالكيفية التي سأقضي بها الأيام الباقية من الصيف، لكن مجرد التفكير بالعودة إلى المدرسة سبب لي القلق، فواجهته بتمارين التنفس والاسترخاء بعد أن أكّدت لي روث بأن القلق

مضيعة للوقت، ومع ذلك، لم يفارقني القلق حيال المدرسة ووالدتي ووالدي، حول احتمال إخلاتنا من منزلنا مع بداية أيلول، لم تكن الأمور على ما يرام في بيتنا، إذ بدت أُمي محبطة أكثر فأكثر، وفقد والدي وظيفته بسبب نوبات السكر والعريضة والانقطاع عن العمل، مما حداه بالجلوس في المنزل للتدخين ومشاهدة التلفاز، وعدني بدفع الإيجار وطلب مني باستمرار عدم القلق بذلك الشأن لكن وعوده تلك لم تعن الكثير لي.. فقد ساورني القلق من احتمال طردنا إلى الشارع، من احتمال وقوع أُمي صريعة جرعة زائدة من المخدرات، من احتمال سكر والدي واستيلائه على القليل الباقي لدينا من المال، وقلقت على أخي الأكبر أيضاً، الذي كان يذهب إلى غرفتنا ويكي. لم أستطع البكاء مثله، كنت مضطراً لأن أكون الشخص المتماسك بينهم، كنت الشخص الذي اضطر على الدوام لملاحقة أبيه إلى الحانات ومطالبتهم بالقروش التي دفعها ولم يشرب شيئاً لقاءها، كنت الشخص الذي اضطر لركوب سيارة الإسعاف مع والدتي حين حاولت الانتحار من جديد، وكنت الذي تصدى للصبيان الذين سخروا من أخي على الدوام.

دخلت باب متجر السحر متتهداً بعمق وراحة كمن يدخل باب بيته بعد طول عناء، فلوح لي نيل من خلف منضدة البيع. لقد أخبرني في اليوم السابق عن جمعية سرية خاصة بالسحرة قائلاً:

"لا بد من دعوتك إليها، وعليك أن تقسم على عدم إفشاء أسرارك لشخص لا يعمل في هذا المجال. لكنني سأخبرك بأحد أهم الأسرار.. ألا وهو: عليك أن تؤمن بسحرك.. هذا هو ما يجعل من الساحر حاوياً عظيماً، إنه يؤمن ويصدق القصة التي يرويها للجمهور، إنه يؤمن بذاته إيماناً مطلقاً، ولا علاقة لذلك بالأوهام أو الخداع البصري أو خفة اليد، بل يكمن الأساس كل الأساس في قوة إيمان الساحر بذاته وبقدرته على إقناع جمهوره بنفسه، لا يمكن لك مطلقاً خداع جمهور لا يصدقك، والسحر ليس خدعة أو حيلة كما يظن الناس.. الساحر العظيم ينقل الناس إلى عالم الممكنات.. حيث لا وجود للمستحيل، وكل شيء قابل للحدوث بدرجة مصداقيته نفسها، وفي ذلك العالم، تتحول كل

المستحيلات إلى أمور يمكن تصديقها".

سألته عما دفعه لإخباري بهذا باعتبار أنني لم أنضمّ بعد لأي جمعية سرّية للحواة، فأجاب:

"ستقوم بسحر عظيم يا جيم، أنا متأكد من ذلك كوالدتي، ولكن عليك أنت أن تتأكد من ذلك أيضاً، عليك أن تؤمن بهذا، وهي أهم نقطة في الموضوع وأفضل سرّ ما بين كل أسرار فنون السحر. تذكر هذا غداً حين تبدأ التمرين على آخر حيلة، وتذكر ذلك كل يوم بعد رحيل والدتي".

أوقدت روث شمعة كبيرة ووضعتها على طاولة صغيرة أشبه بحامل تلفاز من الطاولة الحقيقية وسط الغرفة الخلفية. لم أشاهد تلك الشمعة من قبل، وضعتها داخل أسطوانة زجاجية حمراء مزخرفة الفوهة برسومات برتقالية وبنية، بينما كانت الشمعة بيضاء اللون ولا يزيد طولها عن ثلثي الأسطوانة الزجاجية فتراقص لهيبها بسبب التموجات التي تتخلل الفوهة. أطفأت النور فأعتم المكان وتحول إلى جوّ ضبابي غامض أكثر من المعتاد.

"ما تلك الرائحة؟".

"إنه خشب الصندل، إنه مناسب للحلم".

خشيت أن تتحول الجلسة إلى جلسة تحضير أرواح مثلاً، فقد كنت متشوقاً وقلقاً كما لو كان يومي الأول هنا.

"تفضل بالجلوس.. ابتسمت لي وأحاطت كتفي بيديها لأنها كانت تعرف بأني أنتظر هذه الحيلة بفارغ الصبر.

جلست أمامي وحدّقت إلى عيني لدقائق ثم قالت:

"جيم.. أخبرني بأهمّ ما تريده من الحياة".

حرت جواباً.. كنت أعرف بأنني أريد المال.. ما يكفي منه كي لا أفلق
حيال أي شيء مجدداً، لأشتري أي شيء أريده أنني أريد، ما يكفي ليتأثر الناس
بنجاحي ويحترموا وجودي، ما يكفي لأكون سعيداً، لتتوقف أُمي عن الاكتئاب
ويتوقف والدي عن حاجته للسكر لنسيان واقعه المرير.

"كن دقيقاً قدر الإمكان من فضلك".

شعرت بالإحراج من قول كل ذلك بصوت مرتفع، لكنني فعلت بأي حال
وقلت لها:

"أريد الكثير من المال".

ابتسمت وقالت:

"كم من المال؟ تحديداً".

لم أفكر من قبل بكمية المال التي أحتاجها بالضبط لتحقيق تلك
الأمنيات، فقلت:

"ما يكفي منه".

ضحكت روث قليلاً ثم أعقبت:

"أريد منك أن تقول لي بصوت مرتفع قدر المال الذي تعتقد بأنه كاف".

فكرت بالأمر. غالباً ما رأيت رجلاً يقود سيارة بورش رياضية فضية رائعة
قرب مدرستي، لا بد أنه يعمل أو يعيش هناك، وكان يبدو مرحاً وسعيداً، وقد
أقسمت أن أحظى بسيارة مثلها في المستقبل، وأذكر زميل دراسة لي دعاني يوماً
للعب في بيته، وكان أبوه يملك شركة مقاولات بناء، فوجدت بيتهم أشبه بالقصر،
وكانت حديقته الخلفية كبيرة جداً وتحتوي على بركة سباحة هائلة وملعب تنس،
فحلمت بأن أعيش في بيت يشبهه في المستقبل. تذكرت والد صديقي الذي كان

يستلقي في ذلك اليوم بجانب بركة السباحة، وساعة رولكس ذهبية مرصعة بحبات الماس في معصمه، خلعها ووضعها بجانبه على المنضدة الجانبية. شاهدني أتفحصها بنظري فسمح لي بحملها، وجدتها ثقيلة الوزن فأخبرني بأنها مشغولة من الذهب الخالص، فسألته عن ثمنها دون أن أعرف بأنه سؤال غير لائق، أجابني دون أن يرمش له جفن بأن سعرها هو ستة آلاف دولار. كان ذلك المبلغ يمثل ثروة في عام 1968، ولم أتخيل يوماً في حياتي إنفاق كل ذلك المبلغ لشراء ساعة. وهمست لنفسي بأني سأملك يوماً ما ساعة ذهبية كتلك. تذكرت أيضاً برنامج جزيرة الأحلام، لقد حلمت أيضاً بامتلاك جزيرتي الخاصة.. كانت لدي الكثير من الأمنيات، رغبت في إصلاح سني المكسور ليتوقف الناس عن السخرية من شكل أسناني، كي تنتهي كل لحظات الإحراج تلك، رغبت في ارتياد المطاعم الفاخرة التي كنت أراها على التلفاز، رغبت بأن أكون غنياً جداً إلى درجة أن تُسمّى الأماكن تيمناً بي، واعتقدت بأني سأكون على ما يرام عندما أحقق كل ذلك، وهذا هو كل ما كنت أصبو إليه.. أن أكون على ما يرام.

"الكثير.. ما يكفي للحصول على كل ما أريده". أجبت.

لم تتردد روث بعد إجابتي وسألت:

"كم هو المبلغ الكافي؟".

فكرت باقتراح مبلغ مليونين من الدولارات لكنني لم أرغب بأن تظن روث بأني شخص جشع، فقلت:

"مليون دولار.. إنه مبلغ كاف".

طلبت مني روث أن أغمض عيني وأرخي جسدي وأفرغ ذهني من الأفكار ثم طلبت مني فتح قلبي لكنني لم أكن أعرف بعد معنى ذلك، ومع ذلك.. هزرت رأسي بالإيجاب حين سألتني إن كنت قد فتحت قلبي، فقالت:

"والآن.. تصوّر نفسك ممتكاً لما يكفي من المال، تصوّر المليون بين

يديك".

تصورت في البداية غرفة مليئة برزم النقود.. تلاًلاً منها تصل إلى السقف، فسألتنى روث عما أتصوره فأخبرتها.

"جيم.. لا أريد منك تصور رزم الأموال.. أريد أن ترى نفسك وكأنك حظيت بها، تملكها.. هل تدرك ما أعني؟".

"لا".

"هناك طريقتين لتتصور نفسك، أحدها هو أن تتخيل بأنك تشاهد فيلماً عن نفسك، والطريقة الأخرى هي أن تحاول النظر إلى العالم من خلال عيني النسخة التي تتمناها عن نفسك، أريدك أن تتخيل العالم الذي سيحيط بك حين تملك مليون دولار، تصور العالم من خلال عيني شخص يملك ذاك المال، تصور أنك حصلت بالفعل على المال الذي تريده.. ماذا ترى الآن؟".

أغمضت عيني وتصورت المستقبل، فشاهدت سيارة بورش تارغا 911، فضية اللون لكني لم أتمكن من تصور أي شيء من خلال عيني، تصورت نفسي أقودها، ولكن عن بعد كما لو كنت أشاهد التلفاز، رأيت نفسي أتناول الطعام في مطعم فاخر، وشاهدت قصراً كبيراً كقلعة لكني لم أتمكن من تخيل امتلاكي لكل تلك الأشياء. بدا كل شيء لي كفيلم سينمائي أشاهده، ومع ذلك، حتى تخيل ذلك الفيلم كان صعباً لأكثر من عدة ثوان.

"فكرت بأن المهمة ستكون سهلة، لكنها صعبة".

أخبرت روث عن سيارة البورش وتخيل نفسي داخلها كما لو كنت أشاهد فيلماً عن نفسي.

"يتطلب الأمر الكثير من التدريب والوقت، ثم المزيد من التمرين، وفي النهاية، ستتمكن من رؤية نفسك داخل سيارة البورش تلك. حاول أن تفكر

بلمس جلد المقود على يديك.. ما هي رائحة السيارة؟ كيف يبدو صوتها؟ انظر إلى مقياس السرعة وأخبرني عن مقدار سرعتها؟ كيف يبدو لك المشهد في الخارج؟ هل تقودها ليلاً أم نهاراً؟ كيف يشعر جسدك حال قيادتك لهذه السيارة؟".

"هل أنا مضطر لتخيل كل هذا؟".

"إنه يتطلب الكثير من الجهد، لكنها طبيعة الحيلة.. يمكنك الحصول على أي شيء تريده عبر تخيل ملكيتك له، الأمر بهذه البساطة والصعوبة في الوقت نفسه.

لقد تخيلت نفسي هنا في لانكاستر في هذا الصيف، رأيت نفسي جالسة في متجر ابني، تصوّرت الشدة التي ستسقط بها أشعة الشمس الحارقة على الزجاج، رأيت يدي ممسكة بيد ولدي نيل، ورأيت صبيّاً يكلمني، لقد تصوّرت كل هذا في ذهني وحولته إلى واقع قبل أن أخطط لقيامي بهذه الرحلة بوقت طويل. لم أكن أعرف السبيل الذي سيقودني إلى لانكاستر، لكنني آمنت بأنني سأقضي الصيف فيها. لقد كنت هنا في ذهني قبل أن أحضر هنا بجسدي بوقت طويل".

"هل رأيتني؟".

"رأيت أنني أقضي الوقت برفقة صبي، وتصورت آنذاك أنه سيكون حفيدي لكن الأمور لم تجر على هذه الشاكلة. لقد تبين أنك الشخص الذي أحتاج لقضاء الوقت معه. هل فهمت يا جيم؟؟ لقد فتحت قلبي قبل أن أتخيل هذه الرحلة، فتحت نفسي مع شخص يحتاج وجودي وفي المكان الملائم لذلك. ثم آمنت كلياً بأن ذلك هو ما سيحدث فعلاً. الحياة لا تقول دوماً لما نتمنى حدوثه، لقد تعلمت أن الأمور لا تجري سوى كما ينبغي لها أن تحدث، وأنا لا أعرف الآن سبب ضرورة قضائي لهذا الصيف برفقتك لكنني متأكدة من وجود سبب لهذا، وأعرف في أعماقي بأنني سأقضي وقتاً مع حفيدي لو وُجدت حاجة لذلك، هناك مثل قديم يقول: لا يظهر المعلم سوى حين يكون التلميذ جاهزاً له. وقد كنت أنت التلميذ الجاهز لمعرفتي في الحقيقة.. لا

حفيدي".

لم أكن أعرف الكثير عن حياة روث الشخصية في ذلك الوقت، لكنني علمت بعد خمسة وأربعين عاماً من ذلك أنها قضت الصيف التالي مع حفيدها كرتس في بلدة تدعى ليك إيزابيلا، تبعد أكثر من مائة ميل عن لانكاستر، لقد فعل سحرها فعله، ولربما لم يحدث ذلك سوى لأنه بات جاهزاً لملاقاتها.

أرسلتني روث إلى المنزل في ذلك اليوم طالبة مني التمرين على الحيل الثلاثة الأولى، ومنح المزيد من الاهتمام لقضية فتح القلب، ثم طلبت مني كتابة قائمة بكل ما أريده من الحياة قائلة:

"أريد منك كتابة قائمة بعشرة أشياء تريد تحقيقها في حياتك، فكر بما تريده، اكتب عن الشخص الذي تريد أن تتحول إليه، ثم أحضرها معك غداً".

"ظننت أنني مضطر لاختيار ثلاث أمنيات فقط".

"يمكنك تمنى ما تشاء، حتى لو وصل عددها إلى عدد نجوم السماء يا جيم، لكننا سنبدأ بالأمانى العشرة التي ستحضرها معك غداً".

لم تطلب روث مني قبل ذلك اليوم القيام بأي واجب منزلي، لكنني فعلت ما طلبته مني.

لا أريد إخلاءنا من منزلنا.

أريد الخروج في موعد مع كريس.

أريد ارتياد الجامعة.

أريد أن أصبح طبيباً.

أريد مليون دولار.

أريد ساعة رولكس.

أريد سيارة بورش.

أريد قصرًا.

أريد امتلاك جزيرة.

10. أريد أن أكون ناجحاً.

سلمتها القائمة في اليوم التالي فقرأتها وكان تعليقها الوحيد هو:

"همممم".

"ماذا؟".

"جيم.. هل فتحت قلبك قبل كتابة هذه القائمة كما طلبت منك؟".

أومأت برأسي بالإيجاب. كانت تلك المرة الوحيدة التي كذبت فيها على روث، لكنني لم أكن أعرف معنى فتح القلب الذي حدثتني عنه، لم أفهم ذاك الجزء من تعاليمها، وكنت متشوقاً لمعرفة كيفية الحصول على ما أريده إلى درجة أنني لم أسألها عن حقيقة ذلك الموضوع. كل ما كنت أفكر به هو كيف أتعلم تحقيق رغباتي خلال الستة أيام الباقية من فصل الصيف ذاك.

"لم أكن أعرف أنك تريد أن تصبح طبيباً".

كنت في الصف الرابع الابتدائي، حين وفد لمدرستنا مجموعة من المهنيين كي يشرحوا لنا عن مهنتهم، فزار صفنا رجل إطفاء ومحاسب وبائع بوليصات تأمين، لكن أحداً منهم لم يسترع انتباهي، مع أن رجل الإطفاء كان جذاباً، إلا أنه أخبرنا عن الأوقات الطويلة التي يقضونها في انتظار وقوع سوء ما. أما الرجل التالي فقد كان مختلفاً.. ابتسم لكل واحد منا على حدة، كان

أخصائياً في طبّ الأطفال.

"يسعدني ويشرفني أن أعتني بالمرضى، وعلى الأخص أولئك الأطفال منهم. لأن القيام بمثل هذا العمل يحتاج إلى شخص ذي ميزات خاصة. كنت مصاباً بالربو أثناء طفولتي، وكدت أموت، لكن والدتي اصطحبتني إلى عيادة الطبيب، ولن أنسى في حياتي ابتسامته تلك.. عرفت أنني لن أموت حالما رأيته، وعرفت أيضاً في تلك اللحظة بأني سأصبح طبيباً".

كان ذاك الطبيب يشع نوراً أمام صفّنا أثناء حديثه عن عمله..

"لكنها ليست مهنة، بل هو نداء واجب إنساني، نداء لا يسمعه ويلبّيه كل الناس، يحتاج إلى أناس لا يتقيدون بعمل منتظم من الساعة التاسعة صباحاً حتى الخامسة مساءً، لا بد أن تعمل لساعات أطول لأن الناس يعتمدون عليك، ولأنهم قد يموتون إذا خذلتهم".

تلقت حولي لأرى إن كان أي من زملائي مبهوراً مفتوناً مثلي، ولا بد أنه لاحظ حملتي فيه، لأنه مشى إلى مقعدي بعد انتهاء الجلسة وسألني عن اسمي.

ومع أنني كنت قارئاً ممتازاً وكنت أحظى بدرجات جيدة في عدة مواد دراسية، إلا أنني لم أكن ذاك التلميذ المتفوق. لم أكن أفهم الحاجة إلى الدراسة، ومع أن والداي شجّعاني إلا أنني لم أحظ بمكان خاص للدراسة ولا بشخص يساعدني عليها حين أحتاج إليه. من الصعب جداً أن تركز على دراستك حين يصم صوت التلفاز أذنيك، وبدا أن المعلمين يركزون جهودهم على التلاميذ المتفوقين أو الذين يتابعون دروسهم على أكمل وجه. لا أذكر مرة سألني فيها أحد المعلمين عن سبب تأخيري صباحاً أو عن سبب عدم إنهاءي لواجباتي، ولم أكن أرفع صوتي في الصف سوى لإلقاء الدعابات التي كانت تسبب لي المشكلات، وفي ما عدا ذلك، كنت شبحاً خفياً، لكن هذا الرجل.. في قلبي ألف سؤال له..

"هل شاهدت شخصاً يموت من قبل؟ ماذا عن الولادة؟ هل تعطي حقناً

للناس؟ ماذا تفعل حين يبكي الأطفال في عيادتك؟".

سألته الكثير من الأسئلة غير المترابطة، عن حياته كطبيب أطفال، لكنه أجاب عليها باستفاضة، وعندما حان وقت مغادرته صافحني كما لو كنت شخصاً بالغاً وقال:

"ربما أصبحت طبيباً يوماً ما".

لم أكن أتصور في ذلك الوقت فكرة ارتياد الجامعة أو امتهان الطب، بدت لي الفكرة مستحيلة معدومة الاحتمال تماماً كاحتمال صعودي للمشحي على سطح القمر، لكنه بدا جاداً بعيداً كل البعد عن المزاح. نظر في عيني بثبات وقال:

"لدي حدس بأنك تخبئ في داخلك ملكة الاهتمام، ولهذا فأنا أظن بأنك ستتحول إلى طبيب عظيم.. لا تقلل من شأن نفسك أبداً يا بني". وابتسم لي من جديد وغادر الغرفة، وقبل مغادرته للباب التفت إليّ من جديد وحباني بنظرته الأخيرة.

"لا تقلل من شأن نفسك يا بني..". كررتها لنفسني مراراً ولم أكن متأكداً من معناها لأنني لم أكن قد فكرت بنفسي وموقعي في الحياة من قبل. لكنني قررت في تلك اللحظة بأن هذا هو ما سأقوم به في مستقبلي رغم عدم ارتياد أي فرد من عائلتي للجامعات، سأصبح طبيباً.. تخيلت على الفور صوت أحدهم ينادي اسمي على مكبر الصوت في أحد المشافي كما شاهدت في أحد المسلسلات التلفزيونية التي تتحدث عن طبيب اختصاصي في جراحة الأعصاب.. هل كانت تلك صدفة؟ من يدري.. لكنني أعترف الآن لكم أنني ما زلت أراه في ذهني بكل وضوح وأسمع صوت مكبر الصوت يتردد في أذني.

"نعم.. أريد أن أصبح طبيباً". ثم صحتت لنفسني: "أعرف أنني سأصبح طبيباً". لم أكن أعرف الطريقة، لم أحلم حتى بارتياح الجامعة من قبل، لكنني عرفت في تلك اللحظة بأنني سأحقق ما أصبو إليه.

صفت روث بيديها وكأنني قمت بخطوة كبرى وقالت:

"هذه هي.. هذه هي الطريقة بالضبط".

"ما هي؟".

"تلك الثقة.. المعرفة الحقّة، لا بد أن تعرف بأنك ستصبح طبيباً ثم تتصور نفسك على ذلك الشكل وترى العالم من خلال عيني الطبيب الذي ستكونه".

أغمضت عينيّ وحاولت لكني لم أشاهد نفسي كطبيب سوى بشق النفس. كان ذلك صعباً للغاية.. أنظر لمئزري الأبيض.. لكنه كان مشهداً ضبابياً، فقلت:

"إنه صعب".

"لهذا يجب عليك إرخاء أعضاء جسدك وتنقية ذهنك من كل الأفكار أولاً". ثم أعادت معي كل التمارين من بدايتها، وبعد ذلك قالت:

"و الآن.. بعد أن فزت باهتمامك.. لا بد من مساعدتك على تقرير نواياك".

"ماذا؟".

"نواياك. من السهل تقرير النوايا حين ترخي جسدك وتصقّي ذهنك وتفتح قلبك. أنت تتوي أن تصبح طبيباً، وهذا واضح جداً".

أغمضت عيني مجدداً وفكرت: أنوي أن أصبح طبيباً.. أنوي بكل وضوح أن أمتهن الطب في المستقبل، أنا أنوي أن أصبح طبيباً بكل وضوح. لم أعرف أي عبارة منهم هي الأفضل ولهذا رددتها جميعاً.

"تصور الآن يا جيم أنك تنتظر من خلال زجاج نافذة مبهم، كما لو كنت تجلس داخل سيارة دافئة وخارجها بارد جداً، فكر ببنيتك بينما ينقشع الضباب والتشويش عن الزجاج، كرر أمنيته مراراً وتكراراً إلى أن تصبح النافذة أوضح وأوضح ويتراجع الضباب، على الطرف الآخر من ذلك الزجاج تبدو أنت.. الطبيب الذي ستكونه، وكلما استطعت رؤية نفسك طبيباً بشكل أوضح من خلال تلك النافذة، كلما كان احتمال تحقق تلك النية في العالم أكثر احتمالاً.

حاولت كثيراً، ثم تمكنت أخيراً من مشاهدة نفسي في مئزر أبيض اللون عبر تلك النافذة في ذهني.

"اثبت.. حافظ على تلك الصورة، يوماً بعد يوم، أسبوعاً بعد أسبوع، شهراً بعد آخر، وعاماً بعد عام، سيتحقق كل ما تراه بوضوح من خلال تلك النافذة ويتحول إلى واقع. وكلما تمكنت من تصوّر ما تريد في تلك الصورة بشكل أوضح، أو ما تراه من خلال تلك النافذة كلما حصلت عليه في الواقع بشكل أسرع".

"أهي خدعة حقيقية؟ هل تعدينني بأن يعمل هذا السحر على أرض الواقع؟".

"أعدك. لم أكذب عليك من قبل يا جيم ولن أبدأ الآن بذلك. لكن الأمر يتطلب الكثير من الجهد، كما أن تحقيق بعض الأمور يحتاج إلى جهد أكبر من غيرها، كما أنها لا تتحقق أحياناً بالصورة نفسها التي تخيلتها عليها.. لكني أعدك بأنك ستحقق كل ما وضعته على قائمتك وشعرت به وفكرت به وتصورته إذا آمنت به من كل قلبك وعملت جاهداً على تحقيقه. يجب أن تراه ثم تعمل على تحقيقه، لا يمكنك أن تنتظره جالساً في غرفتك، لا بد من أن تحصل على درجات جيدة، وترتاد كلية الطب وتتعلم كيف تصبح طبيباً، لكنك بطريقة غامضة ما ستجذبه إليك، وستصبح ما تخيلت إذا استعملت عقلك وقلبك.. أعدك بذلك".

ذهبت إلى البيت يومها وقررت تدوين كل ما تعلمته من روث في ذاك الصيف كي لا أنسى أي حرف منه، تناولت كراستي الخاصة من علبة أشيائي المميزة وفتحتها على صفحة فارغة وكتبت: "سحر روث" على منتصف السطر الأول. قلبت الصفحة ثم كتبت كل شيء عرفته منها عن إرخاء الجسد وتصفية الذهن وفتح القلب وتحديد النوايا، كتبت كل ما تذكرته من كلامها حتى عباراتها التي لم أفهمها، وضعت بعض الملاحظات في الحواشي وعلى الجوانب كي لا أنسى أياً من التفاصيل، وأتبعها أمنيائي العشرة.

قرأت أول بند من القائمة: "يجب أن لا يتم إخلاؤنا من المنزل". قرأت كل تعليمات روث حول الحيلة الأخيرة، لقد طلبت مني أن أفكر بكل ما أبتغيه وأكرر رغباتي لنفسى مرة تلو الأخرى، ثم أقوم بعد ذلك بتصور هدفي في ذهني. لم يكن يفترض بي التفكير بما لا أرغب به، ولهذا لم أعرف كيف أتصور عدم إخلائنا من المنزل.

لقد أخلونا من قبل، حضرت الشرطة وسلّمت لوالدي ورقة الأمر بالإخلاء، ثم وصل الناس الذين وظفهم صاحب المنزل لرمي أغراضنا في الشارع.. لم أرغب في تصور حدوث ذلك من جديد، وكيف لك ألا تتصور حدوثه عندما تراه يجري في ذهنك؟ شاهدنا كل الجيران وأصدقائي تُرمى في الشارع، مشردين، محمولين إلى مأوى الذين لا بيت لهم، وكل مقتنياتنا تُرمى في حاويات القمامة.. لم أرغب في تكرار ذلك من جديد حتى في أفكاري، كان مجرد التفكير في الأمر مؤلماً لي بما فيه الكفاية.

فكرت بما قالته لي روث وقررت تصور العكس، وهكذا.. قمت خلال الأسبوع التالي أثناء جلستاتي معها بتصور عائلتي في منزلنا الحالي لساعات وساعات، تصورت أننا ندفع أجرة المنزل، رأيتنا سعداء، ومسحت الضباب الذي يغطّي النافذة في ذهني.

وجدت نفسي في بعض الأحيان أتصور الشريف وهو يقرع الباب.. وكان قرعه للباب مرعباً.. عالياً وقاسياً مما جعل تجاهله مستحيلاً.. كنت أعرف معنى

تلك الضربات، كما كنت أدرك اقتراب موعد دفع الإيجار أول الشهر بسرعة فائقة، واحتمال مغادرة روث خلال ذلك الوقت وانتهائي مشرداً.. تصارعت كل من الصورتين في ذهني.. لكنني كنت أمسح الضباب عن نافذة أفكاري بشكل أفضل كل مرة وأرى أُمي تدفع الأجرة، وأرانا جميعاً في البيت. كررت في ذهني: "سيُدفع الإيجار، لن نُطرد من المنزل".

تمرّنا كل يوم ذاك الأسبوع إلى أن حانت اللحظة الأخيرة لنا معاً، فأعادت على مسمعي كيفية تصوّر نفسي كطبيب، ثم عدت إلى المنزل وتمرنّت على تصوّر دفع إيجار منزلنا. أخبرني والدي وقتها بأنه ينتظر وصول مبلغ من أحد الأشخاص الذين عمل لديهم منذ وقت طويل لكنني لم أصدّقه لأنني سمعت تلك الحكايات من قبل. لاح الإخلاء في الأفق، فحاربته بالسلاح الوحيد الذي أملكه.. ألا وهو سحر روث.

ودّعتها صباح يوم الأحد فعانقتني طويلاً وقالت:

"أنا فخورة جداً بك يا جيم".

"أشكرك يا روث، أشكرك على كل ما علمتني إياه".

كان وداعاً غريباً، وقد ظننت أنه سيكون مأساوياً أكثر من ذلك، لوّح لي نيل عن بعد لأنه كان يتحدث مع زبون بينما ثرثرت روث عن انتظارها لنيل ليغلق المتجر ويصطحبها إلى المطار، وهذا كل شيء. ركبت دراجتي وعدت إلى المنزل.

كنت في غرفتي حين سمعت طرقةً على الباب، روّعني ذلك، فقد كنت أفكر برحيل روث، ثم سمعت طرقة أخرى، وبدأت لي طريقة شخص غاضب لحوح، فتقلصت معدتي وتسارعت نبضات قلبي وتسمرتُ أرضاً. عادت الطرقات على الباب، فأدركت أن والدتي نائمة في سريرها وأن والدي وأخي في الخارج مما يعني أنني مضطر لفتح الباب بنفسي، لا مناص.

نظرت من خلال نافذة المطبخ متوقفاً رؤية سيارة دورية الشرطة
والشريف أمام الباب، وبدلاً من ذلك وجدت رجلاً يرتدي بذة رسمية، ففتحت
الباب. نظر إليّ وسألني عن والدي فأجبته:

"إنه ليس هنا".

"أخبره من فضلك بأنني أعذر لعدم قدرتي على الدفع مسبقاً، وأعطه من
فضلك هذا المغلف واشكره على صبره".

سلمني المغلف وابتعد فأغلقت الباب ونظرت إلى ما في يدي، كان يحمل
اسماً وعنواناً على طرفه الأمامي، فقلبته واكتشفت أنه مفتوح، فرفعت طرفه
وشاهدت المال في داخله، الكثير الكثير من المال.

هرعت إلى حجرة النوم وأعطيته لأمي ففتحته وأحصته، كان هناك ما
يكفي منه لدفع الإيجار لثلاثة أشهر مقبلة ودفع بعض الفواتير وشراء بعض
الطعام.

لم أصدق عيناى، لقد فعل السحر فعله، لقد تحقق بالفعل.

"لا بد لي من الذهاب". صحت بصوت مرتفع من الفرح.

ركبت دراجتي وهرعت بأقصى سرعة باتجاه متجر السحر فوجدت روث
على الباب متجهة إلى السيارة التي ستقلها إلى المطار.

"روث.. روث". صحت.

فتوقفا على الرصيف، وقال نيل:

"أنا سعيد لأنك عدت، فقد كنت أريد أن أعطيك هذه قبل رحيلك".
وأعطاني كيساً. ثم قال: "بإمكانك الحضور للمتجر في أي وقت ترغبه، رغم عدم
وجود والدتي..".

شكرته فتوجه إلى السيارة لينتظر والدته هناك. نظرت في عينيها وقلت داعم العينين:

"لقد تحقق السحر يا روث.. إنه حقيقي".

أحاطتني بذراعيها وعانقتني بينما كنت ما أزال أجلس على دراجتي وقالت:

"أعرف، أعرف يا جيم". ثم تراجعت وعادت للحاق بسيارتها، وفجأة التفتت وقالت:

"لقد فهمته الآن أليس كذلك؟ لقد أدركت عظمة القوة التي تمتلكها في داخلك، أليس كذلك؟ لقد كنت جاهزاً لتتعلم وكان لي الشرف بتعليمك. كلنا نملك تلك القوة في أعماقنا لكننا نحتاج أن نتعلم كيفية استخدامها. ولكن تذكر، لقد علّمتك حيلة عظيمة قادرة على فعل الخير، لكنها قد تسبب الآلام والجراح حين يستعملها أشخاص غير جاهزين لها. وتذكر أيضاً يا جيم أن أفكارك هي من تخلق واقعك، وأن أفكار الآخرين لا تخلق واقعك إلا حين لا تخلقه بنفسك".

راقبت السيارة تبتعد بها وظننت أنني فهمت قصدها في تلك الدقائق الأخيرة التي حظينا بها معاً لكنني لم أفهم ما يكفي. لم أفهم حقاً ما يكفي.. سيأتي وقت لاحق في حياتي أفهم فيه قصدها بكل تفاصيله، لكنني سأضطر إلى اختبار ما قصده عندما تحدثت عن وقوع هذا السحر بين يدي الأشخاص غير الجاهزين قبل أن أفهم. لقد كنت ذلك الشخص.

نظرت في الكيس الذي استلمته من نيل فوجدت قفازاً سحرياً وعدة مجموعات من ورق اللعب الخاص بألعاب الخفة.

فكرت بنيل لبرهة ثم أغلقت الكيس. كنت أحب حيله السحرية لكنها لا ترقى لمستوى الحيل التي تعلمتها من والدته، لقد حصلت على ما يفوقها قوة وتأثيراً.. سوف أحصل على كل ما أريد، وكنت أعرف تماماً أن الشيء الأوحـ

الذي لا أريده هو أن أكون فقيراً أو أن يحتقرني الآخرون الذين يعتقدون أنهم أفضل مني بسبب أموالهم وبيوتهم الجميلة وسياراتهم الحديثة وأعمالهم الناجحة. سوف أحصل على كل شيء.. لن يحتقرني أحد مجدداً، سأصبح طبيباً يحترمه كل الناس، سأمتلك مليون دولار وسأملك سلطة عظيمة وسأكون شخصاً ناجحاً.. أدركت في ذلك اليوم بأنني عرفت كيفية تحقيق كل ذلك، لقد علمتني روث، كان ذاك السحر أقوى من أي حيلة تخيلتها يوماً، وكان يقبع في داخلي طوال الوقت دون أن أعرف بوجوده. قررت تمرين ذهني، قررت التمرين والاجتهاد وفعل كل ما يتطلبه الأمر.. آمنت بكل جوارحي باختباء كل تلك القوة العظيمة في داخلي.

بقينا في منزلنا ولم يطردونا منه، وكان في ذلك الدليل القاطع الذي احتجته، وكان دليلاً قوياً، فمسحت تلك الأمنية عن قائمتي مؤمناً تماماً بقدرتي على مسح بقية الأمنيات المكتوبة عليها.

كرهت بلدي، لانكاستر.. لقد أثر وضعي العائلي بشكل كبير على شعوري تجاه المكان بالطبع، لكنني لم أكن لأتعلم الحيل السحرية التي سمحت لي فيما بعد بتحقيق أمور تفوق الخيال لولا وجودي في تلك البلدة. أنا ممتن لوجودي هناك في ذلك الوقت لأنه مكّني من الالتقاء بالشخص المناسب، الشخص الذي قلب تفكيري وغيّر اتجاه ذهني إلى الأبد.

كانت حياتي قبل روث تتمحور حول شعوري بالضياع واعتقادي بأن الحياة ظالمة لأنها تمنح الحظ للبعض وتحرم الآخرين منه. لم أكن أرى في مستقبلي بصيص أمل يسمح لي بالتحوّل لشخص مهم، أو الهرب من العالم البائس التعيس الصغير الذي عاش فيه أهلي. أما بعد روث، فقد رأيت العالم بعينين مختلفتين. رأيت نفسي من منظار مختلف وآمنت بعالم لانهائي الاحتمالات، عرفت أنني قادر على تحقيق أي شيء أريده، فأمدّني ذلك بالقوة وشعوراً بوجود الهدف. وفي الحقيقة، كلنا قادرون على تعلم الحيلة نفسها، وقد عرفت قوة الفكر وكنت جاهزاً لاستعمالها ومنع أي شخص أو أي شيء من إيقافني.

حيلة روث الرابعة

تصفية النوايا

1. اجلس في غرفة هادئة وأغمض عينيك.
2. فكر بهدف أو شيء تصبو له، لا تكثر بتفاصيل الأمر التي لم تتوضح بعد في ذهنك، وانتبه.. من المهم جداً أن لا يتسبب هدفك هذا بالأذى أو السوء للآخرين، وكن على ثقة من أن تصوّر هدفك ذهنياً سيحقق لك ذاك الهدف لكنه سيسبب الألم والمعاناة لك أيضاً وسيجلب لك التعاسة حتماً لو كان تحقيقه يقوم على أحزان غيرك.
3. استرخ تماماً كما في الحيلة الأولى.
4. عندما تشعر بالاسترخاء التام ركز على تنفسك وحاول تصفية ذهنك تماماً من كل الأفكار.
5. ركّز على تنفسك حين تباغتك الأفكار.
6. تابع التنفس بانتظام وأفرغ ذهنك من الأفكار تماماً.
7. فكر الآن بهدفك أو أمنيته وتصور حصولك عليها أو تحقيقك لها. حافظ على الصورة الذهنية دون التوقف عن التنفس المنتظم.
8. استمتع بالأحاسيس الإيجابية التي نتجت عن تحقيقك لحلمك أو لهدفك، اختبر روعة تحويل فكرة إلى حقيقة ملموسة، استسلم لمشاعرك الإيجابية عندما ترى نفسك في الصورة التي تحلم بها.
9. أضف التفاصيل لتصوراتك عن نفسك عندما ترى نفسك في تلك الصورة التي تريدها وتشعر بالفرحة والنشوة الناتجة عن تحقيق الهدف. مثلاً: كيف يبدو شكلك في حلمك؟ أين تجلس في حلمك؟ كيف يعاملك الناس؟ أضف

أكبر قدر ممكن من التفاصيل إلى حلمك.

10. كرر الأمر مرتين كل يوم أو أكثر إذا استطعت لعشر دقائق على الأقل أو نصف ساعة إذا تمكنت من ذلك. ابدأ كل مرة بتصور نفسك محققاً لأهدافك، تلمس مشاعرك، وأضف مزيداً من التفاصيل كلما جلست للتأمل. سيبدأ الأمر بشكل ضبابي لكن الصورة ستتحسن وتصبح أوضح كلما تمرنت عليها أكثر.

11. ستتقّح الصورة وتحسّنها كلما جلست للتمرين لأن عقلك الباطن سيرى نيتك وهدفك بشكل أوضح مرة بعد الأخرى، ستدهشك اكتشافاتك وستترك فرحتك بتحقيق هدفك عاجزاً عن الكلام. وتذكر دوماً بأن أهم قضية هنا هي هدفك، لا الطريقة التي توصلك إليه.

تتحول التصورات إلى حقيقة عندما تصفو النوايا.

الجزء الثاني

أسرار الدماغ

الفصل السادس

درب نفسك

لو كانت حياتي فيلماً تلفزيونياً كنتك التي بدأت قناة ABC ببثها في السبعينات عصر كل يوم، لحدث فيه تحول دراماتيكي بعد منع السحر الذي تعلمته من روث من طردنا من منزلنا، لكان والدي توقف عن التمل، ولغادرت والدتي ظلمة اكتئابها إلى الأبد، لظهر المال من العدم أمام بابنا على الدوام، ولعشنا سعداء حتى الممات كما يجري في كل الأفلام الكلاسيكية، ولنافسنا في سعادتنا حياة العائلات السعيدة التي لا توجد سوى في المسلسلات التلفزيونية.

لكن سحر روث لم ينجح بذلك الشكل. لم يخرج عفريت من مصباح سحري ليحقق لي كل أمنياتي على الفور.. لم تتغير أحوال عائلتي بشكل سحري، فما زال والدي ثملاً، وبقي أخي مختبئاً في غرفته عن عيون العالم، وتابعت أُمي صراعها ضد الاكتئاب. حصلت على الوصفة السحرية، نعم.. لكنني كنت مسؤولاً عن التمرين عليها وإتقانها والإيمان المطلق بقدرتي على قطف ثمار شجرة المستحيل، كان بإمكانني محاولة خلق حقيقة جديدة مختلفة لنفسني لكنني لم أكن قادراً على تغيير أحبابي مهما عذمت وأصررت على ذلك، كان عليهم أن يختاروا ويقرروا تغيير واقعهم لكنهم لم يفعلوا ذلك. وربما يكون هذا أصعب جانب وأكثر إيلاً من جوانب الطفولة، فحياتنا تعتمد على آخرين كما أنها خارجة عن إرادتنا، وغالباً ما تُسبب اختيارات الآخرين وقراراتهم جراحاً عميقة وتترك ندوباً أبدية في نفس كل طفل منا.

لم أكن قادراً على تغيير واقع أي شخص، لكنني عرفت أنني قادر على تغيير واقعي أنا، عرفت بأن كل ما دَوَّنته على قائمتي سيتحول إلى حقيقة ملموسة، واستحفظتها غيباً بعد رحيل روث ثم أودعتها علبة كنوزي الخاصة برفقة كتاب كارنيغي وألعاب الخفة التي حصلت عليها من نيل، بالإضافة إلى الكراسة التي دَوَّنت عليها كل ما تعلمته من روث.

تمرنت كل صباح وكل مساء، يوماً بعد يوم، أسبوعاً بعد آخر وشهراً تلو الآخر. وكما يفعل الرياضيون حين يتصورون أنفسهم أو يحلمون بتحقيق إنجاز رياضي على الدوام، كالقفزة الكاملة أو الهدف الخرافي، ويغيرون بتمرينهم صفاتهم الجسمانية ويخلقون نظاماً عصبية جديدة تتيح لعضلاتهم إنجاز ما يصبون إليه، كنت أستعمل التَّصوُّر لخلق مسارات عصبية جديدة في دماغي، فالدماغ لا يميِّز بين التجارب الخيالية والتجارب الحقيقية، فدَرَّبْتُ ذهني للتحويل إلى طبيب قبل وقت طويل من تقديم أوراقي للجامعة أو كلية الطب، عبر تصور مستقبلي كطبيب بكل بساطة. كما أنني أعرف الآن سرّاً آخر من أسرار الدماغ، ألا وهو أنه سيختار على الدوام ما هو مألوف لديه ويفضله على ما هو غير مألوف. وقد جعلت نجاحي كطبيب أمراً مألوفاً لذهني عبر تصوري الدائم له. والنيّة مسألة عجيبة، لأن الدماغ يرى بوضوح ما ينويه، على سبيل المثال.. هل فكرت يوماً باقتناء سيارة من طراز ما ثم رحت تراها أينما نظرت؟ هل دفعت نيتك تلك السيارة للظهور في كل مكان أم أن انتباه دماغك المركّز هو من سمح لك لرؤية ما كان أمامك على الدوام؟ الفكرة البسيطة التي تعنون هذا العصر الجديد هي أنك: لا تحصل سوى على ما تتوقعه. وهي فكرة إيجابية ومثال قوي على البرمجة العصبية وإعادة برمجة الدماغ. الانتباه كذلك أمر هام جداً لأنه قادر على تحويل أدمغتنا وتشكيل المزيد من المادة الرمادية في المناطق الخاصة بالتعلم والأداء الفكري والخيال وتحقيق الطموح في أدمغتنا. لقد علمتني روث كيفية الانتباه لما أريده من الحياة، فهل توقعت أن أعيش فقيراً من قبل؟ هل توقعت لحياتي أن تكون بلا أهمية لأنني كنت أتلقي معونات حكومية ونشأت في عائلة دمرها الإدمان؟ هل توقعت طوال الوقت قبل روث أن أكون نكرة فاشلاً بسبب مكان سكني أو هوية والدي؟

انقضت سنوات المدرسة الثانوية كلمحة، كان مستواي الدراسي جيداً في بعض المواد لكنني نجحت بالكاد في مواد أخرى، ولم تك لدي فكرة واضحة عما يجب عليّ فعله لارتياد الجامعة أو التسجيل في كلية الطب، كما لم أعرف طريقة طلب العون أو الإرشاد فيما يخص ذلك، ولم أفهم سوى متأخراً أن الكثير من الناس يقبلون المساعدة بكل بساطة حين تطلب منهم ذلك. لكنني كنت ما أزال أشعر في ذلك الوقت بأنني وحيد ولم أعرف كيف أطلب مساعدة أحد، لم أكن أعرف ماذا يمكن لي أن أطلب من الناس بالضبط على سبيل المساعدة. إن لانعدام المرشدين أو الناصحين أثناء سني الطفولة تأثير شديد على النجاح في الحياة، لأن الفرد لا يمكنه عمل أي شيء ما لم يعرفه. رغبت في لعب الرياضة في الثانوية وانضمت بالفعل لفريق كرة القدم والسلة وكرة القاعدة لكنني سرعان ما أدركت بأن الانضمام للأندية المدرسية يتطلب الكثير من المال والاهتمام الأسري من الوالدين، ولم أكن أملك أياً من هذين الشرطين الأساسيين. من الصعب أن تصبح عضواً في فريق عندما لا تتمكن من الذهاب للتمرين لأنك لا تملك واسطة نقل، أو عندما تتغيب عن لعب مباراة مهمة لأنك مضطر لرعاية أمك كما لو كانت طفلة صغيرة، أو لاضطرارك للبحث عن والدك من خمارة لأخرى ليلة السبت. لقد أحببت شعور الانتماء للفريق الذي اختبرته حين كنت عضواً في تلك الأندية، كنا نرتدي ملابس موحدة وجمعنا هدف واحد، ومع ذلك.. لم أصبح عضواً رسمياً في أي نادٍ رياضي في المدرسة الثانوية بالرغم من استماتتي لذلك، وبالرغم من أنني أضفت تلك الأمنية لقائمتي الشهيرة في السنة الثانوية الأولى.

ساعدني وجود تلك القائمة في صندوقي على المضي قدماً في حياتي رغم الخيبات والمواقف الجائرة ظاهرياً، وخفف تمرين الاسترخاء اليومي مساء من توترتي وساعدني على تهدئة عواصف أفكاري بسبب المدرسة والبيت. كنت أعيش لأجل المستقبل الذي لم يكن يوجد سوى في خيالي، وقد كان مكاناً أكثر إشراقاً بكثير من شقتنا الصغيرة الحقيبة التي تفوح برائحة العفن ودخان السجائر، وقد حاولت التغيب عن البيت أطول وقت ممكن ولم أكن أتواجد فيه سوى للنوم أو للتمرين على سحر روث.

وقد دفعتني تلك الرغبة في التغيب عن المنزل قدر الإمكان للتسجيل في منظمة كشافة الشرطة، ولكي تكون كشافاً في قوات الشرطة، يجب أن تكون قد تجاوزت الخامسة عشرة من العمر، ويجب أن تحوز على معدل أعلى من المتوسط في المدرسة، وأن تكون شخصاً على مستوى عالٍ من الأخلاق. وهكذا.. ذهبت مع زملائي بواسطة حافلة إلى أكاديمية الشرطة في لوس أنجلوس لتتعلم عن القانون وتطبيقه كل يوم سبت لمدة اثني عشر أسبوعاً، وكنا نقضي ثماني ساعات في دراسة قوانين المجتمع المدني والإجراءات التي يجب اتباعها مع المجرمين، بالإضافة لكيفية الدفاع عن النفس واستعمال الأسلحة الفردية بأمان بالإضافة لبعض التمارين الرياضية. كنا نرتدي جميعاً القمصان الخاكية اللون نفسها والسراويل الزيتية الداكنة، ولم يكن الأمر شبيهاً بالانضمام لناد رياضي بأي شكل لكن الفرصة أتحت لي لارتداء زيٍّ موحد والانضواء تحت لواء جماعي، أن أكون جزءاً من كلّ أكبر من نفسي. كما كان أمراً جيداً لأنه أتاح لي مكاناً أقصده يوم السبت، وما إن تخرجنا من البرنامج حتى أصبحنا كشافة رسميين وشاركنا في العديد من المهمات في قسم الشرطة القريب منّا، وعملنا هناك جنباً إلى جنب مع الموظفين الرسميين. كنا نقوم بجولة رسمية أحياناً، حيث نجول في أنحاء الأحياء ونجيب على الاتصالات، كما كانوا يُسندون لنا أحياناً مهام تنظيم الحشود في مناسبات مختلفة كالمهرجانات ومباريات كرة القدم المدرسية الحاشدة وأعياد الاستقلال السنوية، كما عملنا في بعض الأحيان في السجن برفقة الضباط الذين ينظمون محاضر ضبط أو ملفات جديدة لكل المعتقلين.

وفي أمسية أحد الأيام، كانت مهمتي هي مساعدة الشريف على حجز المتهمين في لانكاستر، فمنحني مفتاح الزنزانة، علّقه إلى حزام سروالي بفخر وانتظرت وصول أعتى المجرمين، تخيلت أن السجن سيكون مليئاً بالسجناء، وأني سأقف خارجه وأحمل مفتاح حريتهم، لقد شعرت بالتميز بسبب حملي لذاك المفتاح لكن المكان بقي خالياً معظم الوقت.

صنّفت خلال تلك الأمسية تلاماً لا تنتهي من الورق والتقارير، وشربت

عدة علب من الكوكا كولا وفكرت بأن هذا الجزء من العمل في أقسام الشرطة ممل للغاية، وقبل أن تنتهي مناوبتي بقليل، سمعت أحد الدوريات تتوقف في الخارج، ثم رأيت شرطياً يقترب من المبنى برفقة رجل أشعث مكبل بالأصفاد، لم أشاهد وجهه. كان مخموراً وثنماً للغاية لأن كلماته لم تكن واضحة على الإطلاق، تسارعت نبضات قلبي فجأة.. إنها فرصتي، سيتسنى لي أخيراً أن أودع أحدهم في تلك الزنزانة، مرّ الشرطي برفقة المجرم أمامي، كانت كتفاه متقوستان إلى الأمام فلم أتمكن من رؤية وجهه لكنه تمايل وتعثّر، أخرجت المفتاح من حزامي لأنني أعرف أنهم سيودعونهم في الزنزانة بعد أخذ بصماته وبياناته، جلس الموقوف على الكرسي ثم رفع رأسه ونظر في وجهي مباشرة.

كان أبي. بدا مضطرباً هائجاً غاضباً وثنماً لأبعد درجة، فانقلبت معدتي وتقلصت فابتعدت عنه على الفور وتراجعت إلى الخلف. شعرت بالخزي والخجل الشديد، فقد كتبت سيرة ذاتية عصماء عن أخلاقي ومنشأى لرئيس المخفر، ما الذي سيفكرون به الآن؟ لقد أجبتهم عن الأسئلة المتعلقة بالأهل بشكل غامض للغاية وأقنعت نفسي بأن رئيس المخفر لم يلحظ شدة فقري أو أن والدي هو أحد المخمورين الغاضبين الذين أودعهم في الحجز عدة مرات من قبل. كان أهم دافع لانضمامي لهذه القصة كلها هو إثبات شدة اختلافي عن عائلتي أمام الناس.

فتحت درج أحد خزائن الملفات وحملت في داخلها، وددت لو كان بإمكانني استخدام مفتاحي لإخراج نفسي من هذا المكان، لماذا يبدو لي على الدوام أنني عاجز عن التملص من هويتي وعائلتي ومنشأى؟

حطّ يد شخص ما على كتفي فنظرت إلى الخلف، كان المسؤول المناوب تلك الليلة..

"أنا آسف لحصول هذا". قال.

عرفت عندها أنه يعرف هوية والدي، وأنه لطالما عرف ذلك. شعرت

بحرارة شديدة تخترق وجهي فانحنى وجهي بشكل لا إرادي إلى الأسفل، لم أكن لأبكي.. لكني لم أعرف ما يجب علي القيام به.. هل سيتوجب علي إيداع والدي نفسه في الزنزانة؟

"لقد تحدثت مع الضابط الذي ألقى القبض عليه، لن نوجه له أي تهم، سننتظر حتى يصحو من سكره ثم نأخذه إلى البيت".

أومأت برأسي ثم تمتعت: "شكراً جزيلاً".

رغبت في الاختفاء عن وجه الأرض، لكن المشرف بقي واقفاً ولم يرفع يديه عن كتفي.

"جيم.. قال برفق.

رفعت رأسي ونظرت في عيني.. متوقعا الانتقاد أو الأسوأ.. الشفقة، لكني لم أشهد أياً من ذلك، تذكرت أن روث أخبرتني يوماً بأن انكسار شيء في حياتنا لا يعني انكسار كل شيء. لطالما كنت أعتقد بأن الناس ينتقدونني بسبب والدي وفقرى وعوزي، لكن يد المرشد على كتفي في تلك الليلة وعيني الطافحتين لطفاً دفعتاني لمعرفة أن تلك الانتقادات لم تكن سوى انتقاداتي لذاتي. كنت فقيراً، وكان والدي سكيراً، لكني لم أكن مكسوراً، لا يجب أن أظن بأن حياتي قد أصابها الدمار لأن شيئاً ما قد كُسِر.. لا يجب أن أنكسر.

"نعم يا سيدي".

"هل تود المغادرة وإنهاء مناوبتك لهذه الليلة؟".

"نعم، من فضلك". في تلك اللحظة، عرفت أنها الحقيقة، كان لوالدي مساره الخاص في الحياة، وكان لي مسار آخر مختلف عنه.

نظر المرشد مجدداً باتجاهي وقال:

"هل تعلم يا جيم.. كان والدي سكيراً أيضاً، أنا أفهم مشاعرك تماماً". ثم ضغط بيديه على كتفي مرة أخرى وابتعد.

هناك نتيجتان مشتركتان بين الناس الذين ترعرعوا في أسر نخرها الخمر، فإما أن يتحولوا إلى سكيرين كبعض آبائهم، مجسدين بذلك رضاتهم النفسية وميلهم الجيني لذلك، أو يتحولون إلى أشخاص ناجحين للغاية، يدفعهم التصميم على التحول إلى أشخاص مختلفين قدر الإمكان عن عائلاتهم، مصممين على الهروب. وقد انتميت للصنف الثاني، كان هذا أحد الأسباب التي دفعتني للانضمام لكشافة الشرطة، استمتعت بانضوائي تحت لواء مجموعة يُشهد لها بالأخلاق الحميدة، ولست واثقاً حتى الآن من حقيقة دوافعي.. هل كنت أريد إقناع الناس أو نفسي.. كما جرى حين ألقي القبض على أبي.. لم أتمكن من منع العالمين النقيضين الذين كنت أعيش فيهما معاً من الاصطدام. كما كانت إحدى المهمات التي اضطلعت فيها مع كشافة الشرطة هي توزيع سلال الطعام وحزمها وتغليفها للفقراء خلال موسم الأعياد. كنا نضع فيها الكثير من اليقطين المقلب والخبز الأبيض والبطاطا الحلوة دون نسيان الديك الرومي بالطبع. وكان رئيس القسم يسلمها بنفسه قبل أيام من العيد.

لم أكن أحد أفراد الفريق المسؤول عن توزيعها لكني أحببت سماع قصص زملائي عن لحظة استلام الفقراء لتلك السلال، فكانوا يقرعون الأبواب ويفاجئون الناس بتلك السلة.. كان الناس يبكون أحياناً وسمعت أحد الضباط يقول: "يدفعك تأثرهم للاعتقاد بأنهم لم يشاهدوا ديكاً رومياً من قبل".

شعرت بالرضا حين ساعدتهم على حزم تلك السلال، أبهجني ذلك لأيام وأسابيع لاحقة، تماماً كما شعرت حين علمتني روث إسكات صوت أفكاره. كانت حيل روث جزءاً لا يتجزأ من روتيني اليومي، لم أخبر أحداً عنها لكني كنت أمارس الاسترخاء كل يوم وأصفي ذهني وأتصور آميأتي ومصيري. لم أفتح قلبي.. كانت تلك الحيلة صعبة جداً بالنسبة إلي، كان من الصعب بالنسبة إلي أن أحب نفسي، لأنني تصورت بشكل باطني لا إرادي بأن وضعي هو نتيجة لخطأ ما اقترفته بنفسه. شعرت بالذنب، كما أنني لم أشعر بالراحة

لفكرة منح الحب والتعاطف لنفسي والآخرين، وعلى الخصوص أولئك الذين عاملوني بازدراء أو تجاهلوني أو أسأؤوا لي.

اختبأت خلف الستائر عندما شاهدت شرطي الدورية يتقدم باتجاه باب منزلنا يحمل سلة غذائية كبيرة بين ذراعيه، وطلبت من والدتي فتح الباب له، أصابني الرعب.. كان عندي شعور أو حدس بأننا كنا على قائمة المحتاجين ذلك العام.. لم أكن أرغب في أن أكون واحداً من الفقراء المعوزين للغذاء، راقبت والدتي وهي ترفع الأغلفة عن السلة التي قمت بتعبئتها بنفسي مع الآخرين سابقاً.. أكدت لي السلة أننا فقراء جداً. لم أكن أرغب في الاعتماد على الآخرين إلا أننا لم نكن لنحظى بديك رومي على مائدة عشاء عيد الميلاد ما لم نتلقى تلك المساعدة في ذلك العام. لم يعرف أحد من أفراد أسرتي بأني ساعدت أفراد الشرطة على إعداد تلك السلال. ولقد شعرت بالسعادة فيما بعد.. لا لأنني حُزمت السلة بنفسي، بل لأن السعادة التي شاهدتها على وجه أمي وأبي ذكرتني بمعنى تلك السلة للكثيرين. من النادر أن يتواجد المرء في موقع المُحسن الكريم وفي موقع المُحسن إليه في الوقت ذاته. عرفتُ في تلك المناسبة بالذات بهجة العطاء وفرحة التلقي في الآن ذاته، وقد كان مزيجاً قوياً لكنني لم أكن أعرف آنذاك كم كان يمكن لتلك الحادثة أن تغيدني في حياتي فيما بعد.

انتظمت في برنامج كشافة الشرطة طوال فترة المدرسة الثانوية، من الرابعة عشرة حتى السابعة عشرة من عمري، وقد منحني هذا حساً بوجود الهدف وشعوراً بالانتماء فأنتج ذلك مع مداومتي على التمرين على سحر روث استقراراً نفسياً كاملاً في داخلي، وأدركت بالتجربة أن الخوف والقلق لا يفيدانني بأي حال، وتمكنت مع الوقت تدريجياً من مراقبة أفكار ومشاغري عن بعد دون الاستجابة لها كعبد. لم أكن واثقاً في ذلك الوقت من هوية الشخص الذي كنت أتحوّل إليه، لكنني عرفت أنني لم أعد ذاك الطفل الذي كنت. تحولت عائلتي الحبيبة لعائلتي التي لا تمثل لي سوى جرحاً بليغاً مؤلماً لا يندمل، وعرفت في ذلك الوقت أيضاً أنني لست أبي ولا أمي ولا أخي ولا أختي.. أنا أنا. أدركت أن أفعالهم لا تنتمي لي ولا تُعبّر عني، وكان لأخويّ الأهمها الخاصة وصراعاتهما

الخاصة مع الحياة وقديريهما اللذين كان لا بد من تحقيقهما. قررت أختي غير الشقيقة التي تكبرني بتسعة أعوام عدم إكمال دراستها الثانوية وتزوجت باكراً وانتقلت لتعيش في مكان بعيد وحاربت لجمع المستحيلات مع بعضها. ماتت عام 2011 بسبب مضاعفات صحية لاختلال وظائفها المناعية وسمنتها الزائدة. أما أخي الذي كان ذكياً جداً في صغره، فقد صارح المجتمع والدنيا لأنه كان غير سوي في ظروف اجتماعية لم تكن تقبل ذلك. آذاه الناس لاختلافه، فغادر لانكاستر عندما كنت في الثانوية فشعرت بمزيد من الوحدة خلال السنتين الأخيرتين منها، وتحولت لانكاستر إلى البلدة التي سأتركها على أي حال لا المكان الذي سأبقى فيه إلى الأبد. لم يكن مستقبلي كئيباً رتيباً بل كنت أراه بعين فكري ومخيلتي براقاً حياً كل ليلة. أمنت كلياً بما تعلمته من روث وملأنتي ثقة مطلقة بأن مستقبلي هذا يحثّ الخطى للقائي.

أدركت مع بلوغي عامي الأخير في الثانوية أنني مضطر لبدء التفكير بالجامعة لكنني لم أعرف الخطوة الأولى، وافترض والداي أن الأمر سيتحقق بطريقة ما وحده طالما عبرت عن رغبتي به، لم يفتح مرشدي الخاص في المدرسة الموضوع معي لأنه لم يكن يرى في ذلك احتمالاً وارداً، وكان لقائنا سريعاً، نصحني ببعض المعاهد المهنية بسرعة، ولم أكن أعلم قبل ذلك اليوم بوجود مستشار خاص في المدرسة لهذا الشأن. كانت درجاتي متوسطة رغم تفوقي في بعض المواد الدراسية لأنني لم أكن مدركاً لحاجتي إلى الدرجات العالية لدخول الجامعة، لم تكن المدرسة بالنسبة لي إلا مكاناً يجب التواجد فيه وعدم التغيب عنه، ورغم رغبتي في التفوق إلا أنني لم أجِد في حياتي مثلاً أو قدوة أو شخصاً يعلمني كيف أدرس أو ماذا أحضر لأنجح بتفوق في مدرستي. لم يقدم أحد من أفراد عائلتي يد المساعدة لإنجاز فروضي المنزلية ولم يطلبوا مني ذلك، ورغم أن والدتي شجعتني دوماً إلا أنني لم أكن أعرف كيفية حصولي على أعلى الدرجات. لم أعرف في حياتي وقتها شخصاً دخل كلية أو جامعة، ولم أكن أملك حتماً ما لا يمكنني من الدخول إليها ولم أعرف كيفية التقدم بطلب لدخولها، ومع ذلك.. كنت متأكداً تماماً وبسذاجة كلية من أنني سأتابع دراستي العام المقبل في الجامعة.

بحثت بعد مقابلتي للمرشد في المدرسة عن مساعدني في التقدم بطلبات الانتساب للجامعة، وكنت أنتظر بدء حصة العلوم أحد الأيام حين لاحظت فتاة جميلة تجلس بجواري وتملاً مجموعة من الأوراق، فسألتها:

"ماذا تفعلين؟ ما كل تلك الأوراق؟" وخشيت أن نكون على وشك تقديم امتحان مفاجئ في العلوم. فرفعت نظرها عن الأوراق وأجابت:

"أنا أملأ طلبات الانتساب للجامعة".

أومأت، وكأنني أعرف مسبقاً ما ذكرته ثم قلت:

"إلى أي جامعة ستنتسبين؟" وحاولت قراءة اسم الجامعة عن ورقتها لكنني لم أفجح.

"UC Irving".

"حقاً؟".

لم أكن أعرف أي شيء عنها لكنني أعرف أنها تقع جنوب لوس أنجلوس.

ضحكت قليلاً وقالت:

"أنا آمل الانتساب إليها، آخر تاريخ لقبول الطلبات يقع في الأسبوع القادم ولم أرسل الأوراق بعد. لن أتمكن مطلقاً من دخولها".

ولوحت بيديها فوق الأوراق.

أصابني الصمت بينما تسارعت أفكاري.. مواعيد نهائية؟ لم أكن أملك أدنى فكرة عن ذلك، لم أعرف أي شيء عن تلك التفاصيل، فساورني قليل من الشك. هل سأتمكن من إرسال طلباتي قبل حلول المواعيد النهائية؟

"أي كلية سترتاد؟".

فكرت قليلاً بإجابة مناسبة ثم قلت:

"سأدرس في كليتك نفسها". لا أعرف سبب قلبي لذلك لكنها الكلية الوحيدة التي خطرت في بالي ساعتها. لم أكن أعرف أشياء كثيرة عنها لكنني كنت أعرف عنها ما لا أعرفه عن أي كلية أخرى. كنت أعرف أنني مضطر لارتياذ الجامعة لأصبح طبيباً لكن أحداً لم يخبرني بوجود مواعيد نهائية وأكواماً من الطلبات لملئها.

قالت الفتاة: "أعتقد أنك ملأت طلباتك وانتهيت من الأمر".

حملت بها لهنيهة ثم كذبت قائلاً: "حسناً.. لا، لم أحصل على الأوراق بعد، اعتقدت أن ذلك سيجري في الشهر المقبل وكنت في انتظارها".

وتماماً كلاعب خفة ماهر، سحبت الفتاة مجموعة جديدة من الطلبات الفارغة وقالت: "إنه يوم حظك، لدي مجموعة إضافية، هل تريدها؟".

"بالطبع، أشكرك..". أخذت منها الأوراق وحاولت ملأها مساءً في البيت، أدركت أنني بحاجة لنسخ عن أوراق الثبوتية ورسائل توصيات وأوراق رسمية عن ضرائب والدي. ركضت خلال الأيام الثلاثة التالية من مكان إلى مكان محاولاً تجميع كل ما أحতاجه ثم ملأت ورقة أخرى لطلب مساعدة مالية لدراستي وأملت حصولي على واحدة تكفي لارتياذ كلية أحلامي. كان هذا هو الوقت الذي أمعنت فيه النظر في درجاتي ومعدلي الدراسي وقارنته بمعدلات أولئك الذين قبلوا بالفعل وعرفت أنني لن أقبل أبداً. بم كنت أفكر؟ أدركت أن سحر روث لن يفلح في دفعي لدخول الجامعة، بالإضافة لافتقاري للمال اللازم لدفع رسم التسجيل الجامعي. لكنني أرسلت الأوراق بأية حال وعندما عدت للمنزل، جلست على سريرتي وفكرت بروث وكل ما تعلمته منها، هل يمكن لسحرها أن ينجح؟ ولهذا.. داومت كل ليلة بعدها على الجلوس وتصور رسالة القبول بين يدي. كانت جامعة إرفن هي الجامعة الوحيدة التي قدمت أوراقني إليها، ولم أتلق منها

أي خبر طوال الأشهر اللاحقة، وخلال تلك الأشهر انتقلنا مرتين، ولهذا.. حمل الردّ على طلبتي عدة عناوين مما يعني أنه انتقل ورأيت من مكان إلى آخر. حملت المغلف السميكة إلى غرفتي وجلست على سريري. تنفست بعمق عدة مرات وأدركت أن روث كانت على حقّ. لقد مارست تدريباتي كل يوم على مدى أعوام، وتقدمت بطلبي للكلية.. وها هو المغلف في يدي، تمنعت فيه ورأيت نفسي في ردائي الأبيض، إنها الخطوة التالية في خطة الكون لجعلي طبيباً، ولهذا.. لم يخامرني أدنى قدر من الشك حول مستقبلي وأنا أفتح المغلف وأخرج الأوراق من داخله.

تهانينا على قبولك في جامعة إرفن في كاليفورنيا.

لقد حل مستقبلي، نعم.. تنقل عدة مرات عبر البريد، سافر خلفي من عنوان إلى آخر لكنه لاحقني ووجدني أخيراً... تمتت هامساً:

"شكراً لك يا روث، وداعاً يا لانكاستر".

لقد قبلتُ، ورفعت بشكل ملحوظ أدائي الدراسي قبيل التخرج من الثانوية بشكل مثير للدهشة مما حدا بالجهات المعنية بمنحي بعض المنح الدراسية وما يكفي من المساعدة المالية لدفع تكاليف المحاضرات والسكن والطعام. استطعت الذهاب للجامعة.. أصبحت حراً أخيراً.

ما زلت حتى اليوم أتصور ما أريد من الحياة، أرى كل ما أريد من خلال نافذة في عقلي دون أن تكون الصور واضحة كل مرة، ولهذا أثق بشكل أعمى بأن ما أريده سيظهر في تلك المرأة صافياً كالبرلنت حين يحين الأوان. أدركت أيضاً مع مرور الوقت أن عملية تحقق الأفكار لا تسير بشكل متتال مرتب كما أرتبها في ذهني، ولا تتحقق بشكل مطابق للجدول الزمني الذي رسمته أو حسب ما أراه منطقياً ومناسباً، لكنني أدركت أن كل ما أتصوره يتحقق، مهما طال الزمن، وأن بعض الأمور لا تتحقق لأن غيابها أفضل من وجودها، حتى لو لم أكن أعتقد ذلك. ومع مرور العقود التالية من حياتي تعلمت أن الإيمان

بالحصيلة النهائية للأمور أفضل من التعلق بالحصيلة ذاتها، وتعلمت من خلال أخطائي وأحزاني وخيباتي أنه ينبغي على الفرد أن يكون شديد الحرص والحذر حيال ما يريد تجسيده حوله وما يرغبه، كما عرفت القوة الرهيبة والهائلة المنطوية داخل سرائرنا.

لم أؤمن فيما سبق بكيان سام إلهي يقرر ويفضّل الناس بعضهم عن بعض ويهب العطايا ويحقق أمانهم حسب آرائه، وقد شهدت بنفسي مرّات عديدة عبثية وتعسّف الظروف حين يلاقي شخص طيب ورائع للغاية ميتةً شنيعةً ومفاجئةً مثلاً، كما شاهدت أناساً لنيمين وأشراراً يزدهرون ويعمّرون بلا أمراض. ولكن.. ولأنني أؤمن بأننا نملك القدرة على تغيير الطاقة الكامنة فينا، فإني متأكد تماماً من أننا نستطيع تغيير حال أدمغتنا أو منظرنا وبالتالي ردود أفعالنا وأقدارنا في النهاية. هذا هو ما تعلمته من سحر روث. يمكننا استعمال طاقة أدمغتنا وقلوبنا لخلق أي شيء نريده، وليس هذا بالأمر السهل، بل يحتاج إلى الكثير من العمل الدؤوب والاجتهاد الحثيث والعزم لتحقيق لما نبتغيه. لم أتناول حبة سحرية حولتني إلى جراح أعصاب لكنني تعلمت خلال مراهقتي أنني أملك الخيار في كيفية استعمال ذهني وكيفية استجابتي للأحداث التي تدور من حولي، وأدركت لاحقاً أنني أملك الخيار في كيفية استعمال قلبي للارتباط بالمحيطين بي. لا أعتقد بوجود قانون فيزيائي يفسر القوة الهائلة الناتجة عن استعمال القلب والدماغ معاً لكنني سأذكر دائماً قانون الديناميكا الحرارية الأول الذي حفظناه من دروس العلوم: الطاقة لا تفنى ولا تخلق من العدم، لكنها تتغير من حال إلى حال وتنتقل من مكان إلى آخر.. إنها الهبة التي مُنحناها جميعاً.

طاقة الكون كامنة فينا، مختبئة داخل غبار النجوم الذي يكوّننا، كل قوة الخلق والنمو والتطور، تلك القوة الخلابة البسيطة والمتزامنة مع كل شيء آخر والتي تستطيع الانتقال من شخص إلى آخر ومن مكان إلى آخر. لقد تلقيت من روث الدروس الأولى وتكفلت الحياة بتعليمي الدروس الباقية، وقد أمضيت عدة سنوات في اختبار ما تعلمته داخل متجر السحر، لكن كل تلك المعلومات اختُصرت إلى حقيقة واحدة نهائية بسيطة وغامضة في الوقت نفسه، ألا وهي

أننا قادرون على دراسة كل لغز من ألغاز الدماغ لكن لغزه الأكبر والأهم هو قدرته على التغيّر والتحوّل.

تمنيت لو أنني صوّرت دماغي في سن الثانية عشرة ثم مرة أخرى في الثامنة عشرة ومجدداً بعد كل تجربة قاسية ودرس مؤلم اضطر دماغي لتفهمها بعد سنين.. لقد رحلت إلى الجامعة بدماغ مختلف، وقد أثبتت الدراسات أن التأمل الشديد يطور القدرة على التركيز والحفظ ودراسة القضايا المعقدة. هل كان لي أن أذهب إلى الجامعة وأدرس الطب ما لم ألتق بروث؟ على الأغلب لا. هل كان لي أن أنجح في الجامعة لو لم أتحضر ذهنياً لصرامة السنوات الاثنتي عشرة اللاحقة من دراستي؟ قطعاً لا.

نحن نتغير عندما تتغير أدمغتنا وهذه حقيقة علمية أثبتتها الدراسات، لكن الحقيقة الأعظم هي أن كل شيء يتغير من حولنا حين تتغير قلوبنا، ولا تقتصر تلك التغييرات على منظورنا للعالم بل حتى على الكيفية والصورة التي يراها بها ذلك العالم والطريقة التي يعاملنا بها.

الفصل السابع

غير مقبول

يتوضع جذع الدماغ تحت المخ وأمام المخيخ تماماً، وإذا تصورت المخ على أنه نجم موسيقي مشهور على خشبة مسرح فإن المخيخ سيكون مصمم رقصاته، أي الفرد الذي يقرر كل حركة تصدر عنه، وسيكون جذع الدماغ المشرف المسؤول عن تنسيق كل المعلومات المطلوبة لإنجاح سير الحفلة وعلى حصول النجم على كل ما يريده ليبقى نجماً على الدوام. جذع الدماغ أصغر بكثير من المخ لكنه مسؤول عن كل الوظائف الحيوية، كما أنه الطريق السريع الذي يحمل ملايين الرسائل المتبادلة بين الدماغ وأعضاء الجسم.

يبدأ الدماغ بالتشكّل بعد ثلاثة أسابيع من لحظة الحمل بالجنين تقريباً، تتخلق أولى المسارات العصبية وتولد أول نقطة اشتباك في الجهاز العصبي المركزي لتسمح للجنين بالقيام بحركته الأولى. يتطور جذر الدماغ فيما بعد ويُنظّم الوظائف الحيوية كمعدل ضربات القلب والتنفس وضغط الدم، أي أنه يجهز الجسم للحياة خارج الرحم. أما المناطق العليا من الدماغ كالجهاز الحوفي والقشرة اللحائية فتكون في وضعها البدائي حين الولادة، لتسمح للوقت والخبرة والبيئة بمنحها شكلها النهائي، لكن تشكيل تلك المناطق وتطويرها عبر الخبرات الذاتية لا ينتهي أبداً، مما يعني أن الدماغ لا يتوقف عن التطور مطلقاً.. وأن كل تجربة حياتية مهمة جداً في مسيرة تطور كل فرد منّا.

دخلت نويل إلى غرفة الطوارئ في المشفى بسبب صداع دائم وحالة دوار وإقياء برفقة زوجها وطفليها: فتاة في الرابعة من العمر وصبي في السادسة.

كان الزوجان في بداية الثلاثينات من العمر وكانت نويل حاملاً في الشهر الثامن. الصداع والدوار أعراض طبيعية في الفترة الأولى من الحمل، لكنها كانت في الفترة الأخيرة من حملها بالإضافة لترافق ذلك مع ارتفاع في ضغط الدم مما قد يعني إصابتها بتسمم الحمل، وهي حالة خطيرة جداً على الأم والجنين معاً. كنت موجوداً في المستشفى ذلك الصباح صدفة حين وصلت العائلة، علمتُ أن الممرضين طلبوا حضور طبيب التوليد لكن نويل انهارت في غرفة العمليات وتوقفت عن الاستجابة للمنبهات.

وجدتها موصولة بالأنابيب حين وصلت إليها، وكان المختصون يقومون بعمل صورة دماغية لها، وأثناء ذلك.. أصيبت إشارات الحوية بالجنون ووصل ضغط دمها إلى حالة غير مستقرة. نظرت إلى الصور الدماغية فأدركت أن ما كان في الماضي جذر دماغها تحول الآن إلى كتلة دموية كبيرة، لقد أصيبت بنزف دموي في جذر الدماغ، وهو نزف لا ينجو منه الناس عادة. حاولنا إنعاشها في غرفة التصوير الشعاعي مباشرة لكني لم آمل بالكثير، لم أجد أي استجابات من جذر الدماغ لتنبيهاتي وكان بؤبؤا عينيها ثابتين ومتوسعين تماماً.. لقد توقفت عن الاستجابة نهائياً.

كان جسمها على قيد الحياة لكن دماغها كان ميتاً كلياً.

طلبت من المسعفين تثبيت ضغط دمها واتصلت بغرفة العمليات وأمرتهم بتجهيزها فوراً، صرخت في الممرضات:

"اتصلوا بجراح توليد في الحال.. لا بد من توليد هذا الطفل حالاً، وإلا سيموت".

ركضت بجانب سريرها عبر الممرات باتجاه غرفة العمليات، صليت لحضور أحد أطباء التوليد بالسرعة المطلوبة، وجدت ممرضي التوليد جاهزين لعملية قيصرية سريعة طارئة، دفعنا سريرها إلى الداخل فوجدنا طبيب الأطفال لكننا لم نجد طبيب توليد.. هبط ضغط دمها فجأة بسرعة واضطربت نبضات

قلبها، وفجأة نظر الجميع باتجاهي.. كاد الوقت ينفذ.. مضى عشرون عاماً على إجرائي لجراحة قيصرية أثناء سنوات تدريبي على الجراحة العامة، لكنني كنت الجراح الوحيد الموجود في المكان، وما لم أفعل شيئاً فإن الجنين سيموت.. توجب عليّ إجراء جراحة قيصرية طارئة وتوليد الطفل. لم نملك الوقت للتحضيرات المعتادة ولا للتردد، فقد مات دماغ نويل وعرفت أننا لن نتمكن من المحافظة على ضغط دمها أطول من ذلك بهذا الشكل.

وضعتها على طاولة الجراحة وخدرناها ثم هيأتها الممرضات للجراحة، نظرت حولها في تلك اللحظة متمنياً وصول جراح التوليد، بدأ قلبها بالتردد فنظر طبيب التخدير إليّ وقال: "ضغطها ينخفض ولا يمكننا إضافة المزيد من المخدر لها، يجب أن تبدأ الجراحة في الحال". شعرت بالعرق على جبيني فجأة فأدركت أنني أتنفس بسرعة.. كنت خائفاً. فأغلقت جفني وبدأت بالتنفس ببطء.. شهيق وزفير.. شهيق وزفير.. عدت طفلاً في متجر السحر من جديد. تناولت مشروطاً وشققت جرحاً في بطنها، ثم في رحمها، ثم مددت يدي داخل جسدها وأخرجت الجنين. وجدت على جبينه جرحاً سطحياً صغيراً بسبب المشروط الذي استعملته لفتح الرحم، عدا عن ذلك.. لم يكن هناك أي مشكلة، كان حياً يرزق وبصحة جيدة. وضعت بين يدي طبيب الأطفال ثم قطعت الحبل السري ثم أخطت جرحها. وتوقف قلبها عن الخفقان بعد لحظات من ولادة طفلها.

في كلية الطب، لا يعلمونك كيف تخبر رجلاً وطفلين صغيرين أن الزوجة والأم قد رحلت. لا يمكن لك أن تكون إنساناً دون أن تشعر بألم الأقرباء.. بموجات الحزن المتلاحقة والغضب والإنكار واليأس. لهذا يقول معظم الأطباء ببساطة: "فعلت كل ما في استطاعتي، أنا آسف لخسارتكم". ثم يبتعدون بسرعة ويتركون مهمة جمع شظايا ذاك الإنسان المكسور للمساعدين والممرضين. لا توجد كلمة واحدة مناسبة لإخبار زوج بوفاة زوجته.. لا أسف يمكنه تسكين ألم الطفل الذي أدرك للتو بأن أمه لن تصنع له بعد الآن شطيرة تسكن جوعه، ولن تقرأ له بعد الآن قصة قبل النوم، لن تقبله ولن تداعبه وتراضيه بعد وقوعه أرضاً بعد الآن.

انتحيت بزوج نويل جانباً وأخبرته بما جرى فأغمض عينيه ومدّ ذراعيه إلى الأمام باتجاهي ثم نشج بصوت رهيب لا يولد سوى من الألم واليأس. لم أتمكن من فعل أي شيء عدا احتضانه أثناء بكائه، انتحب الطفلان عندما شاهدا بكاء والدهما، وفعلت كل ما بوسعي للسماح لتلك العائلة بالحزن قدر الإمكان وحاولت إخبار الزوج عن الطفل لكنه لم يكن قادراً على سماع أي شيء بعد خبر وفاة زوجته.

لاحظت بعد جلوسي معهم بفترة أن مقدمة رائي الأبيض كانت ملوثة بنقاط دم متناثرة هنا وهناك.. هل هو دم نويل؟ أم أنه دم الجنين؟ هل يهم ذلك؟ من الصعب جداً الاحتفال بولادة حين يفجعك الموت، ولكن.. أليس هذا ما يحصل في الحياة عموماً؟ نولد ونموت وكل ما يجري بين تلك اللحظتين يبدو عشوائياً متحدياً كل منطق في هذا الكون، والخيار الوحيد الذي نملكه بين أيدينا هي الطريقة التي نتفاعل بها مع كل لحظة ثمينة تُمنح لنا من العمر.

في تلك اللحظة، لم يوجد شيء سوى الألم، وكان علي الاختيار ما بين الجلوس برفقتهم لمواساتهم أو الهروب مبتعداً كما يفعل الجميع.

لكني بقيت، لا أدري كم من الوقت، لكنني متأكد من أنني بقيت لأطول فترة ممكنة.

مات دماغ نويل فتوقفت كل النشاطات الحيوية التي لا يفكر بها أي واحد منا. وها هو ولدها الذي بدأ دماغه باختبار حقيقة العالم لأول مرة، ها هي العشوائية والاعتباطية من جديد، تجاربنا وبيئاتنا تُشكلنا جميعاً، وقد أملت في تلك اللحظة أن تتعافى تلك الأسرة من هذه المأساة وألا يحمل هذا الطفل أي جراح لامرئية من حادثة ولادته وموت والدته المفاجئ.

لم تكن حالة الوفاة الأولى التي شهدتها كطبيب ولم تكن الأخيرة، كما أنها لم تكن المرة الأولى التي ابتعدت فيها عن عائلة حزينة تكلّى والدماء تلوث مئزري.

وقع ذلك أول مرة حين كنت في طريقي إلى الجامعة، وكانت تلك العائلة عائلتي أنا.

قابل والداي خبر قبولي في جامعة إرفن بالحبور والحماس وعدم التصديق، فقد تحدثت عن رغبتني في الدراسة الجامعية لكنني لا أعتقد بأنهم ربطوا رغبتني بواقع قبولي ورحيلي. اختفى والدي مع اقتراب موعد سفري، إذ كان يرحل عن المنزل كلما اقترب حدوث شيء مهم على صعيد أسرتنا لعدم قدرته على تحمل التوتر الناجم عن ذلك، كان يختار عامداً تخفيف حدة خوفه وقلقه الداخلي بالمخدرات والويسكي. وفي الليلة السابقة لرحيلي، تجوّلت في أرجاء شقتنا الصغيرة بحماس يشوبه القلق، وسعت حقيبتني القماشية السمكية كل مقتنياتي وانتهيت من حزم أغراضي مع حلول موعد النوم وبت جاهزاً للرحيل صباح اليوم التالي. نمت مرتدياً ثيابي التي سأسافر بها كي لا أضطر لحزم منامتي في الصباح وكي لا أنسى أي شيء، لم أشعر بأدنى قدر من الحزن أو العاطفة أو الحنين للماضي، كنت جاهزاً للمغادرة بكل معنى الكلمة، وقد مضى أكثر من أسبوع على غياب والدي، ولم أكن متأكداً من عودته قبل رحيلي رغم أنه كان يعرف تماماً تاريخ سفري وساعته.

همست لنفسي بأني لا أكثرث.. لكنني أكثرثت. أحببت والدي بزلاته وأخطائه، كان مرحاً وذكياً ولطيف المعشر حين يصحو من ثملته، كان والدي.

سمعت صراخاً وطرقاً ثم مزيداً من الصراخ حوالي الثالثة صباحاً، كان والدي المخمور يطرق الباب ويصرخ طالباً الدخول، وكان الباب موصداً في وجهه.

تعثرت والدتي خارجة من غرفتها وهي ترتدي منزر الحمام وشاهدت الرعب في وجهها، لم تتقدم لفتح الباب ووقفت تحمق فيه بعينين جاحظتين، غطت أذنيها بيديها ولاحظت ارتجافها واهتزازها، وتجادلنا حينها في احتمال اتصالنا بالشرطة.

ازدادت حدة الصياح في الخارج وعرفت أن الوقت لن يطول حتى يتصل شخص آخر غيرنا بالشرطة، ولم يبق على موعد مغادرتي سوى عدة ساعات ولم أرغب بالتخلف عن حافلتني لاضطراري لإمضاء ما تبقى من الليلة مع عناصر الشرطة الذين سيحضرون لاعتقال والدي. خطوت نحو الباب خطوة في اللحظة التي تمكن فيها والدي من كسر الباب الخشبي الرقيق بقدمه، ثم مدّ ذراعه وأدار المقبض للدخول.

دخل مزجراً صارخاً أكثر من ذي قبل وناظراً باتجاهي مباشرة:

"اللعة، إياكم ومنعي من دخول بيتي مرة أخرى".

كان وجهه ملتوياً من شدة الألم وعيناه غائمتان متحفظتان، تراجعت والدتي إلى زاوية الغرفة مما لفت انتباهه.

"لم امتنع عن فتح الباب بحق الجحيم؟" وتقدم باتجاهها فتراجعت أكثر إلى أن التصق ظهرها بالجدار، لم أشاهد والدي غاضباً إلى هذه الدرجة من قبل، وكان يغيب عن الوعي حين يثمل عادة ولم يكن عنيفاً معنا من قبل.

"لا تقترب أكثر..". قلت بلا وعي، ولا أعرف إن كان قد سمعني أم لا، اقترب خطوة أخرى من والدتي التي بدت كعصفور مرتعش صغير في ثوب استحمامها الكبير، لم أواجهه من قبل، وقد تواطئنا جميعاً على قبول سلوكه وسكره، لكن هذا لم يعد مقبولاً بعد الآن.. ليس هذه المرة.

وقفت بينهما وصرخت للفت انتباهه:

"سأضطر لضربك إذا اقتربت خطوة واحدة أخرى، سأفعلها.. سأفعلها حقاً".

تجاهلني وتقدم خطوة أخرى باتجاه والدتي، بدا الأمر لي وكأنني أشاهد شريطاً بالحركة البطيئة أو كما لو كنت أحاول الحركة بسرعة تحت الماء..

تقدمت خطوة ورفعت يدي، شددت قبضتي وسددت لكمة نحو أنفه، سمعت صوت انكسار العظم وشعرت به، ثم سقط أرضاً، ثقيلاً كشجرة ضخمة.

صرخت والدتي وشاهدته يسقط ووجهه يقابل الأرض والدم يتفجر منه وينتشر في كل مكان، شممت رائحة الكحول الممزوج برائحة معدنية نحاسية طازجة وعرفت أنها رائحة الدماء.

الكثير الكثير منه.

ارتفعت السوائل من معدتي حتى حنجرتي وغابني الغثيان، ترنحت في طريقي نحو الحمام ووصلت في الوقت المناسب تماماً قبل انفجار القيء من فمي. جنوت على ركبتني أمام المرحاض وتمتعت لأول مرة بأقرب شيء أعرفه للدعاء قائلاً: "ساعدني.." مسحت فمي بكمي وعدت إلى غرفة الجلوس فوجدت أبي ملقى على الأرض بلا حراك كما تركته.. هل قتلته؟ قلبته لأرى وجهه فوجدته مغطى بالدماء والأوساخ من أنفه.. لم أشاهد في حياتي كمية دماء كهذه.. كان أنفه ملتوياً إلى اليسار بشكل رهيب.. يا لها من فوضى.. يا لها من فوضى رهيبة.. ماذا فعلت..

أنّ والدي قليلاً فوضعت رأسه في حجري ريثما يستعيد وعيه، ولم أعرف أنني كنت أبكي إلى أن سقطت دموعي فوق كتلة دموية متخثرة فوق خدّه. لقد دفعته لكمتي للصحو، فنظر إلى وجهي ببطء وتأملي بطريقة لم أعدها ثم قال:

"لا بأس يا بني.. لا بأس".

لم تتوقف أُمي عن النواح لكني مسح عيناوي وتمالكت نفسي. عرفت في تلك اللحظة أن كل شيء قد تغير بيني وبين والدي، وإلى الأبد.

مضى الوقت وأصبحت الساعة السادسة صباحاً وحافلتني تغادر في السابعة والنصف. صحا والدي تماماً وجلس لتناول القهوة وقد حشر بعد اللفائف القطنية في أنفه فيما راحت والدتي تعتني به. نظر باتجاهي مجدداً ثم نظر إلى

الأسفل، وقالت والدتي إنها لا تريد للحافلة أن تفوتني، فقبلتهما في تلك اللحظة الغربية من حياتنا وعانقتهما وخرجت من الباب المكسور وتركت البيت باتجاه الجامعة. لاحظت أثناء قطعي للمسافة ما بين البيت وسيارة صديقي الذي أوصلني للمحطة بضع نقاط من الدماء على مقدمة سروالي، لكن الوقت تأخر كثيراً على العودة لاستبداله، كما أن ثيابي كلها كانت في الحقيبة بأي حال. لا أدري كيف ودّع بقية الشبان والشابات ذويهم للسفر إلى جامعاتهم للمرة الأولى، لكنني كنت متأكداً من أنهم لم يحظوا أبداً بوداع كهذا.

ومع أنني قبلت في الجامعة، إلا أنني لم أكن مؤهلاً ولا جاهزاً لمزاولة عملي الذي كان يأخذ كل وقتي بالإضافة إلى حضور صفوف الجامعة والدراسة. كما اشتركت في فريق التجديف بالقوارب النهرية وصممت على نيل السترة الرياضية التي لا ينالها سوى من يستحقها من أعضاء النوادي الرياضية. وعاماً بعد عام، بدا لي وللجميع بأني أدرس أكثر منهم جميعاً لنيل درجات متدنية تؤهلني للنجاح بالكاد. استقلت الحافلة من إرفن إلى لانكاستر العديد من المرات خلال السنوات الأولى من دراستي الجامعية، وركبت سيارات الغرباء في بعض الأحيان متطفلاً على أي سيارة تقف لي على الطريق. ومع أنني اجتهدت في دراستي وفعلت كل ما بوسعي إلا أن الأسابيع التي تركت فيها الجامعة للاعتناء بوالدتي أو لمساعدة والدي أو لمساعدتهما في تجاوز محنة ألمت بهما أنهكتني دراسياً. وعندما آن أوان التسجيل في كلية الطب بعد السنة التحضيرية في الجامعة لم أحصل سوى على درجة منخفضة جداً ولم يظهر بأني سأخرج. فشلت بشكل مريع نسبة لبقية الطلاب. وحصلت على درجة 2,5 بينما كنت أحتاج لمعدل أدنى لا يقل عن 3,8 لدخول كلية الطب.

لم يتراجع إيماني بانتهائي كطبيب، ولم يكن حلمي ذلك حلماً متخيلاً، بل بدا لي حقيقياً كما لو كنت أرى نفسي في مرآة، مرتدياً لمئزري الأبيض. لقد رسمت وعززت تلك الصورة في ذهني لسبع سنين مما جعل التراجع عن تحقيقها واقعاً أمراً غير مقبول، ومع أن مستقبلي كطبيب كان واقعاً حياً في ذهني إلا أن رفاقي اضطروا إلى تذكيري بأن درجاتي لا تؤهلني مطلقاً لتلك الكلية. لسوء

الحظ، فإن كثيراً من الناس يسمحون للآخرين بتقرير ما يستطيعونه وما لا يستطيعونه، وكانت تلك هدية أخرى من هدايا روث لي.. القدرة على الإيمان بالذات وقبول أن الناس لن يرغبوا جميعاً في نجاحي أو في إنجازي لأشياء عظيمة. وكيف يمكن للفرد أن يقبل بتلك الحقيقة دون أن يواجهها.

بدأت فترة التقدم بالطلبات لدخول كلية الطب في نهاية السنة الأولى في الجامعة، فاكشفت أن أحد الأوراق المطلوبة هي رسالة توصية تكتبها لجنة رسمية من كلية الطب بعد مقابلة شخصية، فذهبت إلى سكرتارية اللجنة لتعيين موعد المقابلة.

ما زالت تلك الذكرى جلية في عقلي بعد مرور أكثر من ربع قرن عليها، حينما سحبت الموظفة ملفي وألقت عليه نظرة خاطفة ثم رمقتني بتهكم وعادت لتصفح الأوراق. في النهاية، أغلقت الملف وقالت:

"لن أحدد موعداً لك لأنك لن تتجح مطلقاً بدخول كلية الطب. لن تكون تلك المقابلة سوى مضيعة لوقت الجميع".

وقفت أمامها مصعوقاً، كان لا بد لي من الحصول على ورقة من تلك اللجنة، فهي الخطوة الأولى التي ستليها خطوات عديدة كثيرة على قائمة الأمور التي سيتوجب علي فعلها للالتحاق بكلية الطب. لا بد لي بعد الحصول على هذه الورقة من ملء أوراق التسجيل وكتابة بعض المقالات ثم انتظار وصول دعوة من كلية الطب لإجراء مقابلة. بدت الأمور لي وكأنني أمام حلقات متحركة متداخلة، وأني مضطر إلى القيام بقفزة مستحيلة ما بينها، وكل ما كنت أحتاجه هو الفرصة المناسبة للقيام بذلك.

تنفست بعمق ثم قلت:

"أنا أقدر رأيك، لكنني أريد تعيين موعد".

"لا يمكنني فعل ذلك، فأنت لا تملك المؤهلات اللازمة". ثم نقرت

بإصبعها على الملف.

كنت مدركاً في تلك اللحظة لأني أكبر وأهم بكثير مما قيل عني في ذلك الملف، وأنه لا يمثلني، إنه لا يحتوي على ورقة تشير لعملي خمسة وعشرين ساعة في الأسبوع إلى جانب دراستي، ولا يشير لعدد المرات التي اضطررت فيها لمغادرة الجامعة للعودة إلى المنزل ومساعدة والديّ خلال مرورهما بأزمة ما. إنه لا يحتوي على أية إشارة لاستيقاظي في الخامسة من صباح كل يوم، يومياً بلا إجازات.. إنه لا يحتوي سوى على شيء واحد.. وهي معدل درجاتي، وإذا كان هذا المعيار الوحيد اللازم للحصول على رسالة توصية من اللجنة فلا بد أن تكون الوظيفة على حق، لن أتمكن بهذه الورقة من الوصول إلى كلية الطب أبداً، لكن الملف لم يكن يمثلني.

لقد تعلمت ذلك من روث، وتكفلت التدريبات المتواصلة بدفعي لاكتشاف هذه الحقيقة بنفسي، كما أنها علمتني بأني غير مضطر إلى قبول ما لا أريد قبوله، لا بد من الكفاح للانتصار لنفسي، لقد تغلبت على الكثير من العوائق ولن أقبل بأن توقفني لجنة عن المضي قدماً في مخططي، لا بد من الحديث معهم.

"أنا لا أقبل بهذا".

"عذراً؟".

"لن أ غادر قبل الحصول على موعد لمقابلة اللجنة". قلت بصوت منخفض هادئ وثابت ونظرت مباشرة في عينيها.

"أنا.. لا أستطيع القيام بذلك حقاً". كررت كلامها.

لكنني شعرت هذه المرة بشيء من التردد في كلامها.. بفسحة من الأمل فقلت: "اسمعي، أعرف أنني لا أملك المؤهلات وأعرف أنك لا تفعلين هذا عادة لكنك قادرة على فعله، كل ما أحтаجه هو فرصة".

نفت بحركة من رأسها من جديد.

"لا أريد هدر وقتك ووقت اللجنة ولا أحاول إرباكك، لكنني لن أغادر حتى أحصل على موعد ولا أكثرث للوقت الذي سأمضيه هنا في انتظار حدوث ذلك، لن أقبل أبداً أن أكون شخصاً فاشلاً خاسراً، لن أقبل بذلك".

لم يتسرب لصوتي أدنى قدر من الغضب وأعتقد أنها سمعت دون شك الاقتناع التام والحقيقة النابضة بكلماتي، فتأملتني حوالي الدقيقة، ثم قالت أخيراً:

"حسناً.. الثلاثاء المقبل، في الساعة الثالثة عصراً".

"أشكرك.. أنا أقدر لك هذا حقاً".

وعندما استدرت لمغادرة المكتب سمعتها تهمس لنفسها: "سيكون هذا مثيراً للاهتمام".

حلّ عميد كلية العلوم البيولوجية بشكل مفاجئ مكان أحد أعضاء اللجنة المعتادين في يوم مقابلي، لا بد أنه كان مهتماً للغاية برؤيتي ولا بد بأن خبر مطالبتي بموعد مع اللجنة قد انتشر بين أعضاء اللجنة.

حيّتني الموظفة بوقار وفتحت لي الباب للدخول لغرفة المقابلة. وفي الداخل، شاهدت ثلاثة أساتذة بما فيهم العميد بوجوه متحجرة يجلسون أمام طاولة مستطيلة في أقصى الغرفة، لم ألمح ابتسامة واحدة، وكان كل منهم يحوز على نسخة من ملفي أمامه، ومقابلهم، كان هناك كرسي وحيد فارغ مخصص لي، ثلاثة ضد واحد.. هذا ليس عادلاً، بالإضافة لأنني لم أكن سوى شاب صغير في العشرين من عمره.

دخلت ونظرت حولي وأدركت أن ما أنا مقبل عليه ليس مقابلة أبداً، بل تحقيقاً أمام لجنة أشبه بمحاكم التفتيش.

وكنّ أنا الكافر الزنديق الذي ستم محاكمته.

"سيد دوتي.." بدأ أحد أعضاء اللجنة بالكلام، وكان أستاذ كرسي في الكيمياء، وهو الصف الذي نجحت فيه بشق النفس وكدت أرسب فيه في الفصل السابق.

"سجلّ حضورك للمحاضرات ناقص، وتشير درجاتك لرسوبك المحتمل جداً مما لا يؤهلك للدخول لكلية الطب. إنه لا يشير لاحتمال تحولك إلى طالب طب ناجح ولا يقدم فكرة عن الالتزام المطلوب ولا الذكاء الضروري لتصبح طبيباً".

"أعتقد أن هذه المقابلة هي مضيعة لوقت الجميع، إلا إن كنت ستقنعنا بالعكس يا سيد دوتي.." قالت عضوة أخرى من أعضاء اللجنة، وهي أستاذة كرسي معروفة بقسوتها مع أني لم أقابلها من قبل، ثم استأنفت:

"أنا أقدر إصرارك لتعيين مقابلة معنا، لكن الأمل في أن نشيد بك لامتهان مهنة لا تملك أدنى فرصة في النجاح بها هو غرور و صلف لا حد له.. كلية الطب مكان لا يدخله سوى أصحاب أعلى الدرجات، بينما لا يشير معدلك بحصولك على أي منها، وأنت تعرف ذلك جيداً".

نظرت إلى عميد الكلية لكنه لم يتفوّه بحرف بل حلق في وجهي باهتمام، ومن الواضح أنه حضر للمراقبة وحسب.

"أريد أن أقول شيئاً".

"عندنا مواعيد أخرى، لذلك أرجو منك الاختصار".

جلست على الكرسي الضيق الذي ذكرني بالكرسي الذي كنت أجلس عليه مقابل روث في متجر السحر، حيث علمتني روث كيف أ منع الظروف من تحديد قدرتي أو تعريف ماهيتي، وعلمتني كيف أ منع الآخرين من تحديد قيمتي، نعم.. كنت أعرف أن درجاتي كارثية لكن الأمر أكبر من أن تحدده الدرجات، تنفست بعمق ثم نهضت.

"من منحكم الحق في تحطيم طموحات الناس؟" سألتهم ثم صمتُ لوهلة قبل أن أتابع: "التقيت طبيباً حين كنت في الصف الرابع الابتدائي، لقد زرع بذرة الأمل في نفسي في أن أصبح طبيباً مثله يوماً ما مع أن الأمر لم يبد محتملاً أبداً لأن أحداً من عائلتي لم يدرس في الجامعات ولم يصبح أي منهم أستاذاً بأي مادة ولم يمتحن أحد منهم الطب بأي حال. وفي الصف الثامن التقيت امرأة علمتني بأن كل شيء ممكن الحدوث حين نؤمن بأنفسنا ونثق بها، حينما نُسكِت الأصوات المتكلمة في رؤوسنا، التي تملي علينا هويتنا بناء على ما وجدنا أنفسنا عليه.. لقد نشأت فقيراً وفعل والداي ما بوسعهما لكنهما كانا يعانيان من الكثير من المشكلات".

تأملت أعضاء الهيئة، كان اثنان منهم ما يزالان متكتفين لكن العميد انحنى إلى الأمام قليلاً وأوماً لي قليلاً برأسه مما يعني أنه طلب مني استئناف الكلام.

"حلمت بهذا معظم حياتي وقد دفعني حلمي وقادني وكان على الدوام الشيء الثابت الوحيد مهما تغيرت الظروف من حولي.. ونعم لم أحظُ دوماً بالدرجات النهائية لكن الكثير مما حصل كان خارجاً عن إرادتي. لقد درست أكثر من معظم المتفوقين وربما مثل بعضهم رغم أن أوراقني لا تُظهر ذلك.. أنا أؤكد لكم أنكم لن تقابلوا شخصاً مصمماً على النجاح في كلية الطب مثلي..".

تأملت الأشخاص الثلاثة الذين يقبضون على مفاتيح مستقبلي بين أيديهم، ولاحظت أن اثنين منهم لم يكونا ينصتان لي كما يبدو فشعرت بالخوف والقلق يجتاحان جسدي للمرة الأولى منذ وقت طويل.. عرفت ذلك الشعور.. إنه حالة حياتي في السنوات الاثنتي عشرة الأولى منها.. تسارعت نبضات قلبي وشعرت وكأنني عدت ذاك الطفل الضائع من جديد وتسلك الشك إلى كل خلية من جسدي كالضباب.. من ظننت أنني أكون لأصبح طبيباً؟ هؤلاء الأساتذة الجامعيون أعرف مني بذلك.. وفجأة.. صدح صوت روث في ذهني طالباً مني فتح قلبي، فأغمضت عيني ورأيت ابتسامتها وسمعت كلماتها: يمكنك تحقيق حلمك يا جيم.. يمكنك تحقيق أي شيء.. السحر كامن في داخلك، اسمح له

بالخروج.

تكلمت عن مكنونات قلبي لفترة بدت أشبه بدهر من السنين، أخبرتهم عن نشأتي الفقيرة وصراعي للدخول إلى الجامعة، أخبرتهم عن أمي وأبي والمرات العديدة التي اضطررت فيها إلى مغادرة الجامعة للاعتناء بهما، أخبرتهم عن اجتهادي في المدرسة للمحافظة على درجاتي والبقاء في الجامعة. ودفعتهم للملاحظة بأن مجرد وقوفي أمامهم لإقناعهم بالسماح لي بدخول كلية الطب هو شيء عظيم خارج عن المألوف. ثم قلت: "أنتم تعرفون بأن المعدل العالي لا علاقة له بتحولي إلى طبيب جيد.. المعدل العالي لا يجعل من الفرد إنساناً حنوناً مهتماً بالآخرين.. كل إنسان يحتاج إلى فرصة واحدة للقيام بما يعتبره الناس مستحيلاً.. أنتم هنا اليوم لأن أحداً ما آمن بكم واعتنى بكم.. وكل ما أطلبه هو أن تثقوا وتؤمنوا بي، هذا هو كل ما أطلبه، أطلب منكم أن تمنحوني الفرصة لأصبح الشخص الذي كنت أحلم بأن أكون عليه".

ساد الصمت بعد انتهائي من الكلام لوهلة ثم قالوا بأنهم سيأخذون ما سمعوا بعين الاعتبار، ثم وقف العميد وصافحني وقال:

"أعتقد أنك برهنت لنا عن أهمية عامل نتجاهله دوماً يا جيم.. نحن ننسى بأن الأشخاص الذين يجلسون أمامنا بشر لا ملفات وأوراق.. ومع أن الكثيرين يناسبون المعايير التي نطلبها إلا أن المعايير تعسفية بشكل أو بآخر، كما أن مقابلتنا والبوح بما قلته يتطلب الشجاعة والشغف ورباطة الجأش.. أنت لا تعرف الاستسلام.. أليس كذلك؟".

"لا يا سيدي.. أنا لا أستسلم، شكراً لوقتك".

قلت مغادراً الغرفة.

نظرت الموظفة لي حين خرجت وسألتنني:

"كيف كانت المقابلة؟".

رفعت كتفي محتاراً، الزمن وحده هو الكفيل بالإفصاح عن ذلك.

ابتسمت لي بحنان وقالت: "سمعت بعضاً مما كان يدور في الداخل، وأشعر أن الأمور ستسير على ما يرام". ثم سلمتني نشرة ورقية مطبوعة وقالت:

"قد ترغب في الاطلاع على هذه المعلومات، لقد فاتتك المواعيد النهائية لكن حدسي يخبرني بأن المواعيد النهائية غير مقبولة بالنسبة إليك أيضاً".

كانت النشرة تحتوي على برنامج صيفي خاص بكلية الطب يسبق الالتحاق بالسنة الأولى ويجري في كلية طب تولن، وكان برنامجاً خاصاً بالأقليات والأشخاص الذين لا تساعدهم ظروفهم المادية والذين يأملون في امتحان الطب، وكان البرنامج يحتوي على معلومات غزيرة وتجارب مخبرية ودروس للتحضير للاختبار الذي ينبغي على كل طالب مبتدئ أن يخوضه قبل بدء العام الدراسي.

شكرتها وتأملت النشرة وفكرت.. أين تقع تولن.. أنا لا أعرف عنها أي شيء لكنني شعرت أنها ستكون مفتاح مستقبلي.

منحتني اللجنة أفضل رسالة توصية ممكنة، لقد فعل سحر روث فعله. علمت حين اتصلت بالقائمين على البرنامج الصيفي أن المواعيد النهائية للتقدم قد انتهت بالفعل فطلبت الحديث مع مديرة البرنامج وأخبرتها بضرورة قبولي، سمعت المديرة قصتي حتى النهاية ثم قالت:

"أرسل طلبك يا جيم، سيكون الأمر على ما يرام".

واستلمت بعد أسبوعين رسالة القبول في البرنامج، لكنني لم أكن أملك المال الكافي للسفر بالطائرة إلى تولن - التي تقع في نيو أورلينز - لسوء الحظ. تزامن ذلك بالصدفة مع اتصال تلقّيته من والدي يخبرني فيه بأنه محتجز في سجن لوس أنجلوس وأنهم على وشك إطلاق سراحه، وأنه يحتاجني لأذهب لإحضاره من هناك. كما أخبرني بأنه يحتاج إلى المال لشراء الطعام ولحجز

غرفة في فندق لأن أمي طردته من البيت ولا يريد النوم في الشارع. لم أكن أملك سوى مبلغاً يكفي للطعام ودفع أجرة غرفتي لأسبوعين فقط، فأخبرني أنه يتوقع الحصول على شيك خلال أسبوعين.. ها نحن ذا من جديد، هكذا فكرت.. لكنني عرفت أنني مضطر لمساعدته لأنه أبي. عرض صديقي كيث إيصالي بسيارته إلى لوس أنجلوس لإحضار والدي، وهناك، بدا أبي جيداً بعد احتجازه عدة أسابيع بعيداً عن الكحول، فاصطحبناه إلى أحد المناطق الرخيصة واستأجرنا له غرفة لأسبوعين وأعطيته 200 دولار، وأخبرته هناك عن البرنامج الصيفي في تولن فابتسم وعبر عن فخره بي وشكرني. لم أكن أعرف كيف أتدبر أموري للسفر إلى تولن، وبعد أسبوعين، استلمت مغلفاً يحمل كتابة بخط والدي، فتحتة فوجدت شيكاً موقعاً بقيمة 1000 دولار. لقد منحني والدي كل سنت يملكه لأتمكن من الذهاب إلى نيو أورلينز، فبكيته. لقد غيرني ذلك البرنامج الصيفي إلى الأبد، إذ دخلت مخابر الأبحاث والتقيت عدة أعضاء من هيئة التدريس في كلية الطب وتحضرت للاختبار المبدئي واكتسبت الكثير من الخبرات. كان صيفاً حافلاً جداً بالخبرات والمعلومات والعمل الدؤوب لكنني ركزت على دراستي فيه وشعرت بسعادة لم أختبرها من قبل، كنت في طريقي لأصبح طبيباً، وكنت واثقاً من ذلك.

تقدّمت في الخريف للتسجيل في كلية تولن وانتظرت بقلق رغم ثقتي بجودة أدائي في البرنامج الصيفي والامتحان، لكنني كنت مدركاً لانخفاض درجاتي العامة السابقة وقلقت من تأثيرها على تقييمي العام لأن درجات الآخرين كانت أفضل بكثير. كما أنني كنت أعمل في عمليين آخرين، وقد بدأ التعب يظهر على نواحي حياتي، إذ تصعب المحافظة على التركيز حين يعمل المرء ويدرس في آن معاً. وخلال هذه الفترة تلقيت اتصالاً من أمي، أخبرتني أن والدي عاد لتناول الكحول بشدة وركب حافلة لزيارة بعض أقربائه في كنتاكي لكنه اختفى من حينها ولم يصل إلى كنتاكي وها قد مضى أسبوعين على غيابه. ومع أن والدي اعتاد الاختفاء هكذا إلا أنه لم يخطف أسبوعين متتاليين في حياته دون أن نسمع عنه خبراً أو دون أن يتصل بنا من أحد السجون، فأضفت هذه الأخبار لقائمة مسببات قلقي الأخرى. اتصلت والدتي بعد عدة أيام لتخبرني بوجود والدي

في مستشفى مدينة جونسون التي تقع في تينيسي.

اتصلت بالمستشفى على الفور رغم تأخر الوقت وتكلمت مع الطبيب المناوب، فأخبرني أن والدي في قسم العناية المشددة وأنه يتلقى جرعات عالية من مضادات الالتهاب بالإضافة لوضعه تحت جهاز التنفس الصناعي، وأنه لا يستجيب سوى بشكل متقطع بسبب إصابته بالتهاب رئوي حاد وأنهم يجدون مشقة في إيصال الأوكسجين لرئتيه. أشار الطبيب أيضاً لخطورة استجاباته القليلة للمنبهات، وسألني قليلاً عن ماضيه الطبي وخلفيته فأدركت أنني لم أكن أعرف سوى القليل عنه، لم أكن أعرف إن كان يعاني من مشاكل صحية أو إن كان يتناول أي أدوية أو إن كان قد خضع في الماضي لجراحة ما أو إن كان يعاني من حساسية من أحد المواد.. كل ما كنت أعرفه هو ثملته المتواصل، لقد انحصرت كل معرفتي بشخصية والدي بشربه للكحول.

حاولت بعد نهاية الاتصال التفكير في مرة واحدة جلست فيها معه للحديث أو في أشياء قمنا بها سوياً، بشيء واحد لا علاقة له بثملته فلم أجد سوى ذكريات غامضة ضبابية، لم أجد ذكرى واحدة واضحة تجمعنا.. لقد ركب حافلة للقاء أقاربه في كنتاكي.. ماذا فعل على متن تلك الحافلة؟ عن ماذا كان يبحث؟ لماذا قرر السفر إلى وجهة بعيدة كهذه في هذا الوقت بالذات؟ انتابتنني أسئلة عقيمة لكنني عرفت أن ثملته هو السبب في وجوده في تلك المستشفى البعيدة.

جلست على طرف سريرى وانتحبت، كنت مضطراً للوصول إليه لكنني لم أكن أملك المال اللازم، لم تملك أُمي أي مال كما أنني كنت أتحضر للقيام ببعض الاختبارات، أمضيت الأيام التالية غارقاً في المخاوف والقلق واتصلت عدة مرات بالمستشفى.. لم يستعد وعيه وبدأت أعضاؤه بالفشل والتوقف عن العمل، أخبرني الطبيب بأنه لا يتوقع الكثير وأن والدي سيموت على الأغلب، فعرض زميلي في السكن إقراضي بعض المال لشراء تذكرة طائرة للوصول إليه، فقامت بالترتيبات اللازمة وخططت للمغادرة ظهر اليوم التالي دون أن أملك أي فكرة عما سأفعله هناك، كل ما أردته هو مرافقة والدي وعدم تركه وحيداً.

نمت تلك الليلة بعد كثير من المعاناة، إذ لم أكن قد سافرت جواً من قبل، كما أنني لم أعرف أي معلومة عن المكان الذي سأتوجه إليه، شعرت بالخوف والإرهاق، ثم استغرقت في نوم عميق، وصحوت فجأة، لم أعرف سبب استيقاظي.. صحوت فقط وجدت نفسي متنبهاً بشدة، نظرت حولي فوجدت والدي جالساً بجانب قدمي. تأملني، وبدأت صحته جيدة، بدا أفضل حالاً في الحقيقة من أي وقت آخر، كان هادئاً وحمل وجهه تعبيراً لطيفاً وملامح رضا وقال:

"مرحباً يا بني.. أتيت لأودعك، أعذر منك لأنني لم أكن الأب الذي أردت أن أكون، أعذر لأنني لم أساندك حين كنت تحتاجني، لكل منا طريقه وقد اخترت طريقي بيدي، لكنني أريد منك أن تعلم بأنني فخور بك وأنني أحبك جداً وأنني مضطر للذهاب الآن، تذكر أنني أحبك.. وداعاً يا بني".

"أحبك أيضاً يا أبي..".

ثم رحل.

جلست، ولم أكن واثقاً مما جرى، هل كنت أحلم أم أن ما جرى كان حقيقة.. جلست هناك غارقاً في حيرتي وفكرت بأنني كنت أريد معانقته وطمأننته والبوح له بمحبتتي، ثم غرقت في النوم من جديد إلى أن رنَّ الهاتف وأيقظني مجدداً، رفعت السماعة بسرعة نصف نائم فسمعت صوت طبيب والدي، وأخبرني أن والدي قضى نحبه قبل ساعة وقدم لي تعازيه، أخبرني أن والدي فتح عينيه قبل وفاته مباشرة وابتسم، كما أخبرني بأنه لم يكن يعاني من الألم حين وفاته، فشكرته وأغلقت الخط ثم اتصلت بوالدتي وبكيننا معاً، قالت أُمِّي أنه فعل كل ما بوسعه وأنه كان شخصاً طيباً في النهاية وأنه أحبني كثيراً.

كان والدي يحبني.

وكنْتُ أعرف أنه أحبني.

وكنْتُ أحبه أيضاً.

قُبلتُ في كلية طب إرفن بعد مرور أقل من عام على مثولي أمام اللجنة التشاورية، وبعد مرور أسبوعين على وفاة والدي. دخلت غرفتي حين استلمت الرسالة وجلست على طرف السرير وفتحت المغلف ببطء وفكرت بأبي. نظرت إلى المكان الذي جلس عليه حين زارني طيفه تلك الليلة لإلقاء تحية الوداع وعرفت أنه فخور بي، أينما كان.

لم أخطّ بما يكفي من الدرجات للتخرج من السنة الأولى كما أخبرني الأساتذة خلال مقابلتي للجنة التشاورية، لكنني حضرت احتفال التخرج برفقة الطلاب المتخرجين عام 1977. وقد اعتمد قبولي في كلية الطب على حصولي على شهادة التخرج، لكنني اضطررت إلى مغادرة الجامعة للاعتناء بأبي بعد محاولتها الانتحار وتغيبت عن كل المحاضرات، وكنتيجة لذلك، فقد رسبت في ثلاثة مقررات في علم الأحياء ولم أملك الوقت لإعادتها قبل بدء العام الدراسي الأول في كلية الطب. لقد عانيت الأمرين ووجدت نفسي مهدداً بالفشل بعد كل ما جرى. لم أعرف سبيلاً لحل تلك المشكلة. ثم أدركت فجأة أن السبيل الوحيد هو نهج الصراحة، فتناولت الهاتف واتصلت بكلية تولن وطلبت مكالمة عميد كلية الطب. انتظرت على الهاتف زمناً بدا لي كدهر إلى أن سمعت صوته، وبدا أنه على معرفة تامة بكل ما يخصني، شرحت الوضع له لكنه لم يجب، بل صمت مطولاً، لدهر آخر.. ثم قال:

"جيم.. نحن نريدك في جامعة تولن، إذا وافقت جامعة إرفن على نقل موادك الجامعية الباقية إلى هنا فنحن نرحب بك بلا تردد".

لا بد أنني شكرته ألف مرة قبل أن أغلق الخط، وما جرى لاحقاً كان رائعاً بالفعل.. إذ شرحت للأساتذة الذين رسبت في موادهم أنني قُبلت في كلية الطب لكنني اضطررت إلى مغادرة الجامعة لطارئ حلّ بعائلتي مما منعني من تقديم امتحانات موادهم الأخيرة، وطلبت منهم السماح لي بنقل المواد معي إلى كلية الطب. وافقوا جميعاً على الفور وقدموا لي تهانيهم على قبولي في كلية الطب. لم أعلم سوى مؤخراً بأنهم افترضوا جميعاً بأن معدلي كان خرافياً مما دفعهم إلى غضّ النظر عن موادهم تلك.

تكون القوانين والمعايير هامة إلى حد بعيد في بعض الأحيان، لكنها غالباً ما تكون عشوائية ومتعلقة بالأرقام والفرص المحدودة.. إن الحصول على الدرجات النهائية أو الرسوب التام هي مجرد عوائق عشوائية في طريق الطب.. كنت أعرف أنني أملك الحسّ الداخلي اللازم والتصميم الكافي لأصبح طبيباً..

وها قد حان الوقت لإثبات ذلك.

الفصل الثامن

ليست جراحة في الدماغ

لم أخطط مطلقاً لدراسة جراحة الأعصاب، بل خططت لدراسة الجراحة التجميلية، فقد تأثرت كثيراً بالأطفال المصابين بالاضطرابات القحفية وجذبتني التعقيدات التقنية في تلك الجراحات، أصابت صور تشوهات وجوههم وتراً حساساً في قلبي، فلطالما تعاطفت بشكل خاص مع الأطفال الذين يحملون جراحاً لا يمكن لهم إخفاؤها عن عيون الناس ويضطرون دوماً لتحمل ابتعاد الآخرين عنهم بعد رؤية تشوهاتهم. لكنني أحببت الجراحة التجميلية وحلمت بأن أصبح أستاذاً في قسم الجراحة التجميلية في الصباح، أستاذاً يرفع الأطفال المصابين، ثم يتوجه مساءً لعيادته في بيفرلي هيلز لمقابلة عملائه الأثرياء السريين الراغبين في إجراء عمليات تجميل. بالإضافة إلى حجم الأموال التي سيغدقها عليّ أولئك المشاهير والأغنياء مما يعني أنني سألتقي بالكثير من النساء الساحرات.

قبلت منحة دراسية تعينني على دفع أقساط السنة الجامعية الأولى، ثم قبلت منحة أخرى من الجيش في بداية السنة الثانية، فقد شعرت بضرورة خدمة الوطن ورغبت في ردّ شيء مما وهبني إياه، تذكرت أحلام الطفولة، حين كنت أحلم بأن أكون الطيار الذي كسر حاجز الصوت فوق لانكاستر (تشك إيغر) والزهو الذي كنت سأرتدي فيه بذتي العسكرية الموعودة، لكنني تعلمت في ذلك العام أن تشك إيغر لم يكن الطيار الأول الذي كسر حاجز الصوت، بل سبقه إلى ذلك رجل يدعى سليك غودلين، وأن غودلين طلب 150 ألف دولار لإتمام المهمة عام 1947، وهو مبلغ هائل من المال في ذلك الوقت. أما إيغر فلم

يرغب في القيام بالمهمة من أجل المال بل رغب في كسر حاجز الصوت مدفوعاً بحسّ المغامرة وروح الاكتشاف، لقد رغب في استكشاف ما يمكن للإنسان القيام به حين تدفعه الظروف للقيام بخيارات صعبة وخطرة، وقد قال أنه لن يتراجع عن المهمة حتى لو كسرت أضلاعه وحتى لو تسببت له بالكثير من الألم، حتى لو اضطر لإغلاق فتحة السقف بعضاً مكنسة.

من كنت؟ هل كنت الشخص الذي وصفه أوسكار وايلد.. الذي "يعرف ضريبة كل شيء ولا يعرف قيمة أي شيء"؟ لقد أمضيت شطراً لا بأس به من حياتي محاولاً التوفيق بين غودلين وإيغر المتصارعين في داخلي، ولطالما تعاطفت مع الناس الذين صارعوا الحياة مثلي، الذين خاضوا بحور الألم، وحاولت مساعدتهم بكل استطاعتي.. لقد أوصلني سحر روث إلى هنا، ومع ذلك.. تابعت تمريناتي اليومية عليه مدركاً تماماً لأنني لم أقطع إلا جزءاً من الطريق. أردت الشهرة والثروة، أردت أن أصبح شخصاً يُبهر الناس بحضوره، أردت أن أصبح أفضل جراح في العالم.

ووافق الجيش على دفع كل أقساط جامعتي وكل المصاريف وكل الرسوم، وقبلت أن أخدم كطبيب في الجيش، وقد فعلت، لتسع سنين.. إلى أن أصبحت الرائد جيمس دوتي.

وكانت تجربتي في كلية الطب مختلفة تماماً عن تلك التي خضتها في السنة الجامعية الأولى، لم أعانِ من صعوبات دراسية واكتشفت أنني أملك كفاءة وأهلية وموهبة طبيعية لدراسة تعقيدات الجسم البشري، وعلم التشريح والأنسجة ووظائف الأعضاء. القدرة على حفظ معلومات أكثر مما يمكن للفرد أن يحفظه هو الصراع الذي يخوضه كل طالب طب في السنة الأولى، وأنا أعرف الآن أن سنوات التمرين على ما تعلمته في متجر السحر طورت دماغي مما مكنتني من استحضار المعلومات بشكل أسهل من رفاقي. تمكنت أيضاً من التركيز لساعات أطول على دراستي ولم أتذمر من الشرود اللاإرادي خلال قراءة المقررات الدراسية، وقد علمونا طرقاً للحفظ لتساعدنا على تذكر كل شيء من العظام حتى الأعصاب مروراً بكيفية كتابة الجداول الطبية، وكان بعضها سخيفاً جداً كالجملة

التي تساعدنا على التمييز بين الأعصاب القحفية والحسية، أو كليهما، والتي تقول: بعضهم يقول تزوج المال، لكن أخي الكبير يقول أن العقل أهم بكثير. وكان تذكّر بعض تلك الجمل أصعب من المعلومة نفسها، مثل جملة: OOOTTAFFVGVAH للتعبير عن عصب القحف الرئيسي.

وقد استعملت بعض تلك الجمل بالفعل واخترعت غيرها وتظاهرت في أحيان أخرى بأني أستعملها حين كانت المعلومات التي خزنتها في ذاكرتي تهرب من دماغي حين أحتاجها. وقد كشفت دراسة علمية أجريت عام 2013 في جامعة سانتا باربارا في كاليفورنيا أن التأمل العميق وتركيز الانتباه بانتظام يحسّن الذاكرة والقدرة على التركيز والمهارات المعرفية والإدراكية، وقد أجروا تلك التجارب على طلاب جامعيين وانتهوا لتلك النتائج بعد أسبوعين فقط من بدء التجربة، حيث أخضعوا الطلاب لاختبارات لقياس قدرتهم على التذكّر والتركيز وأمور أخرى. ما أذهلني في هذه التجارب التي أجريت عام 2013 هي شبهها الكبير لتمريني مع روث عام 1968. كم أنفقت الجامعات على إجراء تلك التجارب؟ أجمل ما في التأمل كطريقة مساعدة على الدراسة والحفظ هو أنها مجانية تماماً.

أمّنت منحة الجيش الجامعية لي فترة تدريب بعد انتهاء سنوات الدراسة لكنها لم تؤمن لي عملاً كطبيب مقيم، وهذان أمران مرتبطان ببعضهما حول العالم، وهكذا.. كنت مضطراً إلى البحث عن مستشفى يقبلني كطبيب مقيم بعد تخرجي من جامعة تولن عام 1981، فقبلت فترة تمرين عامة في مركز تريبلر الصحي العسكري في هاواي، حيث ناوبت مرة من قبل، وفترة التمرين العامة تعني أنني سأضطر إلى التركيز على اختصاصات جراحية مختلفة أكثر من التركيز على اختصاص جراحي واحد. فناوبت في قسم طب الأطفال والتوليد وأمراض النساء والباطنية بالإضافة إلى الجراحة العامة وجراحة الأعصاب. اعتقدت في ذلك الوقت أن الخبرة الواسعة المتنوعة ستفيد وضعي الأكاديمي لكنني لم أعرف أن التمرين العام يقلل من فرص قبول الطبيب في المشافي حين يتقدم للإقامة كطبيب جراح، لأنه لم يركّز على حقل جراحي واحد وكل تفرعاته الدقيقة. لقد قللت المعرفة الواسعة في العديد من الحقول الطبية من فرصتي في

الحقيقة. كنت ما أزال أخطئ في ذلك الوقت للتحويل إلى جراح تجميلي للأطفال مما يتطلب البحث عن عمل كجراح مقيم عام، تتبعها فترة من الزمالة في الجراحة التجميلية، ثم زمالة أخرى في قسم جراحة الوجه. كانت لدي خطة، لكن عدد المتنافسين للحصول على الإقامة في قسم الجراحة العامة بلغ اثني عشر طبيباً، وكنت الوحيد الذي قام بفترة تمرين عامة ما بينهم. لم تكن الفرص في صالحي، وقد أخبروني جميعاً بأنني لن أحصل مطلقاً على هذا العمل، وكانوا فرحين بسبب قلة حظوظي لأنها تزيد من حظوظهم. وفي ذلك الوقت، كنت مندفعاً نحو تحقيق هدفي بعنفوان لم يرق للآخرين، وكان إيماني العظيم بقدرتي على تحقيق أي شيء أريده يظهر للناس بشكل غطرسة وغرور، ولهذا.. فأنا أفهم الآن السبب الذي دفعهم لتمني فشلي.

يجب تقديم طلبات الإقامة في شهر تشرين الثاني - نوفمبر، فتقدمت كالآخرين، وحضرت منهاجاً في جراحة المخ والأعصاب في شهر نيسان - أبريل التالي، وكان الأطباء المسؤولون عن ذلك المنهاج أكثر الأطباء لطفاً ما بين كل المشرفين الذين التقيت بهم في حياتي.. فتنتني جراحة الدماغ، إذ كان العمل فيه يتطلب الدقة وتكريس الذات، لكنه قدم لي حماساً وتشويقاً لم أجده في الجراحة العامة التي تدور في غالب الأحيان داخل الصدر والبطن. هناك شيء في الدخول إلى حيث لم يدخل أحد من قبل، في اكتشاف كنه وصميم ما يجعلنا بشراً، شيء دعاني وناداني. كنت أرغب في مساعدة الأطفال المشوهين لكن استكشاف ألغاز الدماغ بدا كرحلة بحث جديدة تتاديني وتدعوني، لقد رغبت في جراحة الأعصاب كما رغبت من قبل في الذهاب للجامعة وكلية الطب، لكنني كنت مضطراً للبحث عن فرصة كجراح أعصاب مقيم لتحقيق هدفي الجديد هذا، لا لفترة إقامة عامة. كنت أعرف أنني أستطيع التخصص في الاختصاصين معاً (جراحة الأعصاب والتجميل) ومزاملة قسم جراحة الوجه في الوقت نفسه لو أردت.. بدا لي كل شيء ممتازاً.

وقد شجعني رئيس قسم جراحة الأعصاب في تريلر، حيث قال مرة:

"أنت موهوب جداً تقنياً يا جيم، لا بد لك من التخصص في جراحة

الدماغ.. يجب أن تصبح جراح أعصاب".

"هذا رائع.. أجبتُ مزهواً بغرور.. كنت في طريقي لأصبح جراح أعصاب.

"ولكن.. إنهم لا يدرّبون سوى جراح أعصاب واحد في العام في الجيش، وهناك ثلاثة أسماء في الانتظار، مما يعني أنك ستنتظر لثلاث سنين قبل حلول دورك، وسيرسلونك بعد التمرين إلى الميدان كضابط طبيب عام لبضع سنين إلى أن يصل اسمك إلى رأس القائمة لتبدأ فترتك كطبيب مقيم".

"ثلاث سنوات؟".

"ثلاث سنوات فقط".

"اعذرنى ولكن.. لا يمكنني قبول ذلك".

ضحك من كلامي وقال:

"لا بد لك من قضاء ذلك الوقت بتلك الطريقة".

"إنه هراء، ومبدأ غير مقبول". قلت بانفعال أكبر قليلاً ووقعت في حيرة من أمري.

"إنها الطريقة التي تسير فيها الأمور، وهو ليس هراء.. إنه الجيش".

"لكنه غير مقبول بالنسبة إليّ".

هز رأسه يمناً ويسرة ورافقني إلى خارج مكتبه.

اقتربت فترة إجازتي، ثلاثين يوماً بعيداً عن الجيش، فغادرت تريبلاز وذهبت لقضاء شهر في والتر ريد، وهو المستشفى الذي خططت للإقامة فيه

فيما بعد، فقضيت شهراً في قسم جراحة الأعصاب وأبليت حسناً، والتقيت برئيس القسم قبل انتهاء فترة عطلتي المزعومة، حيث قال لي:

"أنا معجب بك يا جيم، لقد قمت بالأعاجيب خلال هذه الفترة وأعتقد أنك ستكون طبيباً مقيماً رائعاً لدينا".

"أشكرك.. هل يعني هذا أنني سأبدأ في فترة الإقامة عندكم في الخريف المقبل؟".

"أنت تعرف يا جيم بأن فترة الانتظار هي ثلاث سنوات على الأقل، سأقبلك بعد ثلاث سنوات ولا بد أن تكون شاكراً لهذا لأن أربعة أشخاص آخرين ينتظرون دورهم، كما أنك لم تقدم أوراقك بشكل رسمي حتى الآن".

نظرت في عينيه مباشرة وقلت: "لا أقبل الانتظار ثلاثة أعوام، إذا لم تقبلني في الخريف المقبل فسترتكب أكبر خطأ في حياتك، لن أنتظر ثلاثة أعوام، اعذرني، لا أقصد أن أكون وقحاً أو قليل الأدب، لكني لا أستطيع قبول هذا".

ومع أن الوقت كان متأخراً إلا أنني تقدمت بأوراقي للإقامة في قسم جراحة الأعصاب وأمنت بمفعول سحري.

عدت إلى تريبلر وعبرت لرئيس قسم الجراحة العامة عن امتناني له، ثم أخبرته أنني سأنسحب من قسم الجراحة العامة لأنني سألتحق بجراحة المخ والأعصاب في والتر ريد، فقال:

"هذا مستحيل.. لن تتمكن من ذلك. لن أسمح لك بالانسحاب، أنت واحد من ضمن أفضل مجموعة من الأطباء الجدد الذين مرنتهم في حياتي، ولن أسمح لك بالذهاب".

"حسناً، لكني أخبرك من الآن أنني لن ألتحق بفترة إقامة في قسم الجراحة

العامة هنا، سأكون في والتر ريد".

أنهيت فترة التمرين وداومت يومياً على تصوّر نفسي جراحاً مقيماً في قسم جراحة الأعصاب في والتر ريد كل صباح وكل مساء.. كنت أتصور نفسي هناك بعيني الداخلية، لم أشعر بالقلق حيال مآل الأمور، لقد تعلمت تصور ما أريده وعدم الاكتراث بطريقة حدوث ما أتصوره، وكنت واثقاً من تحقق ما أريد بطريقة أو بأخرى.. هذا هو ما كنت أعرفه آنذاك، كنت أقوم بواجبي وأترك للتفاصيل أن تحدث كما اتفق.

وكما اتضح فيما بعد، كانت التفاصيل وضيفة، فقد خاض الشاب الذي قُبل في الخريف التالي بدلاً عني علاقة حب مع ممرضة في والتر ريد، وانفصلا بعد فترة فراح يطاردها ويتربص بها، ومن الواضح أن أموراً أخرى كانت عالقة بينهما فسحب رئيس القسم اسمه من البرنامج، وأرسلوه لقضاء بقية الفترة في الجيش كطبيب ضابط عام في كوريا الجنوبية، وهكذا.. فرغ المنصب ولم يكن أحد من المرشحين جاهزاً لشغله لتواجدهم في أماكن أخرى، وهكذا.. تساقطت أحجار الدومينو واحدة تلو الأخرى لأجد نفسي الشخص الوحيد الجاهز لشغل المنصب الذي أردته.

لا أعرف إن كانت الأحداث قد حصلت بسبب تصوراتي، أو بسبب سلسلة من الظروف المواتية لي أو لسبب آخر، كل ما عرفته آنذاك أن الأمور آلت لمصلحتي في النهاية.

استلمت رسالة القبول من برنامج الجراحة العامة في تريبلر ورسالة أخرى من برنامج جراحة الأعصاب في والتر ريد في اليوم ذاته، وقد قبل رئيس قسم الجراحة العامة أربعة متقدمين بما فيهم أنا، فاستدعانا على الفور إلى مكتبه.

"أريد منكم أن تعرفوا أن كل واحد منكم كان أهم متقدم من وجهة نظري للأماكن الأربعة الشاغرة، وأنكم أفضل متمرنين قابلتهم في حياتي".

نظرت إلى زملائي المقبولين، الذين تملقوا رئيس القسم بشكل فاضح

للحصول على هذه الفرصة، لقد كانوا يعلمون مسبقاً بأمر قبولهم، فقد كانت هيئة شعرهم توشي بأنهم قد قصّوه للتو، كما أن أحذيتهم كانت لامعة مما يعني بأنهم أمضوا بعض الوقت في تنظيفها وتلميعها قبل المقابلة، إلا أن تلك الأمور لم تكن تهمني.. لم أرغب إلا أن أكون الأفضل حتى لو عنى ذلك أن يكون شعري طويلاً قليلاً أو أن يحتاج حذائي للتلميع، كما أنني لم أبرع يوماً في تملق الآخرين الذين يفوقونني مرتبة.

"سأصحبكم إلى نادي الضباط للاحتفال سوياً".

قاطعت التهاني وجوّ الاحتفال الذي عمّ الغرفة وقلت:

"سيدي.. يجب أن أخبرك بأني لن أقبل المنصب".

نظر إليّ وقال: "لم لا بحق الجحيم.. لا يرفض أحد مطلقاً فرصة كهذه!".

"لقد قُبلت في قسم جراحة المخ في والتر ريد".

احمرّ وجهه وأخرسته الصدمة.

"حاولت تحذيرك.. طلبت منك سحب طلبتي".

وانسحبت.. حييته وخرجت بلا رجعة.

أخبرني رئيس القسم في والتر ريد بأنه معجب بي خلال الشهر الذي قضيته عندهم في السابق لكنني لم أجلب له سوى المشاكل، فقد كنت سريع البديهة وسليط اللسان، وغالباً ما تصرفت بشكل منفر هناك، كما أنني لم أكن أتوانى للحظة عن التفوه بالحقائق مهما كانت النتائج، ولم تساعدني هذه الصراحة والنزاهة كثيراً خلال وجودي هناك كطبيب مقيم.

تحولت مع الوقت إلى شخص مغرور مختال، فقد دفعني اعتقادي لأنني

قادر على فعل كل ما أريده بالإضافة إلى تفوقي في الجراحة العصبية للشعور بأني شخص مهم للغاية واستثنائي كما لم أكن من قبل في حياتي، لقد دفعني السحر الذي تعلمته في سن الثانية عشرة، والذي تمرنت عليه يومياً لأكثر من عقد من الزمن آنذاك للشعور بأني لا أقهر، وغالباً ما زجّني ذلك في المشاكل، لأنني لم أكن قد تعلمت آنذاك احترام الآخرين أو التعامل معهم بحصافة، كنت أواجه رئيسي أمام الآخرين وأناقشه بجلافة، واعتبرت أنني قد أصبحت بالفعل طبيب جراحة أعصاب في السنة الأولى من سنواتي كمقيم وأخذت نفسي على محمل الجدّ، فكنت أرى شؤون مرضاي وأهتم بهم أكثر من اهتمامي باتباع القوانين أو أنظمة الإقامة، وهكذا.. نفر رؤسائي مني وتحول إعجاب رئيس القسم بي إلى مقتي بشدة لأنني كنت أرفض اتباع أي قوانين لا تعجبني أو تبدو لي غير منطقية. لم أكرث يوماً لمضايقات أعضاء الهيئة التدريسية أو الأطباء الكبار الذين بلغوا السنة الأخيرة من إقامتهم المقيمين الجدد بمن فيهم أنا، ولطالما ذكروني بطفولتي في لانكاستر. كنت أعرف كيفية الدفاع عن نفسي وعن الآخرين وقد دافعت بالفعل كلما اضطررت لذلك.

استدعاني المدير قبل عيد الميلاد مباشرة لإجراء تقييم عام خلال السنة الأولى من الإقامة، فوجدته جالساً إلى مكتبه بالإضافة لجميع الأطباء الآخرين.

"نريد استعراض وضعك العام، هناك أشياء تقلقنا، بالإضافة إلى التساؤلات التي وصلتنا عن منهجك في التعامل مع المرضى".

وقفت في الحال وقلت:

"لا تكمل، إذا وجدت أي تساؤلات حول عنايتي بالمرضى فأريد أن أرى أوراقاً رسمية تثبت ادعاءكم، أنا آخذ مهنتي على محمل الجد ولن أقبل اتهامات كهذه بلا أدلة".

أمضيت سنوات عديدة في مشاهدة الطريقة السيئة التي يعامل بها الأطباء أمي المريضة، ولا مبالاتهم، لقد أهملوها، وأهملوا عائلتنا بالكامل، وكنت

مدركاً تماماً لكمية الاهتمام التي أغدقها على مرضاي، فقد كنت أستمع لقصصهم وأتحقق بنفسي مرتين من كل شؤونهم، وأجلس بجانب أسرتهم بعد مراجعتي لهم بعدة ساعات وانتهائي من عملي، ولهذا.. فقد كنت متأكداً من خطأه.

عمّ الصمت في الغرفة وراح الرئيس يقلب بين أوراقه بطريقة غريبة، ثم تمت:

"حسناً، ليس هذا سبب استدعائنا لك، لقد استدعيناك لنتحدث معك عن موقفك منّا، نحن لا نعتقد بأنك تريد الإقامة هنا لأنك تعاملنا بعدائية، ولهذا فقد قررنا وضعك تحت المراقبة، سنقيّم وضعك خلال الأشهر الستة المقبلة، وسنخرجك من برنامج الإقامة هنا إذا لم تحسن من سلوكك معنا".

نظرت في وجوههم واحداً واحداً فلم يتجرأ أحد منهم على مواجهتي.

"اطردوني إذا رغبتם بذلك.. حالياً. أنا لا أقبل الوضع تحت المراقبة ولن أكون عرضة لذلك، لم أوضع تحت المراقبة من قبل في حياتي ولن يحدث ذلك الآن".

صمت الجميع وكأن على رؤوسهم الطير، لقد فشلوا في مهمتهم ولم يهزموني، وكنت أعرف بأنهم أدركوا ذلك، لا يمكنهم إقصائي بعد الملاحظات التي كان يتركها مرضاي وتقييم الإدارة المبهر لي، لم يقدم أحد تقييماً سيئاً عني سوى رئيس القسم، بالإضافة لأنهم سيتعرضون لإحراج كبير ما بين الزملاء إذا طردوني.

"انتظر في الخارج وسنناديك حين نصل إلى قرار".

جلست خارجاً لساعة ونصف الساعة، أغمضت عيني وركّزت على أنفاسي وحاولت المحافظة على هدوئي والاطمئنان لما تعلمته من روث.

تتحنح المدير حين دخلت بعد استدعائي إلى الداخل وأعلن:

"قررنا عدم وضعك تحت المراقبة لكننا سنراقبك عن كثب".

تمالكت نفسي بصعوبة كي لا أضحك بصوت مرتفع، لأنهم كانوا يراقبونني بالفعل عن كثب، طوال الوقت.. وبينما كان موقفي من رؤسائي صدامياً وجافاً، كانت طريقي مع مرضاي خارج الشبهات. كنت متعجرفاً بالفعل، ولم أكن أوّمن كلياً بأنّي لا أقهر فقط، بل بأن السحر الذي تعلمته من روث لن يخذلني أبداً. أما الآن، فأنا أدرك بأنّي تعلمت الطريقة من روث لكنني لم أفهم لب تعاليمها.

"حسناً.. تبدو لي هذه خطة محكمة".

لقد أغظت رئيسي لسنوات وعاديته، وكنت جراح أعصاب مقيماً ومتفوقاً وممتازاً، وقد عرف بأنّي أعرف ذلك عن نفسي، ولم يضعوني مطلقاً تحت المراقبة الرسمية. وحين تخرجت، اقترب مني وهمس في أذني: "أريدك أن تعرف أنني كنت أراقبك طوال تلك السنوات بنفسي بشكل غير رسمي".

لم أكن متواضعاً، وملأني نجاحي وارتدائي للمعطف الأبيض الرسمي زهواً واختيالاً.

كانت سنوات الإقامة جيّدة للغاية ومتعبة، لكننا كنا نحتفل دون القلق من العواقب حين نحظى بإجازة. لقد عملت بجدّ ولهوت حين استطعت بجدّ أيضاً، شعرت بأنّي لا أقهر ولا أغلب كما تصورت نفسي لسنوات عديدة.. ها أنا أرتدي الرداء الأبيض.. ها قد أصبحت رسمياً الدكتور دوتي.

لا شيء قادر على إيقافني.

كانت سنوات الإقامة في الثمانينات أكثر قسوة مما هي عليه الآن، فقد كانت أشبه بمعسكرات طبية تدوم مناوبة أعضائها أربعاً وعشرين ساعة بلا

توقف ودون خلع الحذاء. لقد حُرمتنا من النوم وكُنّا على الدوام تحت المراقبة والفحص مما فرض علينا الكثير من الضغوط، وكانت تلك الضغوط بدورها تدفعنا للتنفيس عن أرواحنا بين الحين والآخر والاستراحة من المتطلبات العقلية والجسدية التي لا تنتهي. وهكذا، بدأ بعض زملائي في شرب أكثر مما ينبغي من الكحول، وقد لاحظت الإنذارات فيهم وفي نفسي لأنني كنت أعرف تماماً معنى الإدمان على الكحول من خلال طفولتي، فحاولت التوازن على حدّ السيف، ما بين الشرب حتى التمل أثناء المناسبات والإدمان الكلي. طمأنت نفسي بأن أوقات فراغي ولهوي نادرة جداً مما يساعدني على إبقاء الأمر تحت السيطرة. وفي بعض الأوقات، كنت أشعر برغبة جينية تدفعني للهرب من ضغوطات الحياة الصعبة لطبيب مقيم، لكني لم أكن والدي، ولن أكون مثله في يوم من الأيام.

توقفت عن التأمل والتصور تدريجياً لأن ساعات المناوبات الطويلة لم تترك لي الوقت للتمرين كل صباح ومساءً، فرحت أتجاوز عن التمرين مرة كل بضعة أيام ثم تناقص ذلك إلى تمرين واحد في الأسبوع إلى أن شعرت في النهاية بأنني لا أملك الوقت لذلك بتاتاً، وتوقفت أيضاً عن إضافة الأمانتي، فقد كنت أعرف تماماً ما أريد وكنت أعرف تماماً بأنني قريب جداً من الوصول لسقف أمنيّاتي القديمة. كنت على بعد خطوتين من أن أصبح طبيب أعصاب، واحداً من نخبة الاختصاصيين الذين يثق بهم الجميع لإجراء جراحات في أهم جزء من الجسم البشري.. الدماغ رأس الهرم.. أو هكذا تصورت في ذلك الوقت، وتصورت أيضاً أنني أتحكم بذلك الهرم حين أجري الجراحات على قمته.. لم يكن هناك شيء آخر يمكن لي تعلمه من سحر روث.

قررت برفقة ثلاثة زملاء الخروج واللهو بعد انتهائنا من مناوبة طويلة متعبة في أحد المرات، وكنا مقربين، إذ كنا نعمل سوياً ونأكل سوياً ونسرف في شرب القهوة في المقهى معاً، وقد ارتبطنا بقوة كما يجري بين الناس الذين يعانون معاً من حوادث أليمة أو كوارث طبيعية. كنا نخوض حرباً جنباً إلى جنب، حرب فترة الإقامة، وبسبب عدم امتلاكنا للوقت لمرافقة أي شخص آخر في حياتنا، فقد

تحولنا إلى أصدقاء حقيقيين، وإلى عائلة بشكل أو بآخر.

كان الضغط شديداً مما دفعنا للتخلص منه ومحاولة تخفيفه بطرق متطرفة أيضاً. حين يعمل الإنسان في المستشفيات، يشاهد أموراً يتمنى لو أنه لم يشاهدها، واكتشفنا أن المعادلة السحرية لنسيان تلك الصور هي مزيج من كميات كبيرة من الكحول والكوكايين والموسيقى والنساء، دون الالتزام بهذا الترتيب بالطبع.

رحنا نشرب في تلك الليلة حوالي الثامنة مساءً في النادي القريب من المستشفى، رمينا بالمال على الراقصات كما لو كنا نملك ما يفيض عن حاجتنا من المال، ثم ذهبنا إلى مطعم إسباني حيث تناولنا الباييلا واليامون سيرانو، وهو نوع من لحم الخنزير المقدم فوق رقائق الخبز المحمص، وشربنا إبريقاً تلو الإبريق من الخمر الإسباني ولا أذكر متى تعاطينا الكوكايين، لكنهم طردونا خارج المطعم بعد سحبنا للسيوف الإسبانية الأثرية المعلقة على الجدران ومنازلة بعضنا بعضاً في صراع حياة أو موت.

كانت ليلة رطبة من شهر أكتوبر، وأذكر أنني أدت رأسي يمناً ويسرة في ضباب تلك الليلة وشعرت بالرطوبة على خديّ بعد مغادرتنا، شعرت بالسعادة للتحرك من المستشفى، شعرت بالسعادة لأنني شعرت بالحياة، شعرت بالسعادة لأنني شعرت بأني نفسي مجدداً، ولأنني كنت منتشياً تماماً بالكحول والمخدرات.

تكوننا في السيارة المترعة بزجاجات البيرة الفارغة وتجولنا في الشوارع المظلمة مع صوت الموسيقى المدوية، وشعرت أنني أغرق في خدر لذيذ، ثم سمعت صوتاً في رأسي يقول:

"ضع حزام الأمان، الآن!" فتأهبت والتفتُ من حولي، كان زميلي الجالس في المقعد الأمامي يغني ويرمي زجاجة بيرة من النافذة، أما زميلي الآخر الذي كان يقود فكان يهزّ برأسه مع الأغنية، والثالث الجالس بجانبني كان نائماً. لم يطلب مني أحد منهم أن أضع حزام الأمان.

كنا نركب سيارة فورد حمراء موديل عام 1964، سيارة كلاسيكية تعود ملكيتها لأُم واحد من الرفاق، لم يكن أحد منا يعرف بأن العجلات تحتاج لصيانة، وجدت حزام أمان بجانبى فوضعتة في اللحظة نفسها التي اصطدما فيها بزاوية حادة في الشارع العام، انزلقت السيارة على الإسفلت الرطب وصعدت فوق طريق المشاة ثم مالت حتى وصلت إلى الاتجاه المعاكس، ازدادت شدة الحزام على جسدي حتى كاد يخنقني ثم شاهدت اصطدامنا بشجرة ضخمة، كما لو كنت أعيش حلمًا. ثم اسودّت الدنيا من حولي.

استعدت وعيي على صوت أنين، كنت ممدداً على الرصيف الرطب بجانب طرف السائق من السيارة، ولا أعرف إن كنتُ قد طرت منها أو أن أصدقائي سحبوني، كان زميلي السائق منحنيًا فوق المقود بلا حراك، وشعرت بألم حارق يخترق ظهري لكني لم أشعر بساقي، حاولت تحريكهما لكني لم أفجح بذلك.

تقيأت ثم حاولت النهوض فسمعت زملائي يتكلمون: حديقة روك كريك، إنها تبعد ميلاً عن هنا، لا بد لأحد منا من الذهاب، ركبتني، ابق معه أنت. لم أتمكن من ربط الجمل ببعضها فأغمضت عيني وتركت لحجارة الرصيف أن تبرد حرارة وجهي. كان جسدي يغلي، واعتقدت لسبب أجهله أنني سأبقى على ما يرام لو أبقيت وجهي بارداً.

لم تبعد مستشفى والتر ريد العسكرية سوى ميل واحد عن مكان الحادث، فانطلق زميلي - الذي كان يجلس بجانبى، والذي لم يصب سوى بجروح طفيفة وخدوش - على قدميه لطلب المساعدة، وما أن وصل حتى أخبر الطاقم بضرورة إرسال سيارة إسعاف لحملنا، فرفضوا معللين ذلك بعدم قدرتهم على إسعاف الحوادث خارج القاعدة العسكرية.

فاستولى بلا تردد على سيارة حكومية دون ترخيص وعاد بها مباشرة إلى موقع الحادث، صرخت من شدة الألم حين سحبني إلى المقعد الخلفي وحين أنزلني في مدخل الطوارئ. وقد شعرت بسريرية الموقف وغرابته الخيالية حين

فحصني زملائي المقيمون في غرفة طوارئ مستشفى والتر ريد. كنا أطباء قبل ساعات، وها قد تحولنا لمرضى. أصيب أصدقاؤني بتمزقات في الأربطة وجروح مختلفة وأصيب واحد منهم بكدمة شديدة للغاية في القفص الصدري وارتجاج في الدماغ، لكننا كنا بخير بشكل عام.

كنت الوحيد الذي كان يضع حزام الأمان وكنت الوحيد الذي أصيب بأضرار خطيرة، من تمزق في الأمعاء الدقيقة وتمزق آخر في الطحال وكسر في العمود الفقري، في المنطقة القطنية السفلى، وكانت إصابات البطن عندي تحتاج إلى علاج فوري فأدخلت مباشرة إلى غرفة العمليات.

تحولت إلى مريض، فشعرت بما شعر به كل مريض دخل هذه الغرفة من قبل عندما سطعت أنوار العمليات البيضاء فوق رأسي، انتابتي موجات الألم والخوف والقلق، سمعت أصواتاً كما لو كنت في غرفة مكتظة يتكلم جميع موجوديها معاً. ماذا لو لم أستيقظ؟ أرجوك يا إلهي، أرجو أن تكون الإصابة مميتة، كان ينبغي أن أخبره بأنني أحبه للمرة الأخيرة، ماذا لو لم أمش على قدمي من جديد؟ ماذا سيفعلون دوني؟ ساعدني يا الله.. لا أريد أن أموت.

فتحت عيني حين سمعت أصواتاً أخرى تتناقش وتتجادل فاكتشفت أنني أصبحت في وحدة العناية الفائقة، كان الألم شديداً، يفوق كل ما تخيلته يوماً، شعرت بجرح في بطني فأغمضت عيني من جديد وأنصت لكلام رئيس قسم الجراحة العامة ونائب رئيس قسم الجراحة العصبية، كانا يتكلمان عني.

لم تكن حالتي جيدة، عاد دماغي الطبي للعمل رغم الألم، انخفض ضغط دمي بشكل حاد بعد الجراحة، وكان منخفضاً إلى درجة أن حساسات جهاز الضغط لم تكن تلتقط الضغط الانبساطي، أما ضغطي الانقباضي، وهو أعلى رقم تقرأه حساسات الأجهزة وقيس الضغط في الأوردة حين يخفق القلب، فلم يبلغ سوى الأربعين. كان ينبغي للضغط أن يكون مضاعفاً مرتين أو ثلاثة عن هذا الرقم، أما معدل النبض عندي فتجاوز 160. الأمر واضح.. كنت مصاباً بصدمة بسبب فقدان كميات كبيرة من الدماء. لكن فقدانه لم يتوقف،

وكنـت أفقده بـسرعة مما يعـني بأنـي كنـت أعاني من نزيف داخلي، وقريباً، سينخفض ضغطي أكثر فأكثر مما سيمنع الشرايين والأوردة من إيصال الدم إلى الأعضاء الرئيسية، وكنـت أعرف معـنى هـذا، كنـت أعرف بأنـي سأصاب خلال وقت قصير بسكتة قلبية، بأن دماغي سيموت، بأنـي سأموت.

فكرت بأن هذه ليست الطريقة التي رسمتها لحياتي.. لا يفترض بي الموت بهذا الشكل.

شعرت في اللحظة التالية بأن كل شيء من حولي قد تحوّل وانقلب، وفجأة، وجدت نفسي أنظر إلى جسدي من الأعلى من أحد زوايا سقف الغرفة، اختفى الشعور بالألم، وشاهدت أشعة الضوء تخرج من المصابيح بشكل تعرجات ورأيت كل قطرة في كيس المحلول الملحي المعلق إلى جانب السرير. رأيت قمة رأس رئيس القسم وقطرات العرق المتراقصة على جبينه، نظرت إلى الأسفل وشاهدت نفسي مسجى على السرير، صغيراً ضعيفاً هشاً وشاحباً للغاية، رأيت شاشات المراقبة أيضاً والخطوط الظاهرة عليها والأرقام التي تعلو وتهبط بصورة متقطعة، وشعرت بأنـي أسمع الدم في عروقي وشعرت بأنه لا يكفي، سمعت خفقان قلبي كصوت طبل بعيد جداً يُقرع بسرعة، شاهدت كل ذلك بلا أي مشاعر ولم أشعر بالحزن بل بمجرد الوعي التام بكل ما يجري لي وحولي.

كان رئيس القسم يصر للآخر بأنه لم يترك أي مصدر للتسرب في البطن مما يعني بأن النزيف الداخلي يجري في مكان آخر بلا شك، فصاح معاون رئيس قسم الأعصاب:

"لا بد أنك لم تنتبه لشيءٍ ما، إنه مثبت إلى جهاز التنفس الاصطناعي ولا يحتوي جسده على أية كسور مميتة، إنه ينزف داخلياً في بطنه، لا بد أنك لم تنتبه لشيءٍ ما".

بدا الأمر كمشاهدة مسرحية، وتمكنت في الوقت نفسه من الشعور بالإحباط والخوف اللذين اعتريا معاون رئيس قسم الأعصاب، واختيال وغرور

رئيس قسم الجراحة العامة، شعرت بكل ما شعر به الموجودون في الغرفة.

وضع المعاون يده على ساقي وقال:

"أيها الأحمق، إذا لم تُعده إلى غرفة العمليات فسوف أعيده بنفسى..
والآن".

وافق الرئيس بسرعة، شاهدتهما يعيداننى بسرعة إلى العمليات، اقتربت
منى إحدى الممرضات وهمست فى أذنى:

"لا تتركنا يا جيم، نحن نحتاجك، ستكون على ما يرام".

ثم غرق كل شيء فى السواد من حولى.

لا يمكننى إيفاء ما جرى بعد ذلك حقه من الشرح مهما حاولت كما لا
يمكننى نسيانه، فقد كانت تجربة محيرة وخارقة للطبيعة، التجربة التى تكرر
وصفها عبر العصور.

وجدت نفسى أطفو على نهر ضيق، وكنت أتحرك ببطء فى البداية،
وشاهدت أمامى نوراً ساطعاً أبيض اللون أشبه بشعلة من اللهب، ازدادت سرعتى
فاقتربت منه للغاية، وعلى ضفتى النهر، شاهدت أشخاصاً أعرفهم متجمعين
على طول الطريق، واعتقدت أنى شاهدت والدى وروث، شعرت بأنى محبوب
ومُحتوى بطريقة لم أشعر بها من قبل، وكان معظم الناس الذين رأيتهم أحياء،
كأُمى التى كانت ترتدى رداء الاستحمام وأخى الذى راح يمازحنى كما عندما كنا
صغاراً فى غرفتنا فى لانكاستر، شاهدت الفتاة التى أحببتها فى المدرسة
الإعدادية ودراجتى البرتقالية الحبيبة، وشاهدت نفسى أركب الحافلة لأول مرة إلى
إرفن، ثم حين ارتديت المنزر الأبيض للمرة الأولى، ثم حين تلمست بوجهى
رطوبة الليل قبل ساعات فقط من وقوع الحادث، فى تلك الليلة عيناها، شعرت
بازدياد حرارة النور الأبيض واقترابه منى، وقد أدركت بطريقة أو بأخرى أن هذا
النور هو الحب وأنه الشيء الوحيد الذى له أى معنى فى هذا الكون، كل ما

توجب علي فعله هو الوصول إليه، وقد عرفت أنني سأتحّد مع كل شيء حين أصل إليه، إنه الشيء الذي كنت أبحث عنه، إنه الشيء الوحيد الذي أحتاجه، أردت الاتحاد بالنور، ثم أدركت أنني لن أكون جزءاً من العالم حين أتحّد به، وأنني سأموت، فصرخت:

"لا".

أو على الأقل، ظننت أنني صرخت.. فعدت خلفاً بسرعة مبتعداً عن النور كما لو كنت مقيداً إلى حلقة مطاطية فُتحت إلى أقصاها ثم أفلتت، كنت أعود إلى الخلف بسرعة كبيرة إلى درجة أنني لم أفهم تماماً ما يجري من حولي وشعرت باختفاء كل من حضر للسلام عليّ.

ما تزال عيناى مغمضتين لكنى سمعت طنين الأجهزة.

كل ما كان علي فعله هو فتح عيني.

"جيم، هل تسمعني؟" شعرت بيد ترتب على قدمي ففتحت عيني، سطع نور الغرفة فوق رأسي مباشرة فأغلقتهما من جديد.

"جيم.. أخبرتك أننا نحتاجك هنا.. من سيضحكنا ويشير الأجواء إذا لم تكن أنت؟".

مددت يدي ولمست ذراعها وسألت:

"هل أنا حي؟".

"بالطبع أنت حي، اضطررنا لضخ الكثير من الدماء في عروقك لكنك ستكون على ما يرام، وضعك مستقر الآن".

"هل أصدقائي بخير؟".

"إنهم على ما يرام، إنهم جميعاً مرضى مزعجين، لكنك ستكون على ما يرام إلا إن قتلناك أثناء نومك". ثم ضحكت.

"هل متُّ؟".

"أنت حيّ الآن".

"لا، بل أعني.. هل متُّ؟ هل اضطررتم لإنعاشي هناك؟".

"لا، لم يكن وضعك مستقراً وهبط ضغط دمك جداً جداً، لكنك لم تتعرض لسكتة قلبية، وجدوا في بطنك شرياناً نازفاً لم ينتبهوا له قرب الطحال، وأربعة لترات من الدم المراق داخل البطن مما فسر الضغط المنخفض، نقلوا لك ست عشرة وحدة من الدم، لكنك لم تمت.. لا، على الأقل لم أسمع أنا بذلك".

ونظرت إليّ بتساؤل واضح.

"لا شيء.. هناك أمر غريب وحسب.. كنت أطفو على نهر.. ثم توقفت عن الكلام.. فمهما كانت تلك التجربة التي خضتها، فإنني لست مضطراً لشرحها للناس، راجعت بعقل الطبيب الأحداث الفيزيولوجية التي جرت لي.. هل تسبب نقص الأكسجة الحاد في دماغي بما اختبرته؟ هل انبعثت في دماغي كميات هائلة من الإشارات العصبية؟ هل كان كل ذلك هلوسات عائدة للصدمة وفقدان الدم؟ لم أنظر خلال ذلك الوقت لما يجري من حولي بعين الطبيب.. لكنني أفعل ذلك الآن.. أهذا سر عصي من أسرار لن يكتب لي حلّه أبداً؟

قدرت الإحصائيات عدد الأشخاص الذين اختبروا تجربة اقتراب من حالة الموت في الولايات المتحدة بأكثر من خمسة عشرة مليون شخص. وفي عام 2012، أصدرت مجلة لانست في عددها دراسة تقول أن ما بين اثني عشر وثمانية عشر بالمئة من المرضى الذين يعانون من سكتات قلبية أو توقف عن التنفس يعانون من تجربة اقتراب من الموت بعد مرورهم بظروف صحية صعبة كانخفاض ضغط الدم وانخفاض أكسجة الدماغ أو ضعف وظائف الدماغ بسبب

الحوادث أو الصدمات، وهذه التجارب المتشابهة تتضمن غالباً أوصافاً للخروج خارج الجسد، والطفو والعودة بالذاكرة نحو الماضي والشعور بوجود أحبابه الموتى أو سماع أصواتهم، والشعور أيضاً بدفء ومحبة خالصة لا توصف، والعبور فوق نهر أو من خلال نفق يؤدي في النهاية إلى نور ساطع، وقد وصفت تلك التجارب من قبل أناس ينتمون أيضاً لثقافات حضارية مختلفة على مرّ التاريخ.

في كتاب جمهورية أفلاطون توجد قصة اسمها "قصة إر" وهو جندي قتل أثناء إحدى المعارك، لكنه يكتشف أنه لم يموت، ويستيقظ في جنازته وفوق محرقة بعد مرور اثني عشر يوماً على موته. وقد وصف ذلك الجندي في القصة تجربة اقترابه من الموت، أو تجربة (الموت) بما فيها العديد من العناصر المشتركة مع التجارب المشابهة المعاصرة. وقد ادعى البعض أن اللوحة الشهيرة التي رسمها الفنان الهولندي هيرونيموس بوش في القرن السادس عشر والتي تحمل اسم (الصعود إلى الفردوس) تمثل تجربة اقتراب من الموت بسبب النفق الذي يقود إلى نور باهر تحيط به أطياف وهياكل، وأنها تمثل عالم ما بعد الحياة على الأرض. كما توجد قصة الأدميرال البريطاني بيوفرت الذي وصف حادثة اقترابه من الموت غرقاً عام 1795، والطبيب الأمريكي ويلتز الذي وصف عام تجربته المماثلة حين أصيب بمرض التيفوئيد. كل من تلك التجارب تحتوي على عوامل مشتركة، وهي رؤية الجسد عن بعد والشعور بالطفو ورؤية الأحباب والحركة عبر نفق يغمره نور باهر.

استعمل عالم النفس والابستمولوجي الفرنسي فيكتور إيغار في أواخر القرن التاسع عشر المصطلح الفرنسي *experience de mort imminente* على تجربة الموت الوشيك لوصف ظاهرة مشابهة تحدث لمتسلقي الجبال حين "شاهدوا" أحداث حياتهم تمر أمام أعينهم عندما غابوا عن الوعي واعتقدوا أنهم ماتوا بالفعل. ومؤخراً، نشرت سيليا غرين عام 1968 دراسة لأربع مئة حالة من تجارب الخروج من الجسد التي قادت الناس للتساؤل عن إمكانية وجود الوعي خارج أجسامنا. وفي عام 1975، نشر الطبيب النفسي ريموند مودي كتاباً يتناول تجارب مشابهة ونحت المصطلح الجديد "near death experience".

وحاز على اهتمام العلماء بتلك الظاهرة، والتي لم توصف قبلاً سوى في الموروثات الدينية وعند الفلاسفة والميتافيزيقيين. وقد تضمنت العديد من التجارب أوصافاً لرموز دينية كالملائكة والقديسين والأنبياء كالسيد المسيح ومحمد، وعادة ما ترتبط تلك الرموز بمعتقدات الشخص الذي مرّ بالتجربة. وتمثل تلك التجارب للكثيرين نقطة تحول في حياتهم، كما أن الأشخاص الملحدين الذين خاضوا تجارب مشابهة وصفوا بعض العناصر المشتركة مع تجارب الأشخاص المؤمنين، وأحد أشهر التجارب هي تلك التي خاضها الفيلسوف البريطاني A. J. Ayer، مؤلف كتاب: اللغة والحقيقة والمنطق، وهو ملحد شهير، حيث كاد يختنق أثناء تناول الطعام عام 1988، وقال بعد تلك الحادثة:

"لقد أضعفت تجربتي من موقفي الصارم وإيماني التام وثقتي بعدم وجود حياة بعد الموت".

لم تغير تلك التجارب معتقدات بعض الملحدين فيما سبّبت لبعضهم الآخر تحولاً روحياً لافتاً.

وقد دفعت أعمال مودي وآخرين غيره العلماء بشكل مطرد لدراسة هذه الظاهرة، بالإضافة لمعرفةنا بإمكانية إجراء هذه التجارب باستخدام بعض العقاقير كالمنومات (مثل الكيتامين) أو المنشطات. كما يمكن لنا استحداثها بتحريض الفص الصدغي أو الحصين hippocampus في المخ كهربائياً، كما يمكن تحريضها أيضاً بنقص أكسجة الدماغ عبر تقليص كمية الدم الواردة له كما يحدث للطيارين الذين يحلقون على ارتفاعات شاهقة أو من خلال زيادة نسبة الأكسجة. ومن المثير للاهتمام أن التجارب المتعمدة لا تؤدي إلى تحولات روحية أو منعطفات في حياة الأشخاص الذين خاضوها كما حدث عند من خاضوها صدفة. أليكون خطر الموت القاسم المشترك بين التجارب التي أدت لتحولات روحية، أم أن قسماً من الدماغ هو من يصوّر الموقف على أنه كذلك؟

لقد سلّمت عالمة النفس سوزان بلاك مور بأن عبور نفق ينتهي إلى نور باهر ينتج عن ارتفاع الضجيج العصبي بسبب انخراط أعداد هائلة متزايدة

طرداً من الخلايا العصبية في التفاعل مع نقص الأكسجة في الدماغ، كما اقترحت أيضاً أن السكينة والسلام اللذين يغمران المرء عائداً لكميات هرمون الإندورفين الكبيرة التي تفرزها الغدد بسبب الحادث، وقد طبق عالم النفس جيمو بورجاينغ في دراسة حديثة طريقة نقص الأكسجة على مجموعة من القوارض فأظهرت أدمغتها زيادة في ذبذبات غاما وتناغمها، فيما كانت معروفة في السابق بتناغمها الشديد، حيث كانت تصدر كل ثلاثين ثانية من الانقباض القلبي، أي أن أدمغة الفئران التي حُرمت من الأوكسجين وعانت من السكتات القلبية وماتت في النهاية مرّت بفترة من الإدراك الشعوري والوعي العالي بعد الموت، وقد لوحظ ارتفاع ذبذبات غاما لدى الأحياء الواعين ولدى أصحاب الوعي المرتفع المعتادين على تقنيات التأمل، وعند النائمين الغارقين في حالة النوم العميق، حين تتحرك العيون بسرعة، وهي الفترة التي تتبلور فيها الذكريات وتترسخ أثناء النوم. ولهذا.. من الواضح أن هناك مجموعة من الأحداث العصبية - الجسدية الموثقة والتي تحدث حين المرور بتجربة الموت الوشيك وأنها ممكنة الحدوث خلال مرور الدماغ بظروف قاسية أخرى أو يمكن توليدها بطرق عدة لا علاقة لها بالموت الوشيك.

إن معتقداتنا هي تجسيد لتجاربنا الحياتية كما هو حال قسم كبير من أحداث حياتنا، وليست أدمغتنا سوى البوتقة التي تنصهر فيها كل التجارب معاً، ولكن.. ماذا عن تجارب القلب؟ وما يثير اهتمامي أكثر من العلم والأبحاث والفرضيات حول حياة ما بعد الموت التي نتجت عن حوادث الموت الوشيك هو العامل الذي تشترك فيه جميعاً. لماذا وصف الجميع حركة سريعة عبر نفق يؤدي لنور باهر ودفئ وشعور بالحب؟ ربما نمرّ جميعاً خلال حالة الموت الوشيك بأكثر ما تتمناه قلوبنا.. نشعر بالحب اللامشروط والترحيب والاحتواء ودفئ الوجود ضمن كل أكبر أشبه بعائلة محبة، بالانتماء.

لا أعرف ما جرى لي بالضبط بعد حادث السيارة ذاك، عندما هبط ضغط دمي إلى أن كاد ينعدم، لكنني أدركت في النهاية أن التفسير غير هام.. لست بحاجة لفهمه، ربما متُّ بالفعل وربما لم أمت.

أنا لا أعرف وهذا يكفي.

إلا أنني متأكد أنني متُّ مرات عديدة في هذه الحياة، مات الصبي الضائع اليأس، متُّ بالفعل في متجر ألعاب سحرية، مات الشاب اليافع الذي شعر بالعار والرعب من والده، الذي ضربه وغادر بقطرات من دم أبيه على يديه، لقد متُّ حين غادرت البيت إلى الجامعة، ومع أنني لم أدرك ذلك يوم الحادث إلا أن جراح الأعصاب المتعجرف المغرور الأناني الذي كنت قد مات أيضاً هناك، يمكن لنا أن نموت ألف مرة في حياة واحدة وهذه أعظم هبات الحياة لنا، في تلك الليلة، مات اعتقادي بأن سحر روث جعلني عصياً على الموت وعلى أي شيء آخر، والاعتقاد بأنني وحيد في هذا العالم.

شعرت أن ذاك بدفء النور وجمال الاتحاد بالكون، لقد احتواني الحب ودفعني للتفكير بأن ماهيتنا اليوم لا يجب أن تكون ماهيتنا غداً بالضرورة، وأنا جميعاً مرتبطون بكل شيء وكل شخص، رغم أنني لم أغير معتقداتي الدينية. استعدت وعيي ذلك اليوم في المستشفى شاعراً ببعد المسافة التي تفصلني عن ذلك الصبي الذي كان يركب دراجته البرتقالية اللامعة والصيف الذي قضاه في متجر السحر، لكنني لم أكن أعرف يومها كم من مسافة سأقطع فيما بعد، وقد مثلت لي رؤية روث على ضفة ذلك النهر والشعور بالحب والارتباط بالكثيرين تنبيهاً بأنني ابتعدت كثيراً عما حاولت تعليمي إياه، لكنني احتجت لسنوات كثيرة أخرى وأخطاء مؤلمة عديدة لأدرك ذلك.

الفصل التاسع

سلطان العدم

شاطئ نيوپورت، كاليفورنيا عام 2000

استيقظت في صباح أحد الأيام وفي حوزتي خمسة وسبعين مليون دولار، لم أكن أحوزها بين يدي بالطبع، وفي الواقع.. لم أرها بعيني ناهيك عن عذّها، لكنها كانت موجودة في مكان أقوى بكثير من أي بنك، كانت موجودة في ذهني.

كنت عازباً في ذلك الوقت بعد حصولي على الطلاق من زواجي الأول، إذ لم تسمح لي المهنة والسعي خلف الثروة والنجاح بأن أكون زوجاً جيداً أو والداً ممتازاً لابنتي. ويقال أن معدلات الطلاق عند الأطباء أعلى بعشرين بالمائة من أمثالها عند الناس الآخرين، ونسبة حدوث الطلاق بين أطباء الأعصاب أعلى كذلك، ولم أكن حالة استثنائية عن تلك القاعدة.

مددت ذراعي عبر السرير إلى أن لمست الجسد الدافئ المستلقي بجانبني، إنها آليسون، أو ربما كانت ميغان.. لا أذكر بالضبط، لكن بشرتها كانت دافئة وناعمة، سمعت صوتها يهمس شيئاً ما وهي تتقلب في مكانها.

نهضت من السرير بهدوء وخرجت من الغرفة ثم نزلت إلى الطابق السفلي، كنت أحتاج إلى القهوة، وإلى معرفة ما دار في سوق الأسهم المالية أثناء نومي. أشعلت الحاسوب وانتظرت استكمال بدء برامجه كالمعتاد. كنت في الرابعة والأربعين من العمر وأخطط للتقاعد من المهنة خلال عام من ذلك التاريخ. كانت حياتي على شاطئ نيوپورت مختلفة كثيراً عن حياتي في

لأنكاستر، فقد أصبحت أحد أهم جراحى الأعصاب في مقاطعة أوريغون، وكنت أعيش على مرتفع مطل على خليج نيوبورت في بيت تبلغ مساحته سبعة آلاف وخمسمائة قدم مربع، ولم يكن مرأبى يحتوي على سيارة البورش التي حملت بها في صباي فقط، بل على رينجروفر وفراري وبى إم دبليو ومرسيدس.

لقد حصلت على كل ما وضعته على قائمتي وأكثر، أكثر بكثير.

سمعت من أحد أصدقائي قبل سنوات من ذلك اليوم فكرته عن تقنية جديدة في حقل العلاج الشعاعي للأورام الصلبة في الدماغ، كان قد أنهى فترة إقامته للتو وقبل منصباً في جامعة ستانفورد حيث خطط لتطوير تلك الآلية وإحالتها إلى حقيقة واقعة بعد أن كانت مجرد فكرة في دماغه. ثم استحدث شركة وأسعدني جداً أن أكون واحداً من المستثمرين الخمسة فيها، وأخبرته أنني سأضع أول جهاز من نوعه خارج جامعة ستانفورد في شاطئ نيوبورت. لم أكن أعرف وقتها أن حدثاً واحداً كهذا قد يغير مسار حياتي بكامله. وضعت أول جهاز من نوعه بالفعل، والذي عرف باسم CyberKnife، وأقنعت طبيباً غنياً من أصدقائي - الذي حصل على ثروته بسبب إرث عائلي - بأن هذه التقنية ستغير العالم فصدقني، ولم يشتر الجهاز الأول فقط بل اشترى له مبنى كاملاً ليضعه فيه وجهاز تصوير شعاعي ووحدرة رنين مغناطيسي لتتماشى معه. أنفق صديقي ملايين الدولارات بسبب حماسي وثقتي في تلك التقنية الجديدة. كان الجهاز يحتاج إلى موافقة من جمعية الأطباء الفيدرالية في ذلك الوقت ولم يكن معروفاً للناس، وخلال عامين من ذلك، أفلس صاحب المشروع (أكيوراي) بسبب سوء الإدارة وعدم القدرة على زيادة رأس المال. لم يتمكن المصنعون من الحصول على موافقة جمعية الأطباء بعد مرور عدة أعوام وقاربت نسبة بيع الجهاز من الصفر، لم تترك الشركة باباً إلا وطرقته، لا في منطقة سيليكون فالي وحدها بل في الولايات المتحدة بكاملها في محاولات لا تنتهي لزيادة رأس المال. ازدادت الأمور سوءاً، شارف المستثمرون الذين آمنوا بإمكانيات تلك التقنية الجديدة وكرسوا الملايين في المشروع على خسارة مالههم وأسفوا لاحتتمال فقدان العالم لتلك الطريقة الجديدة في العلاج. شعرت بضرورة القيام بشيء ما فقررت إنقاذ الشركة.

لم تكن عندي أية فكرة عن إدارة الأعمال مع أنني اخترعت قطباً كهربائياً لرسم نشاط الدماغ حين كنت طبيباً مقيماً وبيعت مثيلاته في جميع أنحاء العالم، إلا أن هذا كان أمراً مختلفاً.. إنه مشروع كبير. أخبرت صديقي بأني أفكر بخطة ولا أعرف إن كان قد آمن بأني سأساعده بالفعل أو أنه لم يكن يملك خياراً آخر، إلا أنه شجعني. تناقص عدد الموظفين في الشركة من ستين إلى ستة فقط، وقبلت تمويلها بنفسني أثناء البحث عن حل للمعضلة. لم تكن لدي خطة، وقد خطرت لي الفكرة أثناء احتساء شراب في مقهى فندق الفصول الأربعة الذي كان موجوداً آنذاك في جزيرة فاشن في نيوبورت. كنت أنتظر امرأة لأتناول معها العشاء حين أجريت حديثاً مع الشخص الجالس بقربي وأخبرته عن مشروعنا وفائدته في إنقاذ حياة الآلاف، كل ما كنت بحاجة هو شخص يمنحنا المال لدعم المشروع إلى أن يقف على قدميه، فانتهى به الأمر لدعمنا والتبرع بثمانية عشر مليون دولار في حال قبولي بمنصب الإدارة. مما يعني أنني لم أسوق المشروع فقط، بل قدمت نفسي كأحد أعمدة نجاحه، فتخلّيت عن عملي الناجح الخاص لأصبح مدير شركة، دون أي خبرة أو تجارب سابقة. كل ما كنت أملكه هو إيمان عميق بقدرتي على إنقاذ الشركة ورغبة حقيقية في ذلك.

أعدت بناء الشركة خلال عام ونصف وحصلت على موافقة جمعية الأطباء عليها ورفعت قيمة الشركة المالية من الإفلاس التام إلى مئة مليون دولار. التقيت خلال ذلك الوقت بالكثير من الناس كالرأسماليين ورجال الأعمال المبتدئين الذين اعتقدوا جميعاً بأني أملك سحراً من نوع خاص لقدرتي على عكس مسار الشركة وتحويل فشلها إلى نجاح منقطع النظير. لكنني لم أكن أملك من ذلك السحر شيئاً. حاولت إخبارهم بأني لا أعرف شيئاً عن عالم الأعمال، لكنهم كانوا يطلبون مني زيادة الاستثمار أو مشاركتهم في أعمالهم أو منحهم نصائحي على الأقل، وقد انتهت بي تلك الجلسات وأولئك المعارف بشراء الكثير من الأسهم التجارية. وفي عام 2000، كانت أسهم المواقع الإلكترونية في أوجها واعتقد الناس أن استثمار أموالهم في شراء أسهمها أفضل من الاتجار بالذهب، وكانت حيازة تلك الأسهم تمنح مالكيها بالفعل مجموعة من الاعتمادات المالية في أي بنك في العالم.

اتصل حاسوبي بالإنترنت أخيراً فألقيت نظرة على أرقامى، وتأكدت من أنى ما أزال أملك تلك الثروة. حلمت فى صباى فى حىازة مليون دولار لكن حماسى لحيازة 75 مليوناً منها كانت أكبر من حماسى حين حصلت على المليون الأول. كنت غنياً بالفعل. أغلقت شاشة الحاسوب ونظرت خارج النافذة نحو أفق المحيط الأزرق.

كان المنزل هادئاً، آلىسون أو مىغان لم تستيقظ بعد لكنى لم أرغب فى مشاطرتها لأخبارى. شعرت بالحزن للتفكير بوجودها معى، فلم نكن نعرف أى شىء عن أحداً الآخر. أعرف أنها تعمل مندوبة مبيعات أدوية وتعرف هى أنى غنى، وأن لى طاولة محجوزة على الدوام فى أفضل مطعم فى مقاطعة أوريغون. اقتربت منى فى الليلة الماضىة مع أصدقائها فشربنا الشراب، وعندما سألتها عن رأيها فى أفعالنا المجنونة ضحكت وقالت أنها تعتبرنى رائعاً. أدركت أن حياتها تحتوي على قصة ما لكنها لم ترغب فى الحديث عن مشكلتها ولم تبد متشوقة لسماع قصتى أيضاً، وهكذا، اتفقنا على التظاهر بحميمية لم توجد يوماً، كما حصل فى لىال كثيرة مع الكثير من النساء الأخريات. تشاطرنا أجسادنا لكنا لم نسمح لعقولنا أو لقلوبنا بتعقيد الأمور. وقد دفعنى ذلك للشعور بالوحدة وبأنى شخص فارغ، لكنى تعلمت مع الزمن تجاهل أصوات الشك والقنوط الهادرة فى رأسى قبل وقت طويل.

لقد حصلت على كل ما حلمت يوماً به، احترمنى الناس وأشاروا لى بالبنان، وكنت على وشك شراء جزيرة خاصة لى فى نيوزيلاند وتحويل الدفعة الأولى من ثمنها. امتلكت الطابق الأخير من أحد الأبنىة فى سان فرانسيسكو وفيلا فى فلورانس تطل على بونت فيشيو. امتلكت ثروة تجاوزت سقف أكثر أحلامى خيلاً وإنجازات طبية مرموقة فى عالم الطب والأعمال، لكن الوحدة كانت تقتلنى.

خططت للتقاعد وإمضاء بعض الوقت فى التبرع بخدماتى مجاناً فى بلدان العالم الثالث والتنقل فيما يبقى لى من الوقت بين سان فرانسيسكو وفلورانس ونيوزيلاند. ولم أكن أقلق من شعورى بنقص شىء ما من حياتى لأنى

كنت أجده خلال سفري مهما كان.

وجدت آليسون أو ميغان طريقها نحو الطابق الأرضي فوقفنا بطريقة غريبة وانتظرنا سيارة الأجرة التي طلبتها لها. كان عندي اجتماع مع شركة المحامين ثم سأتوجه إلى نيويورك لإمضاء أسبوع في بحث الأعمال، وعدتها بمكالمتها حين عودتي فكتبت لي رقمها على ورقة وغادرت بعد قبلة باردة. وضعت الورقة في أحد أدراج المطبخ وألقيت عليها نظرة أخيرة. كتبت اسمها فوق الرقم فاكتشفت أنها ليست ميغان ولا آليسون، بل إيميلي.. لكن الأمر ليس مهماً لأننا نعرف كلانا بأني كذبت حين وعدتها بالاتصال بها.

رافقني المحاميان إلى مكتبهما بدمائة. وقد نصحني أحد أصدقائي المستثمرين بهذه الشركة لأنها كانت تتولى إدارة شؤون سلطان بروناي في الولايات المتحدة، ولم أكن أعرف إذا ما كان ذلك صحيحاً لأن أسماء الوكلاء كانت سرية. نصحني محاسبي بإقامة صندوق خيري لا يقبل الارتجاع وتخصيص بعض ممتلكاتي للأعمال الخيرية لتخفيض ضرائبي، فأوكلت شركة المحاماة هذه لتنفيذ الإجراءات القانونية لذلك.

"راجعنا ملفك يا دكتور دوتي فوجدنا أنك تملك الكثير من الأمور الملفتة للنظر، وهناك العديد من الاعتمادات المالية الخاصة بالأعمال الخيرية، هل ناقشتها مع محاسبك؟ هذا ليس أمراً تافهاً لرجل في مثل وضعك".

فكرت بكلامه.. رجل في مثل وضعي.. تناولت نفساً عميقاً وسمعت السؤال يرنّ في ذهني.. من هو الشخص الذي أحاول حقاً أن أثبت له قيمتي وحجم أملاكي.. أحاول إثبات ذلك لنفسي أم للعالم من حولي؟

"لقد ناقشنا ذلك ونصحني بافتتاح صندوق خيري غير قابل للارتجاع".

"وهل تدرك العواقب القانونية لمثل هذا الصندوق؟" سألني المحامي الآخر.

"إنه بلا رجعة". قلت ساخراً.

يفتقر محامو الشركات لحس الدعابة إلا ما ندر منهم، فقال:

"لا بد من أن يكون بلا رجعة إذا ما رغبت في توفير بعض من مال الضرائب. هذا يعني أنك لن تتمكن من تغيير أي شيء في الصندوق أو استعادة أي من أملاكك بمجرد افتتاحه، وفي حالتك هذه، نحن نتكلم عن أسهم شركتكم: أكوراي".

لقد قررت التبرع بأسهمي، لم تكن أغلى أسهمي لكنها قد تصنع الملايين في المستقبل، وكنت أخطط لتخصيص أغلبها لتولن والبقية لستانفورد حيث أصبحت عضواً في مجلس الإدارة وحيث تطورت الآلة التي اخترعها زميلي للغاية. بحلول ذلك الوقت، كان أخي قد توفي بسبب مرض الإيدز، ولهذا خططت للتبرع ببعض من الأسهم لتمويل برنامج أبحاث الإيدز بالإضافة لعدد من المشاريع الخيرية لمساعدة الأطفال المحرومين والأسر الفقيرة. وجزءاً آخر لدعم عيادات الصحة في مناطق عديدة من العالم.

"أفهم ذلك".

"إذا لم تكن مرتاحاً لحالة الصندوق الدائمة، يمكنك تغييره إلى صندوق مرتجع حتى وفاتك. وبعض الناس يختارون هذا لكن الوضع الضريبي يختلف في تلك الحالة".

"أريد له أن يكون صندوقاً غير مرتجع". أكدت لهما، فمنح ذلك المال بأي طريقة كان أمراً هاماً لي ولهذا لم أكن لأغير قراري.

"حسناً، سنقوم بالإجراءات القانونية لذلك إذاً". وأمضينا الساعتين التاليتين في مراجعة حالة أسهمي والأعمال الخيرية التي أرغب فيها. شعرت بأني شخص هام وكريم في النهاية واختفى الشعور بالفراغ والوحدة التي كنت أعاني منها في الصباح.

لا يفوقني سلطان بروناي أهمية.

استقلت الدرجة الأولى على طائرة متجهة إلى نيويورك ونزلت في جناح في فندق بالاس الذي كان سلطان بروناي يملكه في ذلك الوقت، كان أحد أصدقائي يديره فحجزوا لي جناحاً كبيراً مهيباً، وتوجت أسبوعي في نيويورك بلقاء مع رجل أعمال دعاني مع صديق آخر لمساعدته في شؤون شركة يمولها، وكان مقتنعاً بأن وجودنا في شركته سيضمن له النجاح. حاولت ثنيه عن رأيه وقلت أنني أخالفه الرأي لكنه ظن أنني أتواضع، ركل صديقي المستثمر قدمي تحت الطاولة حين خالفت صاحب الدعوة رأيه.

اجتمعنا لبحث شراكتنا المحتملة والفرصة التي أتحت لي لوضع طوق من الحماية على بعض أسهمي التي كانت تبلغ قيمتها عشرات الملايين، لكن بعض المتداولين في السوق كانوا يشيرون بأن تلك الفقاعة لن تدوم. وهكذا يمكنني الطوق من تلقي المال بقيمة محددة مسبقاً ومحمية من أي انهيار في أسعار السوق، وإذا ما ارتفعت الأسعار يمكن للآخرين شراؤها حسب القيمة المقدرة سابقاً ليتمكن الشاري من حصد الأرباح، وقد نصحني الكثيرون بتغطية استثماراتي بهذا الشكل.

التقينا في لا سيرك، وهو مطعم رفيع للذواقة في الفندق وشربنا البيليني وأشياء باهظة أخرى. وكان لقاء شكلياً لأننا اتفقنا من قبل على أن يمنحنا خمسين في المئة من الشركة مقابل مساعدتنا له في استثمار المزيد في سوق الأسهم وتقديم النصح الاستراتيجي له. ناقشنا الأمر لوقت قصير ثم انتقلنا للحديث عن الطوق الذي سأضعه على أسهمي الثمينة، وبعد النقاش والاتفاق على كل الشروط، أعطاني ورقة لأقرأها وأمضي عليها.

أفاق صديقي الذي كان صامتاً يتناول الشراب بغزارة طوال الوقت وتدخل قائلاً:

"نريد ستين في المئة من الشركة".

لا بد أن شراب البيليني قد منحه معرفة جديدة بقدراتنا أو بأهميتنا فقرر ضرورة حيازتنا لمعظم أسهم الشركة.

"عمّ نتحدث؟ اتفقنا على خمسين في المئة قبل عشرين دقيقة".

"إذا كنت تريد خبراتنا فلا بد من منحنا ستين في المائة، أو ننسى الموضوع".

ذهب الخمر بمنطق صديقي وجعل منه شخصاً طماعاً جشعاً، حاول استغلال الموقف ولم أدرك سبب تصرفه بهذا الشكل لأنني كنت سأسعد بحصولنا على ثلاثين في المائة وحسب، وقد أخبرته بذلك صباح ذلك اليوم.

"اتفقنا على خمسين في المائة".

"سأرفع النسبة إلى خمسة وسبعين في المائة إذا ما تابعت الكلام، أو سنتخلى عن كل المشروع".

تحول كلامه إلى الصراخ ولاحظت أنظار الناس المتذمرة تستعرضنا بانزعاج.

"أنت أحمق". قال رجل الأعمال.

انفجر كل شيء في تلك اللحظة، قفز كل منهما عن كرسيه وتدخلت بينهما قبل أن يصطدما. شعرت بالخزي منهما لأن الناس لا يخوضون عراكاً عادة في هذا المكان.

غادرنا على الفور وعدت بالطائرة إلى البيت في اليوم التالي غاضباً بشدة من صديقي المستثمر وقلقاً بسبب عدم قدرتي على الاتصال بمدير الصندوق للاعتذار. لم أتوقف عن محاولة الاتصال به، وكانت مساعدته تخبرني بأنه غير موجود ويمكن لي ترك رسالة له، لا بد من أنه كان يحاول تقادي اللقاء بي أو الردّ عليّ.

تجولت على قدمي حول المنزل، كان عندي شعور حول المسألة برمتها، وبعد مرور ستة أسابيع طويلة ردّ مدير الصندوق أخيراً على مكالمتي، لكن الوقت قد فات على إصلاح ما جرى.

هبطت الأسعار وأصيب الناس بالرعب وانخفضت قيمة الأسهم وخسر الناس الملايين، ومع أننا لم ندرك ذلك آنذاك ولم نطلق على تلك الحادثة اسماً حينها إلا أن فقاعة الأسهم الإلكترونية انفجرت بالفعل وتلاشت.

انخفضت قيمة استثماراتي الصافية، واستلمت بياناً مالياً بعد آخر يؤكد ما كنت أعرفه مسبقاً، أن ملاييني الخمسة والسبعين قد ضاعت.

لم تضع وحدها، بل أصبحت مديناً أيضاً بالملايين بسبب قروض الائتمان المرتبط بقيمة أسهمي، مما يعني أنني أفلست كلياً وتاماً.

والشيء الوحيد الذي بقي لي، والأسهم الوحيدة التي كانت ما تزال تحتفظ بقيمتها هي الشركة التي حافظت عليها من الإفلاس وبنيتها من الصفر: أكويراي.

لكني تبرعت بها بلا رجعة، مما يعني أنني معدم تماماً، وأن قيمتي أقل من اللاشيء.

اختفى كل أصدقائي بسرعة مع اختفاء الأصفار من حسابي. توقفت المشروبات والوجبات المجانية واختفت أفضل الطاولات في أفضل المطاعم، وقضيت عامين من الصراع بعد بيع البيت الفخم والسيارات والفيلا وإلغاء شراء الجزيرة وبقيت مديناً بالمال. شاهدت كل ما جمعت يختفي خلال أشهر، تلاشى كل المال والسلطة والنجاح الذي حلمت به وتخليته في رأسي منذ صباي في رفة عين. لقد خلقته.. وتلاشى.

"لا تقلق، يمكنك القيام بسحرك من جديد". قال أحد الأصدقاء القلائل الذين حافظوا على علاقتهم بي.

هل كان سحراً بالفعل؟ بدت كل الاستثمارات والنجاح الذي أتى معها مجرد لعبة حظ. لقد أسكرني تكديس الثروة والقوة التي رافقتها. إلا أنني جراح في النهاية لا رجل أعمال، أمتلك بعض المهارة في الاستثمار وأبرع في تحقيق الأشياء ودفع الناس لتصديق ما جرى. كنت أعرف كيفية الاجتهاد والتركيز والطموح وجمع الناس حولي مما جعلني شخصاً ناجحاً، لكن قوتي الكامنة في لب كل تلك الأشياء هي قدرتي على المساعدة في شفاء الناس لا على استثمار الأموال.

حزنت على فقدان ثروتي وبذخي، وشعرت بالاكنتاب يوم حزمت حقائبتي لمغادرة بيتي آخر مرة، شعرت بالضياح والوحدة أكثر من أي يوم مضى، فقد خسرت زواجي ولم أكن جزءاً من حياة ابنتي، ولم أجد شخصاً واحداً يمكنني الاتصال به للشكوى. فخلال اللهاث خلف الأشياء تجاهلت العلاقات وأهملتها، وهكذا لم أجد أحداً حين كنت في حاجة ليد صديق.

وجدت صندوق أشياءي الخاصة القديم في قاع خزانة. لم أفتحه منذ أيام الجامعة، فأخرجت دفتر ملاحظاتي وقرأت قائمة أمنياتي عندما كنت في الثانية عشرة. وجدت صفحات أخرى دونت فيها ما تعلمته من روث وعبارات مضحكة لم أفهمها حقاً في ذلك الوقت. لقد تحقق كل ما كتبته على قائمتي بالفعل، لكنه اختفى الآن.

كنت ساحراً مريعاً.

قسمت أسابيحي الستة معها إلى أربعة أجزاء: إرخاء الجسد، ترويض الذهن، فتح القلب، تصفية النوايا. وكتبت فوق هامش القسم الثالث: البوصلة الأخلاقية ووضعت بجانبها إشارة استفهام، ثم: ما تظن أنك تريده ليس جيداً دائماً لك، وضعت بجانبها ثلاثة إشارات استفهام.

جلست على الأرض أمام الخزانة في البيت الفارغ تقريباً ثم تناولت ثلاثة أنفاس عميقة للمرة الأولى بعد وقت طويل جداً وبدأت بإرخاء كل قسم من

جسدي على حدة. ركزت أولاً على أنفاسي، شهيقاً وزفيراً وشعرت بالهدوء يكتنف أفكاري ثم ركزت على فتح قلبي وأرسلت مشاعر المحبة للصبي الذي كنت وللرجل الذي أصبحت، فتحت قلبي على الحقيقة، على أنني لست الشخص الوحيد الذي عانى من الخسارة، وفكرت بكل الفقراء الذين لا يجدون ما يسدون به رمقهم، بالمشردين وبأولئك الذين لا يرغبون سوى بأن يكون أطفالهم بخير. ثم تصورت النافذة في ذهني، وكانت باهتة مشوشة. لم أتمكن من رؤية ما يجري على الطرف الآخر منها، وهو مستقبلي، رغم كل محاولاتي الحثيثة. لم أكن أملك أي تصور عن مستقبلي للمرة الأولى منذ لقائي بروث، لم أعرف ما أريد تالياً من الحياة، لم أعرف ما أريد رؤيته على الجانب الآخر من النافذة.

عرفت ما أريد فعله في تلك اللحظة، لا بد لي من العودة لمتجر السحر، إلى لانكاستر، ربما وجدت نيل هناك، وربما ما تزال روث على قيد الحياة. تأبطت كراستي وتناولت مفاتيح السيارة الوحيدة التي أبقيتها: سيارة البورش، لأنها كانت السيارة الأولى التي حلمت باقتنائها وامتلكتها بعرق جبيني.

لا تبعد لانكاستر سوى بضع ساعات.

سأصل إليها قبل حلول الظلام.

الجزء الثالث

أسرار القلب

الفصل العاشر

الاستسلام

لو كانت حياتي فيلماً سينمائياً لوصلت إلى لانكاستر لأجد روث بانتظاري في متجر السحر، ولكانت تقارب التسعين من العمر، لكنها ستبدو بمظهر العجوز الحكيمة لا بمظهر العجوز الضعيفة. كانت لتشعر بقدومي ولتقول عبارات عميقة تساعدني على فهم فشلي.

لكن الحياة ليست فيلماً سينمائياً، ولهذا، فقد وصلت إلى لانكاستر وذهبت إلى عنوان متجر السحر القديم فلم أجد شيئاً. اختفت كل المنطقة التجارية، فاتصلت بالاستعلامات وطلبت منهم إيفائي بقائمة متاجر السحر في لانكاستر. لم تكن هناك أي متاجر للسحر في البلدة، إلا أنهم أعطوني رقم ساحر في مدينة بالماديل القريبة يحيي أعياد ميلاد الأطفال، فاتصلت بالرقم.

"مرحباً، أنا أبحث عن متجر قديم للسحر في لانكاستر، كان اسم مالكه (نيل) ولا أعرف اسم عائلته".

سكت الشخص على الطرف الآخر برهة ثم قال:

"هل تبحث عن ساحر؟".

"نعم، اسمه نيل، كان يملك متجراً للألعاب السحرية".

"لا يوجد أحد اسمه نيل هنا، أعتقد أنك اتصلت برقم خاطئ".

حاولت كبح جماح إحباطي فسألته:

"هل دخلت بالصدفة إلى متجر سحر في لانكاستر من قبل؟" فأجابني بصوت يشوبه بعض الانزعاج:

"لا يوجد متجر سحر في لانكاستر، يجب عليك الذهاب إلى لوس أنجلوس لتجد متجراً جيداً لبيع الألعاب السحرية".

"كان هناك متجر واحد في أواخر الستينيات، وكنت أتساءل إذا كنت تعرف أي شيء عنه أو عما حصل لصاحبه".

"حسناً، لقد ولدت في عام 1973".

تنهدت.. هذا ليس مجدياً، فشكرته واعتذرت منه.

"أتعلم، أذكر أنني سمعت شيئاً عن متجر للألعاب السحرية في لانكاستر، وقد أغلق أبوابه في الثمانينات، وأعتقد أن ذلك الرجل كان يصنع أوراق اللعب ثم أصبح مشهوراً جداً لكني لا أذكر اسمه. جرب الاتصال بالقلعة السحرية في لوس أنجلوس، فالكثير من القدماء في المهنة يتسكعون هناك".

شكرته مجدداً وأغلقت السماعه.

انطلقت متجولاً على قدمي فأدركت أنني أمشي على نفس الخط الذي اعتدت قيادة دراجتي عليه كل يوم جيئةً وذهاباً من وإلى متجر السحر. كل شيء مختلف الآن، إذ تحولت لانكاستر إلى ما يشبه مدينة حقيقية ولم تبق على حالها، البلدة الصحراوية المعزولة التي عشت فيها طفولتي. تجاوزت الحقل الفارغ الذي ما زال مهجوراً حيث التقيت قبل عقود بأولئك المتممرين، ورأيت صبيانا يلعبون هناك ويضحكون، وكانت الكنيسة المجاورة في مكانها كما عهدتها. لم تتغير بعض الأشياء. مشيت طويلاً إلى أن وصلت للبناء الذي قطنا إحدى شققه خلال ذلك الصيف فبدأ على حاله تقريباً، إلا أنه بدا قديماً متداعياً

أكثر مما كان يبدو في ذاكرتي. تقع شقتنا في الطابق الأرضي فوجدت دراجة متكئة على جدار شرفتها كما اعتدت أن أترك دراجتي قبل ثلاثين عاماً. انعطفت على زاوية البناء لأطل على الغرفة التي كنت أقطنها مع أخي، فوجدت ستائراً ممزقة تستر بالكاد زجاج النافذة فلاحظت وجود خيالات خلف الزجاج، فاقتربت قليلاً وعبرت المرح الخلفي الذي غطاه الطين أكثر من العشب فاكتشفت أن تلك الخيالات كانت ألعاباً صغيرة، فتذكرت كيف كنت أستعمل المكان نفسه لأضع ألعابي الصغيرة أيضاً. التفتت لأرى الشجرة التي اعتدت تسلقها أحياناً للهرب من شجارات والدي، أو لمجرد الاختلاء بنفسي، للبكاء أحياناً لفرط الشعور بالوحدة. ابتعدت قليلاً وولجت حقلاً تملؤه الأعشاب الصحراوية والقمامة ونظرت حولي، وقفت هناك أجيل نظري في الأنحاء لبرهة، شعرت بنفسي طفلاً من جديد، وشعرت برغبة عارمة بركوب دراجتي والتوجه لرؤية روث، فعبرت الحقل الذي اعتدت اجتيازه وباغتني فجأة نفير سيارة وأعادني للواقع.

لاحظت فجأة أنني لا أعرف الشيء الذي أبحث عنه ولا أعرف سبب حضوري إلى لانكاستر، لأن روث لم تكن تعيش هنا، كانت من أوهايو، وهذا إذا كانت على قيد الحياة حتى الآن. لم أكن أعرف اسم عائلتها، فعدت إلى سيارتي شاعراً بفقدان شيء هام ما. لماذا أتيت؟ ما الذي كنت أبحث عنه حقاً؟

وجدت كراسة ملاحظاتي القديمة على المقعد الجانبي، فتناولتها ورحت أقرأ ملاحظاتي عن تعليمات روث.

بوصلة القلب، هناك سطر تحت هذه العبارة. لا أذكر أنني لاحظت السطر قبل الآن، لا بد أنني غفلت عنه، كما لاحظت نجوماً مرسومة باللون الأحمر على جانبي العبارة، قلبت الصفحات مستعرضاً بقية الملاحظات فلم أجد سطوراً أخرى ولا نجوماً. لم خصصت هذه العبارة بتلك الإشارات؟ أغمضت عيني وحاولت استحضار الوقت الذي كلمتني روث عنها. كان يوم المشاجرة، اليوم الوحيد الذي وصلت فيه متأخراً، يوم طلبت مني فتح قلبي، تذكرت أنني جلست على الكرسي في الغرفة الخلفية، وتذكرت رائحة المكان، ثم عادت إلي الذكريات لأياً فلأياً ككلمات أغنية أو قصيدة.

يختبر كل منّا في حياته ظروفاً تسبب له الألم.

وأنا أسمىها جراح القلب.

لن تشفى منها إذا تجاهلتها.

لكن قلوبنا تفتح أبوابها أحياناً حين تصاب بالجراح.

وغالباً ما تمنحنا تلك الجراح أعظم الفرص للنمو.

الظروف الصعبة هي مَنْحٌ سحرية.

فتحت عيني. تذكرت لحظة هممت بالمغادرة في ذلك اليوم ولحقت بي روث إلى الخارج.

"أعرف ماهية البوصلة؟".

"بالطبع، البوصلة تطلعنا على الاتجاهات".

"قلبك هو بوصلتك، وهو أعظم هبة مُنحت لك يا جيم. افتحه يا جيم إذا ما شعرت بالضياح يوماً وسيقودك دوماً للاتجاه الصحيح".

قرأت الجملة الأخرى المكتوبة في أعلى الهامش: ما تعتقد أنك تريده لا يكون الأفضل لك دائماً. لقد حذرتني روث، طلبت مني فتح قلبي قبل تصور رغباتي وطلبت مني استعمال القوة التي تعلمتها بحكمة. لكني لم أفعل ذلك. هل كان فهمي لكل ما تعلمته فهماً خاطئاً؟ لقد ظننت بأنني أريد المال لكن الحقيقة هي أنني حصلت على المال لكني لم أشعر أبداً بالاكتماء منه. بدا الأمر لي وكأن العرض السحري الذي بدأته قبل سنين قد توقف الآن. لقد أديت الخدع السحرية الواحدة تلو الأخرى بلا توقف، وهكذا لم يتوقف التصفيق والاستحسان والتهتاف، واستمر العرض بلا توقف، وتكدست الملايين، وما زلت كما أنا، الصبي الوحيد الخائف الضائع الذي كنته حين التقيت روث لأول مرة. أنا

أعترف الآن بكل هذه الصراحة لأن جزءاً مني شعر بالحرية الآن بعد اختفاء المال.

لا توجد خدعة سحرية تدوم إلى الأبد.

استيقظت على صوت رنين الهاتف في الصباح التالي بعد العاشرة. لم تكن ثمة امرأة في سريري، ولم أكن مضطراً للنهوض باكراً للاطمئنان على أسعار أسهمي، فقد غرقت في النوم أثناء تصوري لعملية فتح قلبي وطلبت من بوصلة قلبي توجيهي نحو الاتجاه الصحيح. نمت بعمق، بشكل أفضل مما حظيت خلال سنين.

كان المتصل هو المحامي، وقال أن عنده أخبار رائعة لي.

"ما هي؟".

"راجعت وثائق خزانة وديعتك وأدركت أنها لم تُسجل بشكل رسمي ولهذا فهي غير كاملة لسبب ما، لم ننهها ولم أجد بين الوثائق ورقة واحدة توضح السبب، إنه خطأ ما. عندي هنا ملاحظات تفيد بكل رغباتك وقائمة أخرى بكمية الأسهم التي رغبت بمنحها لكل مشروع خيري. وقد سألت أحد شركائنا الكبار وقال أنه بناء على هذه الوقائع فأنت غير مضطر لتمويل الوديعة أو استكمال الوثائق".

جلست على طرف سريري.. هل فعل السحر فعله كما جرى في المرة الأولى حين وصل المال الكافي لدفع الإيجار في اللحظة الأخيرة؟ جلست صامتاً بلا حراك على طرف سريري، فسألني المحامي:

"جيم.. هل أنت هناك؟ هل سمعتني؟".

"سمعتك. شكراً لاتصالك".

"حسناً ماذا تريد مني أن أفعل؟" سألني، مندهشاً بلا شك من أنني لم أقفز فرحاً كرجل ربح اليانصيب للتو. لم أكن أعرف مقدار ما في الوديعة من مال لكنني أدركت أنني سأصبح مليونيراً من جديد، كل ما كان عليّ فعله هو عدم الإتيان بأي فعل.

"سأعاود الاتصال بك". قلت وأغلقت الخط.

أحد أساطير البشر الدائمة عبر العصور هو اعتقادهم بأن الثروة ستمنحهم السعادة، وأن المال هو حل كل مشكلاتهم. لقد خسرتهم وكانت تلك مشكلة كبيرة بالنسبة إلي. وها أنا على وشك استرداد كمية كبيرة منه، لكن المسألة تشكل لي مشكلة أيضاً، لأنني وعدت القائمين على تلك المشاريع بتمويلهم. كان والدي يقدم للآخرين الكثير من العهود الفارغة فأقسمت لنفسي أنني لن أكون أبداً رجلاً يقطع العهود ولا يفي بها.

عرفت أنهم سيتفهمون، إذ لن يتوقع مني أحد منحه آخر ما تبقى لي من ثروتي في وضعي الراهن. لن يُجرّمني أحد، في الواقع، أخبرني رئيس إحدى أكبر الجمعيات الخيرية أن الناس يتراجعون دوماً عن تبرعاتهم الكبرى، حتى بعد التوقيع على منحها، مما يجعل من تراجع مسألة مقبولة لأن ظروف الناس في تغير دائم، وقد تغيرت ظروفني بالفعل، ولست الآن في ظرف يسمح لي بمنح ملايين الدولارات للأعمال الخيرية.

أو أنني كنت قادراً على فعل ذلك؟

أغمضت عيني وتصورت قلبي مفتوحاً على محبة الآخرين، أرسلت الحب والمغفرة لنفسي عن كل ما ارتكبته في السابق، أرسلت لوالديّ الحب والامتنان على بذلهما لكل ما تمكنا من فعله. أرسلت الحب لروث أينما كانت لأنها كانت ألطف شخص التقيته قط، والحب لكل طفل يعاني اليوم من الفقر أو يعيش مع والدين مدمنين، أو يشعر بالوحدة معتقداً بشكل ما أن كل ما يجري هو خطأه هو. أرسلت الحب لكل من تساءلوا في أنفسهم عن قيمتهم، ولكل

شخص ظن يوماً بأن المال يعرفه ويمنحه هوية، أغلقت عيني وفتحت قلبي وشعرت بشيء لم أشعر به سوى مرة واحدة في حياتي، بأني محاط بالدفء والمحبة، بسلام داخلي عميق وإيمان راسخ بأن الأمور ستكون على ما يرام، إلا أنني لم أطف فوق نهر باتجاه نور ساطع خلال حالة نزف داخلي على سرير مستشفى في هذه المرة.

فتحت عيني وتناولت سماعة الهاتف واتصلت بالمحامي من جديد وقلت:

"سأوقع أوراق الوديعة وأتبرع بكل شيء حسب الخطة السابقة".

"أنت تمزح، أليس كذلك؟".

"لا، لا أمزح. نفذ الأمر".

وسمعتة يقول: "اللعة". وأنا أغلق السماعة. ثم ساد الصمت. لم أملك ملايين الدولارات لكنني ما أزال جراح مخّ وأعصاب، لن أموت من الجوع، ما زلت قادراً على أن أكون غنياً بالمعايير العادية، لكنني لن أملك ثروة هائلة. حان الوقت للبدء من جديد والتحول لشخص ذي قيمة ومعنى بعيداً عن المال. هذا ما أرادت روث تعليمه للصبي الصغير، لكن بعض الدروس لا يمكن تلقينها، ولا بد من تعلمها بالخبرة الشخصية.

لم أعرف عام 2007 أن قيمة أسهم شركة آكيوراي سترتفع حين طرحها للبيع للناس لتصل إلى 1،3 مليار دولار، وأن صندوق وديعتي سيبلغ 30 مليون دولار، لكنني لم أكن لأغير رأيي حتى لو عرفت. شعرت بالحرية في تلك اللحظة، حرية اتباعي لبوصلة قلبي، ولم يكن ذلك يقدر بمال بالنسبة إلي. لقد أفلتني القرد الذي كان يقودني من رقبتني ويكاد يخنقني ويوجهني خلف الاعتقاد الزائف بأن المال سيجعلني سعيداً وأنه سيمنحني القيادة. تعلمت من كل ما جرى بأن الثروة لا تجلب السعادة سوى حين منحها. وها قد أصبحت حراً.

للدماغ أسرار، لكن للقلب أسراراً أخرى عزمت على كشفها، حملتني رحلة

البحث التي بدأت في متجر السحر بعيداً لكنها لم تنته بعد. عرفت أنني مضطر للإبحار قدماً، فالعقل يرغب في تقسيم الأمور إلى أجزاء أصغر والإبقاء علينا في حالة انعزال، يعلمنا مقارنة أنفسنا وتمييزها وتمكينها مما هو لها لأننا محاطون بالكثير من الأشياء والأشخاص. أما القلب فيريد وصلنا، والاقتراس مع الآخرين، يريد برهنة عدم وجود الفروقات وأنها في النهاية لسنا سوى الكيان ذاته. للقلب وعيه الخاص، وسنعرف حين نتعلم منه أننا لا نحتفظ بما سوى حين نمحه للآخرين. علينا إسعاد الآخرين إذا ما رغبتنا في أن نكون سعداء. وإذا ما أردنا الحب، علينا منحه للآخرين. علينا منح أسباب المرح للآخرين إذا ما رغبتنا في عيش حالة المرح. وإذا ما رغبتنا في الغفران، فلا بد أن نغفر للناس أخطاءهم. إذا أردنا السلام، فعلينا خلقه في عالمنا.

إذا ما أردنا لجراحنا أن تشفى فعلينا أن نشفي الآخرين.

حان الوقت لي لأركز على مهنة الطب من جديد.

ما أطلقت عليه روث اسم بوصلة القلب هو شكل من التواصل ما بين الدماغ والقلب عبر العصب الحائر. وقد أوضحت الدراسات أن القلب يرسل للدماغ إشارات تفوق ما يرسله له الدماغ، وفيما تتمتع النظم الإدراكية والعاطفية في الجسد بالذكاء، فإن الروابط العصبية التي تنطلق من القلب لتحط رحالها في الدماغ أكثر بكثير من الروابط التي تنطلق من الدماغ لتنتهي في القلب. تتمتع كل من أفكارنا ومشاعرنا بالقوة، وفي حين أن العاطفة القوية يمكن لها إخراس فكرة، إلا أننا نادراً ما نتمكن من الهرب بأنفسنا خارج شعور ما. وفي الحقيقة، أقوى العواطف هي تلك القادرة على دفعنا لاجترار أو تكرار الأفكار القديمة. ونطلق نحن على الدماغ صفة العقلانية والمنطقية، وعلى القلب صفة النسبية، لكنهما جزأين من وعي واحد. الشبكة العصبية المتوضعة حول القلب جزء رئيسي من تفكيرنا وتحليلنا المنطقي. تعتمد سعادتنا الفردية والاجتماعية على مقدار الاندماج والتعاون المتبادل ما بين العقل والقلب. وتفيد تدريبات روث لي على دمج كل من العقلين الموجودين في جسدي، عقل الدماغ وعقل القلب، لكنني تجاهلت فكر قلبي لعقود واعتقدت أنني أستطيع استعمال عقلي لينتشلني

من الفقر ويرشدني إلى النجاح ويمنحني قيمة، لكن قلبي هو الذي منحني الثروة الحقيقية في النهاية.

الدماغ يعرف الكثير، إلا أن الحقيقة هي أنه يعرف أكثر بكثير حين يتعاون مع القلب.

التخطيط الذهني والتصور، الأسماء المعاصرة لما تعلمته من روث هي تقنيات رائعة للحصول على الهدوء وتقليص التششت والبحث داخل الذات. يمكن لتلك التمارين أن تزيد القدرة على التركيز وتساعدنا على اتخاذ القرارات بسرعة أكبر، لكن تلك التقنية تؤدي إلى الغرور والنرجسية والانعزال حين يستعملها المرء بلا حكمة وتبصر القلب. كما أن رحلة اكتشاف الذات لا تتم في داخلنا فقط، بل نخوض غمارها في علاقاتنا مع الآخرين على حد سواء. فعندما نسبر أغوار ذواتنا ونفتح قلوبنا نرتبط بالقلب، وسيجبرنا على المضي خارج أسوار أنفسنا والارتباط بالآخرين. رحلتنا رحلة تسامي، لا رحلة غرور شخصي لا متناه. وهناك سبب هام يدفع سماسرة البورصات لممارسة التأمل، إذ أن تقنيات التأمل تساعد على التركيز، لكنها تساعدنا أيضاً على التحول إلى أشخاص قساة القلب أيضاً. وهذا ما حذرتني منه روث قبل أن تعلمني مهارة التصور. نعم.. نحن قادرين على تخليق أي شيء نريده، لكن عقل قلبنا وحده هو القادر على مصارحتنا بما يستحق تحقيقه ما بين كل ما نتمناه.

الوحدة والقلق والإحباط أوبئة منتشرة في العالم، وخصوصاً في الغرب، فالناس تفتقر للروح وللعلاقات الحقيقية بالآخرين. وقد أظهرت الدراسات أن 25 بالمائة من الأمريكيين لا يملكون شخصاً مقرباً بما فيه الكفاية للإفضاء له بمشاكلهم. هذا يعني أن واحداً من كل أمريكيين اثنين تلتقيهم اليوم لا يملك شخصاً يتحدث معه، وفقر العلاقات هذا يضر بصحة الناس. لقد تم تصميمنا ككائنات اجتماعية، وقد تطورنا لنصبح كائنات متعاونة وشديدة الارتباط بالآخرين، وعندما ننقطع عن هذا نمرض. وقد أظهرت الدراسات أننا نعيش أطول ونشفى أسرع من الأمراض كلما كانت صلاتنا بالآخرين أفضل وأكثر عدداً. وفي الحقيقة، تُعرضنا العزلة والوحدة لخطر الإصابة بالأمراض والموت

المبكر أكثر من التدخين، مما يعني أن العلاقات الاجتماعية الصادقة لها تأثير عميق على الصحة العقلية، تزيد عن أهمية التمارين والوزن المثالي والصحة الجسدية، العلاقات تدفعك للشعور بأنك على ما يرام، إنها تقدح مراكز النشوة ذاتها التي تقدحها المخدرات والكحول والشوكولا في الدماغ. بكلمات أخرى، نحن نصاب بالأمراض عندما نشعر بالوحدة، ونبرأ منها حين نكون معاً.

تعلمت الآن الدرس الذي كنت صغيراً جداً على فهمه أثناء وجودي مع روث عبر تبرّعي بما بقي لي من ثروتي. وبلغت آخر وأعظم مرحلة من سحر روث حين أدركت أن الوسيلة الوحيدة لتغيير وتحويل حياتك للأفضل هي تغيير وتحويل حياة الآخرين.

علمتني روث التقنيات والتمارين، لكنها علمتني أعظم وأهم سحر حقيقي وجد يوماً حين منحتني الوقت وعلمتني، حين منحتني وقتها واهتمامها.. علمتني أن قوة العاطفة لا تشفي جراح قلوبنا وحدها بل جراح القلوب المحيطة بنا أيضاً.

إنها أعظم هدية وأعظم سحر على الإطلاق.

الفصل الحادي عشر

أبجدية القلب

الميسسبي، 2003

كل شيء يبدو جميلاً عن بعد. تمكنت حين عدت لمهنة الطب أن أستعرض حياتي الماضية في شاطئ نيوبورت وأرى الجمال في كل خطأ ارتكبته، في كل انعطاف خاطئ قمت به، وفي كل اعتقاد خاطئ راودني حول أهم الأشياء آنذاك. أول شيء أخبرت به روث هو أنني أردت أن أصبح طبيباً عام 1968، وعرفت بعد اختفاء أموالني وأصدقائي أن مهنة الطب كانت أقوى سحر امتلكته.

لم أكن أعرف كيفية متابعة الحياة بعد أزمة الأسهم المالية، ولم أعرف إذا ما كنت أرغب في متابعة عملي في ستانفورد كأستاذ لطب الأعصاب. وكانت رغبتني في افتتاح مشاريع جديدة في الحضيض. وقد عملت من قبل كمستشار للمستشفيات التي تجابه صعوبات في تغطية عمليات الأعصاب التي تقام فيها أو ترغب في تطوير مراكز أبحاث طب الأعصاب. رغبت آنذاك في أن أقدم للناس أفضل جراحات ممكنة وخصوصاً في المناطق التي يعيش أغلب سكانها في فقر مدقع.

وفي أحد الأيام وبلا أي ترتيبات مسبقة، طُلب مني في أحد مستشفيات جنوب الميسسبي العمومية الحضور لاستشارة طبية، فقبلت دعوتهم باعتبار أنها لم تكن تبعد عن نيو أورلينز سوى ساعة واحدة، وباعتبار أنني أحب تلك

المدينة التي ارتدت كلية الطب فيها، كما أن الرحلة كانت مجانية. كان المستشفى هو المركز الرئيسي الذي يقدم المعونة الطبية للفقراء في المنطقة، ولم يرغب الكثير من الأطباء في تقديم خدماتهم كما يحصل في غالبية المناطق الأخرى لانخفاض الأجر المادي. بالإضافة لأن المستشفيات الخاصة التابعة لمجموعات طبية كبرى كانت تجذب العديد من الاختصاصيين للعمل في مراكزها، مما فاقم صعوبة الوضع. لم تتمحور المشكلة حول عدم وجود عدد مناسب من جراحي الأعصاب فقط، بل في عدد جراحي العظام وفي قسم السكتات الدماغية والقلبية على حد سواء. درست الوضع ثم أشرت لإدارة المستشفى إلى مشكلة العروض التي يقدمونها للأطباء المرشحين للعمل. طلبت منهم أن يوضحوا لهؤلاء الأطباء أنهم سيحظون بفرصة ليكونوا جزءاً من طاقم العمل في مركز إقليمي متميز، لا لإرضاء غرورهم فحسب، بل لإيقاظ ذلك الطموح الشخصي فيهم، الذي كان موجوداً حين أصبحوا أطباء في شبابهم.. وهو القدرة على إحداث تغيير في هذا العالم.

يحتاج إنشاء مركز إقليمي ضخم كهذا إلى مقدار كبير من المال، وقد صوت المجلس بالإجماع لتمويل رؤيتي في إنشاء مركز إقليمي لعلم الأعصاب إذا وافقت على قبول مركز مدير البرنامج. كانت فرصة لي لقيادة مجهودات قد يكون لها أثر عظيم في مكان يحتاج لها بالفعل. استشرت العديد من الزملاء والأصدقاء، لم يفهم أحد منهم الدافع الذي حدا بي لترك شمال كاليفورنيا بطقسها الدافئ وحيوية الفكر والعلم الحديث المجتمع في مركز طبي عالمي كهذا طوعاً، لكنني قررت بعد عدة رحلات إلى الميسسبي واللقاء بأناس رائعين ولمس حاجة المكان لي أن أتحرك قدماً. تمكنت خلال فترة قصيرة من الزمن من التعاقد مع مجموعة غير عادية من الزملاء الذين شاركونا بحماس منقطع النظير في تطوير المركز.

لا يقدر العديد من الناس في الولايات المتحدة أن بلادهم تُعد الأفضل بكل المقاييس (مقاييس الجودة أو فعالية التدابير الصحية) وتُعد الرعاية الصحية فيها في الوقت ذاته أعلى من أي مكان آخر ما بين الدول الصناعية التي تُسمى

بالعالم الأول، وبأقل المرضى شعوراً بالرضا. كما أن كل الدول الصناعية الأخرى حول العالم تقدم رعاية صحية عالمية لكل مواطنيها الذين يحظون بمعدل دخل أفضل وبكلفة أقل بكثير، وهو أمر لا يقدره الناس هنا أبداً.

وقد أظهرت الدراسات أن للفقر أثناء سنوات الطفولة أثر عظيم على صحة الإنسان ومستقبله. كنت أدرك ذلك بالفعل بسبب خبرتي الشخصية، لكنني واجهتها بشكل ملموس حين انتقلت للعمل في الميسسبي. أذكر أنني كنت موجوداً في غرفة الطوارئ حين رأيت طفلاً فاقد الوعي ولا يستجيب للتبويضات، فاضطررنا لدس أنبوب في قصبته الهوائية لإيصال الهواء إلى رئتيه. أجرينا له صورة شعاعية للدماغ فوجدنا كتلة كبيرة في الفص الصدغي الأيمن، ضاغطة على الدماغ والبصلة السيسائية. تكلمت مع ذويه اللذين أخبراني أنه كان يعاني من التهاب في الأذن لبعض الوقت. وقد عرضاه على ممرضة في مركز صحي مجاني لأنهما لم يملكا المال اللازم للتأمين الصحي. عاد الطفل للعيادة مراراً لأن مضادات الالتهاب لم تجد نفعاً، وتفاقت شكاواه من الألم ثم بدأ يعاني من نوبات صداع مريرة. لم يملكا المال اللازم لمراجعة طبيب اختصاصي. أصيب الطفل بالتهشوش والاضطراب في اليوم السابق فاعتقدوا أن ذلك ناتج عن الحمى. حملة والداه إلى غرفة الطوارئ حين غاب عن الوعي واضطرا لسؤال أحد الجيران أن يقلهم بسيارته باعتبار أنهم لا يملكون سيارة.

دخلت غرفة الفحص لأجد ذاك الطفل الجميل ممدداً ومتصلاً بجهاز التنفس، ووالداه واقفان قرب سريره، قدمت نفسي وفحصته، كان بؤبؤ عينه اليمنى متوسعاً، لكن بؤبؤ عينه اليسرى كان أقل توسعاً. لم يستجب لأي من التبويضات، وكان تشخيص حالته يتفق مع الموت السريري. أخبرت الوالدين بأني مضطر للتصرف الفوري لإنقاذ حياته وطلبت منهما مغادرة الغرفة. أظهر مسح الرنين المغناطيسي كتلة تمتد من المنطقة الغشائية اليمنى، وهي المنطقة التي تحتوي على قناة الأذن وصولاً إلى المنطقة الشحمية. من الواضح أن الالتهاب البسيط الذي عانى منه الطفل، والذي كان يمكن علاجه بسهولة، قد تطور إلى التهاب عظمي امتد إلى داخل الدماغ وأدى لتشكيل كيس قيحي. ومن النادر رؤية تلك

الخراجات الدماغية في وقتنا هذا وفي مثل عمر الصبي. حضرت المريض بسرعة وأحطت رأسه بالأغطية وقصصت شعره الذي يغطي المنطقة المصابة وخدرت الجلد تخديراً موضعياً، ثم قطعت فروة الرأس وحفرت في جمجمته حفرة دائرية صغيرة جداً فوق مكان الإصابة مباشرة. أدخلت إبرة وسحبت الهواء من مخزنها فملأ السائل القيحي الأصفر المخزن، كثيراً منه، إلى درجة أنني اضطررت لتغيير الإبرة ثلاث مرات.

أخذت الطفل بعد ذلك إلى غرفة العمليات، لكن الوقت كان قد تأخر بكل الأحوال، فقد مات دماغه. تركت غرفة العمليات وذهبت إلى غرفة الانتظار، وقف الوالدان هناك.. وكنت قادراً على التخمين من منظرهما أنهما قد اعتادا على الخيبات. أخبرتهما أنني فعلت كل ما بوسعي لإنقاذ حياة طفلهما لكنه كان ميتاً سريرياً وأن جسده الآن حيّ بفضل الآلات فقط. شكرا لي محاولاتي بعد الحزن ودموع الألم، وانكسر قلبي عندما فكرت بتقاعس الآباء عن فعل ما يجب عليهم فعله خلال حياتهم مع أبنائهم بسبب قلة الاهتمام.

لا يجب أن يؤدي التهاب في الأذن أو عدم وجود تأمين صحي لموت طفل.

ضرب إعصار كاترينا المنطقة قبل عامين. وقد اتخذ الكثيرون ممن كانوا يملكون القدرة على المغادرة قرار الرحيل بسرعة، لأنه كان قراراً سهلاً. إلا أن كثيراً علقوا هناك، علقوا في مكان عمه الدمار والخراب، في مكان يحتاج لسنوات أو لعشرات منها لإعادة الإعمار. حاولت الاستقرار على رأي.. هل يجب علي المغادرة أو البقاء بعد انتهاء العاصفة. لقد حضرت إلى هذا المكان لمساعدة المجتمع، ووجدت نوعاً من السعادة في رعاية المرضى الذين كانوا بحاجة لي بالفعل، كنا نبني صرحاً اجتماعياً ليوم لسنوات طويلة قادمة.

وقد تزوجت بحلول ذلك الوقت امرأة رائعة التقيتها قبل التبرع بأسهمي مباشرة. أنجبنا صبياً معاً لكنها وجدت عملي لساعات طويلة وأصداء إعصار كاترينا المتلاحقة يومياً صعباً جداً، فقررنا في النهاية أن تنتقل هي مجدداً

لكاليفورنيا مع ابنا مؤقتاً، وأن أبقى أنا في الميسسبي وأن أسافر للقائهم كل ستة أو ثمانية أسابيع.

لم يفهم العديد من الأصدقاء والزلاء سبب بقائي هناك وعدم مغادرة المكان نهائياً مع زوجتي، لكن الحقيقة هي أنني لم أتمكن من مواجهة العديد من أفراد ذلك المجتمع بقرار الرحيل، الناس الذين تحولوا إلى أصدقاء مقربين مؤمنين برؤيتي وكل ما كرّسته للمستشفى وتحويللي إياه لمركز طبي جراحي متخصص على مستوى المنطقة، بينما كان يمكن لمغادرتي أن تكون خياراً أسهل بكثير من البقاء. وهكذا بقيت لعامين آخرين، ثم تابعت الإشراف لعدة سنوات أخرى على المركز الذي تحول إلى المركز الممتاز الذي تصورته قبل أعوام. ثم غادرت في النهاية بعد أن بنيت صرحاً أكبر في الحقيقة الواقعة من ذاتي. اضطررت بعد فقدان ثروتي لمساعدة الآخرين، وبدأ لي ذلك المركز الذي يساعد الفقراء كفعل كفارة أو تعويض عن السنوات التي قضيتها لاهثاً خلف الثروة والأمجاد.

أدركت حين فكرت ملياً بقرار عودتي إلى كاليفورنيا أنني أرغب بشدة بالعودة إلى جامعة ستانفورد. كما تأملت تعاليم روث وتساءلت عن أقوى ما فيها، وأدركت أنها كانت في لبّها تماريناً لفتح القلب على اتساعه لاحتواء الآخرين، والتّحلي باللطف والتعاطف والشفقة وإضمار كل ذلك في النوايا التي نعتزمها. وما بين الأمور التي أذهلتني هو فهم الطريقة التي يعمل بها العقل والقلب معاً ويتعاونان ويتفاعلان، وتساءلت: هل يمكن للشفقة واللطف والطيبة والاهتمام أن تكون مجرد إشارات في الدماغ؟

التقيت بعد عودتي إلى قسم جراحة الأعصاب في جامعة ستانفورد زملاء في قسم علم النفس وعلم الأعصاب وناقشت ما قاموا به من أعمال في ذلك الخصوص. واتضح لي وجود عدد ضئيل من الباحثين يقومون بأبحاث مبهرة رائدة قد تغير كلياً أسس تصوراتنا في ذلك المجال، وتقول بأن التعاطف والإيثار واللطف تؤثر على مراكز المكافأة في الدماغ وتؤثر بشكل إيجابي على وظائف الأعضاء في الجسم.

الطف والشفقة والتعاطف مفيدة للصحة، هكذا أثبتت الدراسات، فأصبح ذلك المجال في رأس أولوياتي وعدت إلى ممارسة المهارات التي تعلمتها من روث، لكنني طورتها لتناسب مع الدروس التي تعلمتها من حياتي. لقد دمّر إعصار كاترينا دفتر ملاحظاتي القديم وابتلعه الطوفان الذي اجتاح منزلنا، لكنني أعدت في ذهني حواراتي مع روث مراراً وتكراراً آملاً في اكتساب فهم جديد لتعليماتها بعد مرور عقود طويلة عليها. وغرقت كلياً في الأبحاث التي أثبتت علمياً فوائد كل ما تعلمته من روث. رغبت في دراسة معنى فتح القلب على الآخرين وفهم السبب الذي دفع روث للتركيز على هذه النقطة وتسميتها بالنقطة الأهم. وكما كتبت قائمة لأهدافي قبل العديد من السنين، قمت مؤخراً بكتابة قائمة جديدة من عشرة عناصر، وهي قائمة بعشرة أشياء تساعد على فتح أبواب القلب.

قرأتها مراراً وتكراراً ثم لاحظت فجأة أنها تحتوي على نموذج مناسب للاستحفاظ السريع. اكتشفت طريقة تسمح لي بتذكر كل ما تعلمته، فأسميتها أبجدية القلب. فبدأت تمرينات جديدة لتقوية تلك الأبجدية كل صباح في ذاكرتي وتمكينها مع متابعة تكرار خطوات التأمل التي تعلمتها في متجر السحر قبل سنوات بعيدة. أنا أكرر غيباً هذه الأبجدية بعد بث الاسترخاء في جسدي وتهدة ذهني، ثم أنتقي عنصراً من القائمة لأركز عليها نواياي خلال النهار، أي لتكون هي نيتي الوحيدة خلال النهار. وأكررها في ذهني بلا توقف، وقد وجدت أن هذه التقنية تركز اتجاهي، لا كطبيب فقط، بل كإنسان أيضاً. كما وجدت أنها تساعدني على افتتاح نهاري بنية قوية.

أبجدية القلب

1. الشفقة هي ملاحظة معاناة شخص ما والرغبة في رفعها عنه والتخفيف من ألمه. لكن المرء لا يتمكن من فعل ذلك ما لم يشفق أولاً على نفسه، ما لم يكن رحيماً بنفسه. يتغلب الكثير من الناس على أنفسهم عبر انتقادها الشديد القاسي ومنع أنفسهم من التمتع باللفظ الذي يغدقونه على الآخرين. لكن منح الحب والرحمة للآخرين يكاد يكون مستحيلاً حين لا يرحم الإنسان نفسه ولا يعاملها بلطف ومحبة.

2. الكرامة شيء فطري في كل مخلوق بشري، لا بد من تلمسها والاعتراف بها، فكثيراً ما ننتقد شخصاً بسبب مظهره أو طريقة حديثه أو سلوكه، وكثيراً ما تكون انتقاداتنا هذه سلبية وظالمة. يجب علينا النظر للآخر والتفكير بالتالي: "إنه مثلي تماماً، يريد ما أريد، لا يرغب سوى في تحقيق سعادته" عندما ننظر للآخرين ونرى أنفسنا فيهم نرغب على الفور في التواصل معهم ومساعدتهم.

3. الاتزان هو المحافظة على خلق وطبع واحد حتى في أصعب الأوقات، الاتزان مطلوب في الأوقات الجيدة والأوقات العصيبة لأن الإنسان يشعر حتى في الأوقات الجيدة بأنه يريد المحافظة على الغبطة التي تملأه، لكن محاولة الاحتفاظ بالسعادة تشتت انتباهنا عن الحضور في اللحظة، كما تفعل بنا دوافعنا حين نحاول الهرب من الأوقات العصيبة. إن محاولة الإمساك بلحظة الغبطة وعدم إفلاتها ليس شعوراً واقعياً، ليس ممكناً، ولا يؤدي سوى لخيبة الأمل. كل التقلبات عابرة، ولهذا تسمح لنا المحافظة على سجيّة واحدة بالحصول على صفاء ذهني ووضوح في الهدف.

4. الغفران هو أعظم العطايا التي يمكن للفرد أن يمنحها للآخر، كما أنها أعظم ما يمكن لنا منحه لأنفسنا. وقد شبّه العديد الاحتفاظ بالغضب والعدوانية حيال الناس الذين تشعر بأنهم قد ظلموك بتناول السمّ متأماً موتهم، إنه يسممك أنت ويسمم تعاطيك مع الآخرين، يسمم نظرتك للعالم، ثم يأسرك في النهاية في سجن لا يملك أحد مفتاحه سواك، إلا أنك لا تطلق سراح نفسك. والحقيقة هي أننا جميعاً ظلمنا آخرين خلال حياتنا. إننا كائنات ضعيفة واهية،

مررنا بأوقات كثيرة لم نكن فيها أنفسنا ولم نتصرف حسب مبادئنا، وجرحنا بسلوكنا ذاك أناساً آخرين.

5. الامتنان هو الاعتراف بتقديرك لنعمة الحياة، حتى لو كانت حياتك مليئة بالألم والمعاناة. لا يحتاج المرء لجهد كبير لملاحظة معاناة الكثير من الناس في عالمنا، الذين لا تسمح لهم ظروفهم بالحلم أو الأمل بحياة أفضل. ونحن ننظر لبعضنا - خصوصاً في المجتمعات الغربية - ونشعر بالغيرة والحسد في كثير من الأحيان. ولهذا فإن تكريس بضع دقائق للشعور بالامتنان لها أعظم الأثر على توجه الإنسان الفكري، الامتنان سيدفعك لملاحظة النعم والبركات التي تزخر بها حياتك.

6. التواصل هو سمة يصعب تطبيقها بالنسبة للكثيرين، فنحن نفخر بهويتنا أو بما حققناه من إنجازات، نريد أن نعرض للآخرين مدى قوتنا، ومدى تفوقنا على شخص ما، لكن الحقيقة أن مشاعرنا هذه هي اعتراف منا بانعدام شعورنا بالأمان، نحن نبحث عن اعتراف الآخرين بتلك النقاط، اعترافهم بقيمتها بعيداً عن أنفسنا. لكن فعل ذلك يفصلنا عن الآخرين ويبدو أشبه بزج النفس في سجن انفرادي، ويا لها من زنانة مقفرة، ويا لها من وحدة. لا نتمكن من التواصل بحق مع الآخرين إلا عندما نلاحظ أنهم يملكون نقاطاً إيجابية وأخرى سلبية، مثلنا تماماً، وعندما نعتبر الناس أجمعين أفراداً متساوين. ووحده ذاك التواصل البشري يحررنا ويسمح لنا بفتح أبواب قلوبنا ومنح الاهتمام دون قيد أو شرط.

7. النزاهة تتطلب نية واضحة، تتطلب تحديد أهم القيم من وجهة نظرك وممارسة تلك القيم باستمرار فيما يتعلق بتعاملك مع الآخرين. يمكن لتلك القيم أن تنفتت بسهولة، ويمكن لتحللها هذا أن يكون دقيقاً غير محسوس في البداية. إذا خاطرنا بفقدان نزاهتنا مرة واحدة فسيصبح فقدانها سهلاً جداً، ونوادر هم من الناس أولئك الذين يبدأون حياتهم مجدداً بنية قوية كهذه، ولهذا، كن حذراً واجتهد في المحافظة على نفسك بكل ما استطعت من قوة.

8. العدل هو الإدراك بأن إحقاق الحق وإحلال العدل هي رغبة

موجودة في جوهنا جميعاً. من السهل أن نحصل على العدل حين نمتلك المال والموارد والامتيازات، لكننا يجب أن نضمن حصول الفقراء والمستضعفين على العدل أيضاً، إنها مسؤوليتنا.. أن نحاول منحهم العدالة والاعتناء بهم ومنح الفقراء كل ما يحتاجونه، إنه المفهوم الذي يحدد هوية مجتمعنا وإنسانيتنا ويمنح حياتنا معناها.

9. اللطف هو الاهتمام بالآخرين، وغالباً ما يعتقد الناس بأنه الجانب الواضح والفاعل من الرحمة، إنه الرغبة بأن يحصل الناس على الرعاية دون انتظار أي منفعة شخصية أو اعتراف منهم بذلك. أثبتت الدراسات الآن أن تصرفات الإنسان الرؤوفة لا تفيد من يتلقونها فقط بل تفيد مانحها أيضاً، وهو شيء استثنائي بالفعل. إن تداعيات السلوك الرحيم واللطيف تتداعى كتموجات متوسعة على صفحة الماء وتزيد من احتمال تحول المحيطين بك إلى أناس طيبين أكثر من المعتاد، إنها عدوى اجتماعية تقود المجتمع إلى الدرب الصحيح، ثم يرتد كل ذلك اللطف باتجاهنا عبر الأحاسيس الإيجابية التي ولدها وعبر الطريقة التي يعاملنا بها الآخرون، بلطف شديد ومحبة.

10. الحب اللامشروط يُغيّر كل شيء، يُغيّر كل الناس. الحب هو الفضيلة التي تحتوي كل الفضائل في طياتها، الحب يشفي كل الجراح، إنه القوة التي تشفينا من أوجاعنا وأمراضنا حقاً وفي نهاية المطاف، لا تقنياتنا ولا أدويتنا. وهو الكفّ الذي يضم في داخله إنسانيتنا.

هذا التسلسل يرسم درباً يصلني بقلبي ويساعده على فتح أبوابه، يسمح لي بافتتاح كل نهار بنية سليمة وهدف واضح، ويساعدني على تركيز تفكيري حين أواجه الضغوطات أو أشعر بالضعف خلال النهار. إن هذه النقاط العشرة هي لغة نواياي، لغة قلبي.

لو كانت روث هنا لعرفت أنني تعلمت أخيراً طريقة فتح قلبي، وأن هذا قد غيّر كل شيء.

ينبض القلب مئة ألف مرة في اليوم ويضخّ ألفي غالون من الدم عبر نظام معقد من الأوعية الدموية يصل طوله لستين ألف ميل إذا ما مددناه على الأرض من بدايته إلى نهايته مما يعني أنه يفوق محيط الكرة الأرضية بمقدار الضعفين. وقد آمن المصريون القدماء بأن القلب (إبّ) - في اللغة المصرية القديمة - يحيا بعد الموت ويخوض محاكمة في الآخرة للحكم في أمر الإنسان الذي كان يمتلكه. كانت السعادة تُسمى بلغتهم (أوت - إبّ) وهي تعني حرفياً (اتساع القلب). أما التعاسة فكانوا يسمونها (أب - إبّ) مما يعني (القلب المبتور) أو (القلب المسخ). كما أن العديد من الحضارات القديمة والحديثة تعتبر القلب مكن الروح ومستقرّها. توجعنا قلوبنا حين نقرأ قصة طفل مفقود، وحين ينتهي الحب نشعر بأن قلوبنا قد كُسرت، وبعض القلوب تنكسر بالفعل. عندما يرفضنا الآخر أو حين نشعر بالخزي أو بأننا منسيون، بأن الآخر يتجاهلنا، تضيق قلوبنا كما لو أنها تنكمش على ذاتها وتقلص. لكن قلوبنا تتفتح بقوة عندما تنوء من ثقل الضغط المفروض عليها، سواء كان الضغط نابعاً من الحب الشديد أو المعاناة الشديدة، تتفتح قلوبنا وتتوسع ولا تعود لحالتها القديم أبداً. وليست كلماتي هذه مجازية وحسب، بل هذا ما يحدث حقاً على المستوى المادي. في الواقع، هناك حالة طبيّة تُدعى: متلازمة القلب المكسور.

لم يتفتح قلبي بسبب فقدان المال - مع أنني وجدت الحرية حين فقدت الثروة التي عملت جاهداً لجمعها - بل بسبب ضغطي الشديد محاولاً إبقاء أبواب قلبي مغلقة بإحكام. قالت لي روث: "ما تعتقد أنك تريده لا يكون جيداً لك على الدوام". لقد أمضيت عمري لاهتاً خلف الهدف الخاطيء، ولهذا فإن قلبي الذي تجاهلته طويلاً جداً قد أجبرني على الامتثال لصوته.

كما تذكرت وعدي لروث: سأعلم هذا السحر يوماً لأشخاص آخرين. لم أكن أملك فكرة عن كيفية وفائي بوعدِي هذا، لكنه تحول إلى هدف تمريناتي على التصور كل ليلة. كنت أرى نفسي أحياناً في رداء عملي الأبيض محتضناً لمرضى أو قريب لأحد المرضى ممن أنهكتهم الأحزان، وفي أحيان أخرى أرى نفسي واقفاً على منصة أخاطب الناس، وتخيلت نفسي أحياناً أخاطب فلاسفة عظاماً وقادة روحيين مع أنني كنت وما زلت شخصاً غير مؤمن. فكرت ملياً

بتجربتي مع روث وما جرى لي بعد حادث السيارة الذي تعرضت له واكتشفت أنه كان يمكن لي أن أحظى بعقلية منفتحة خالية من العقيدة الدينية دون أن أنكر وجود أمور ماورائية تفوق الحياة نفسها، عصيّة على الشرح والتفسير. بطريقة أخرى، منحنتي روث عطية أخرى حين علمتني قبول عدم الحاجة لوجود إجابات نهائية لكل الأسئلة.

أشعر الآن أننا جميعاً متصلون ببعضنا، وأرى نفسي حين أنظر للآخرين، أرى نقاط ضعفني وإخفاقاتي وهشاشتي. وأرى أيضاً قوة الروح البشرية وقوة الكون، وأعرف في عمق كياني أن المحبة هي البوتق الذي يجمعنا سوياً. قال الدالاي لاما مرة: "العطف هو ديني". وقد بات هذا ديني أيضاً.

لطالما اكرثت للآخرين، وأنا أهتم بالمرضى بشدة كطبيب، لكن التمرين على فتح أبواب القلب عامدين متعمدين يسبب الألم أيضاً، يسبب آلاماً لا يمكن احتمالها في بعض الأحيان، وقد منعتني هذا الألم أحياناً من الوقوف بجانب من يحتاجني أو الحضور كما يجب في أواني كما كنت أرغب. لكنه غير كلياً من طريقة استجابتي للآلام حين فتحت قلبي كما علمتني روث. لم يكن هناك حاجة للفرار منه بل للامتثال له. وحين طفوت معه تمكنت من الاتصال بذاتي والآخرين. لقد تغيرت علاقتي بمرضاي، فأنا أخصص مزيداً من الوقت للاستماع إليهم وأحاول الانفتاح على كل واحد منهم، أنصت للأعراض التي يعانون منها ثم أنصت لقلوبهم بقلبي نفسه لا بجهاز الاستماع لضربات القلب.

لقد اخترع جهاز الاستماع لضربات القلب عام 1816 لأن أحد الأطباء الفرنسيين كان يشعر بالخجل من وضع أذنه على صدر المريضة للاستماع لقلوبهن وصوت رئاتهن، وكان يضع بسبب خجله هذا أربعاً وعشرين طبقة من الورق على صدورهن ثم يحاول الإنصات لما يجري داخل صدورهن، وأعتقد أن المسافة بين الطبيب والمريض قد ازدادت منذ ذلك الحين. لقد تعلمت أن الإنصات لمرضاي ومنحهم بعضاً من وقتي وانتباهي وتركيزي يساعدهم على التحسن. أنا أسمح لهم بقص حكاياتهم ثم أقدر لهم صبرهم على ما قاسوه وما مروا خلاله، وكل ما عانوه، وقد أدى ذلك لتخفيف آلام الكثير من الناس أكثر

من أي جرعة دوائية يمكن لطبيب أن يصفها لمريضه، وقد فاقت جودة بعض تلك الإنجازات بفاعليتها بعض العمليات الجراحية. وأنا أقول حالياً لكل تلامذتي والأطباء المقيمين العاملين معي أن جراحة المخ والأعصاب تحتاج مقداراً هائلاً من التقنية والتجهيزات المعقدة، لكن أعظم النجاحات هي تلك التي نتجت عن الاهتمام بقلب رؤوف والحضور إلى جانب المرضى قلباً وقالباً.

أما التغيير العظيم الآخر الذي لمستته هو أنني بدأت أرى الآخرين مساوين لي أينما حللت، الموظف في المتجر والفراش الذي ينظف المستشفى آخر الليل والمتسولة التي تقف بجوار إشارات المرور والرجل الذي كان يقود سيارة الفيراري بسرعة جنونية، وأدركت أن لكل منهم قصة، مثلي تماماً، كل واحد منهم كان يمشي على درب، كلهم قاسوا وعانوا في بعض الأوقات، من أقلهم إلى أكثرهم مالا وحظاً، كلهم مثلي تماماً.

بدأت أتخلى عن الرواية التي شكّلت ملامح حياتي، فقد اصطنعت لنفسي هوية نابغة من فقري، وعشت تبعاً لها لأنني كنت مؤمناً بفقري ذاك، شعرت بأنني فقير حتى عندما كنت أملك الأموال الطائلة، ولهذا، فقد فتحت قلبي ليسع والدتي ووالدي وغفرت لهما. فتحت قلبي ليسع الصبي الذي كنته في طفولتي وتعاطفت معه وكنت لطيفاً بشأنه، احتويت كل الأخطاء التي ارتكبتها وكل السبل الحمقاء التي حاولت من خلالها إثبات تفوقي للعالم، ففزت بالتواضع. وعرفت من خلال ذلك أنني لم أكن الجائع الوحيد في العالم ولا الخائف الوحيد، لم أكن الطفل الوحيد الذي اختبر الوحدة باكراً أو العزلة والاختلاف عن المحيط. فتحت قلبي لأجد أنه قادر على التواصل والارتباط بكل قلب آخر في العالم.

كانت الرحلة في داخلي رحلة متعبة وبديعة وغريبة.

كل تلك المشاعر المتناقضة في وقت واحد.

الفصل الثاني عشر

تجلي الرحمة

لطالما استمتعت بالأوبرا مع أنني لا أجد سبباً لذلك، لأنني لا أفهم كلمة واحدة مما أسمعه فيها وأبكي لسماعه. ربما أتأثر بالعواطف الجياشة والعرض الجريء للمشاعر التي تفيض وتتخطى حدود اللغة. الأوبرا ليست شيئاً قابلاً للتحليل أو الاستكشاف بالمنطق والعقل بل لا يمكن إدراكها سوى بالقلب. ومعظم الجراحين يسمعون الموسيقى أثناء قيامهم بالعمليات الجراحية لأنها تهدأ من روع المريض أو ترفع من درجة تركيز وفاعلية الفريق العامل على إجراء الجراحة. وقد أثبتت الدراسات أن المرضى الذين يستمعون للموسيقى قبل الجراحة لا يعانون من القلق الشديد ولا يحتاجون سوى لكميات أقل من المهدئات ومسكنات الألم وأدوية التخدير. الموسيقى قادرة على خفض معدل ضربات القلب كما يفعل التأمل تماماً، تخفّف من حدة التوتر وتخفض ضغط الدم المرتفع. ولا يصيب هذا التأثير المهدئ المريض فقط، بل يصيب الطبيب الجراح أيضاً.

أما بالنسبة إليّ، إذا رغبت في الاستماع لموسيقى أثناء العمل، فلا بد أن يكون الصوت منخفضاً جداً ونوعها هادئاً جداً خلال المراحل الحرجة من العملية، وعندما أشرف على الانتهاء أرفع الصوت قليلاً وقد أغير نوعها إلى موسيقى الروك الكلاسيكية. لكنني لا أستمع أبداً للأوبرا أثناء العمل، فأنا أكون أقرب لآلة أثناء إجرائي لأي عمل جراحي، قد يتطلب مرضاي التعاطف والمشاركة الوجدانية قبل دخولهم لغرفة العمليات، لكنهم يحتاجون لمهارتي العملية وتقنياتي وقدراتي ومحاكماتي العقلية السريعة والصحيحة لاتخاذ أصعب القرارات أثناء العمل الجراحي. إنهم لا يحتاجون لطبيب يبيّهم أثناء الجراحة،

يحتاجون لطبيب يهتم لأمرهم ويعاملهم برقة، لكنهم لا يرغبون بأن تعترض رقتي ولطفي سير عملهم الجراحي على خير ما يرام.

كانت جون واحدة من مرضاي الأوائل بعد مغادرتي لعملي في الجيش، وقد عاشت حياتها لأجل الأوبرا. كانت تتضح طاقة حين دخلت مكتبتي لأول مرة وتبث روحها الدافئة حولها، كانت تعشق ارتداء الكعب العالي، وأخبرتني أنها لا تهتم لمدى عظمتي كطبيب، كل ما يهمها هو أنها لن تتخلي عن العشقين الكبيرين في حياتها، ألا وهما الغناء والباستا، حتى لو أخبرتها بأنها مضطرة للتخلي عنهما لتعيش.

كانت مغنية سوبرانو في فرقة أوبرا جواله، وكانت الأوبرا بالنسبة لها مهنة وشغف حياة. وقد تكلمنا خلال لقاءاتنا عن ما تفضله - أوبرا عايدة وأوبريتات شتراوس وأوبرا كارمن. وقد استغرقت مواعيدنا وقتاً أطول من المعتاد لأنني كنت أستمتع بقصصها عن الغناء في أنحاء البلاد، وكانت تحب التأثير الذي تتركه الأوبرا على وجوه الناس وأحاسيسهم.

"قد يبدو لك هذا ضرباً من الجنون، لكنني أحب حين يدفع غنائي الناس للبكاء، أعرف عندها فقط بأني لامست شغاف قلوبهم، أعرف عندها فقط بأننا (أنا والمستمع) على وصال".

كانت تعاني من آلام شقيقة حادة، وقد نجح طبيبها في معالجة تلك الآلام بالمسكنات، لكنه لم ينجح في التغلب على تمدد الأوعية الدموية الحاد في فص دماغها الأيسر والمسؤول عن حركات عضلات الوجه. وقد فكر الأطباء بأنه سبب من أسباب ألمها، لكنه كان كافياً لحرمانها من مهنتها وعشقها وعلى قتلها أيضاً رغم أنه لم يكن سبب صداعها الحقيقي.

"مهما كان سبب مرضي فلا أريد فعل أي شيء يمنعي من الغناء، فهو أهم شيء في حياتي".

لكنني اضطررت لمصارحتها بالحقيقة.

تمدد الأوعية الدموية الذي فاق محيطه السنتمتر في رأسها يحتاج لتدخل جراحي طارئ، وقد شرحت لها هذا على مراحل في عدة جلسات. شعرت بضرورة إجراء تلك الجراحة بسرعة لكنني عرفت أنني مضطر لشرح ذلك لها على مراحل وببطء، وشجعتها على استشارة جراحين آخر بما فيهم زملاء يفوقونني خبرة رغم قيامي بمثل هذا العمل مرات عديدة. ولسوء الحظ، يصف بعض الجراحين الكبار والخبراء العلاج والجراحة للمرضى المصابين بأبشع الحالات بكل أخطارها ودقائقها الحرجة دون أن يفكروا بأن هذه الجراحة قد تكون أخطر وأهم حدث في حياة هذا المريض وعائلته رغم أنها روتينية وعادية بالنسبة إلينا. وقد شرح لها الطبيبان الآخران الموضوع بتلك الصراحة والبساطة، فعادت مذعورة، مشبعة بإحساس أصابها عندهم بأنها ليست إنساناً بل مجرد حالة مرضية.

كانت جون بحاجة لكثير من الوقت لتجهيزها لما هي مقبلة عليه، أكثر من أغلب المرضى الآخرين، وقد حاولت منحها كل ما تسمح به حالتها من الوقت. عرفت من بداية تدريجي في مهنة الطب أن قضاء الوقت مع المريض جزء من عملية شفائه، لأننا في النهاية نتعامل مع بشر بهمومهم ومخاوفهم، وأن المرضى ليسوا آلات مصابة بخلل، وأن الجراحين ليسوا ميكانيكيين.

تبدّد قلق جون بالتدريج مع تكرار لقاءاتنا، كانت بحاجة لإخباري بقصتها، وبحاجة للتأكد من أنني سمعتها وعرفتها على المستوى الشخصي، تطورت صداقتنا، وأخبرتني في النهاية أنني الطبيب الوحيد الذي ستضع ثقتها فيه لإجراء الجراحة. ومع أن ثقة المريض الكبيرة بمقدرتي كطبيب هي أمر رائع إلا أن الحال يختلف حين يكون المريض هذا صديقاً. أعطتني في اليوم السابق للجراحة تسجيلاً بصوتها لألحانها المفضلة، فجلست ليلتها في مكتبي مغمض العينين واستمعت لها.

في صباح عملية جون اخترت الاستماع للموسيقى الكلاسيكية التي كانت رائجة في طفولتي في غرفة العمليات. ابتسمت لي بلطف حين أدخلها المساعدون على السرير النقال، وكانت آخر الكلمات التي سمعتها قبل غرقها

في النوم هي كلمات الأغنية: "الحب هو كل ما تحتاج".

نقلناها من السرير النقال إلى طاولة العمليات بعد تخديرها، توليت بنفسى أمر تثبيت رأسها بالمشبك الحاد لأضمن سلامتها خلال العملية، شعرت برؤوس المشبك الحادة تخترق فروة رأسها وتلامس الجمجمة، أدت رأسها إلى اليمين ثم مددت رقبتها قدر الإمكان. كنت مدركاً تماماً لأهمية مظهرها بالنسبة إليها فأزلت أقل قدر ممكن من الشعر عن رأسها، ثم راجعت صور الأوعية الدموية الممتدة المحيطة بالفقاعة المجاورة للشريان الذي يضخ الدماء لقسم كبير من الجزء الأيسر من دماغها. كان تمداً كبيراً متولداً عن شريان صغير متشعب من الشريان الدماغي الأوسط. قطعت فروة الرأس ثم قلبتها كاشفاً عن الجمجمة، وفي العادة.. عظم الجمجمة هو الحاجز الذي يحمينا، لكنه الآن الحاجز الذي يعترض طريقنا لإنقاذها. استعملت المحجاج (وهو أداة فتح عظم الجمجمة) لفتح الثغرة ثم وضعت القطعة التي رفعتها بكل حذر على منشفة معقمة. ألقيت نظرة على الأم الجافية التي بدت لي حين رفعت العظم، ذلك النسيج اللين الذي يحيط بالدماغ مدركاً لوجود الفقاعة تحته مباشرة، منصتاً لإيقاع دقات قلبها المنتظم.

إذا تمزق هذا النسيج ستفقد مريضتي صوتها أو تموت.

شقت طبقة الأم الجافية ببطء فرأيت الفقاعة الدموية المتوضعة بين الفصين الأمامي والصدغي في أخدود سيلفيان. وعندها فقط، بدأ العمل.. وضعت المكبر فوق المكان الصحيح واستعملت سكيناً ميكروسكوبية لشق غشاء الدماغ السطحي الحساس والرقيق للغاية، مما ساعدني على ولوج أخدود سيلفيان والوصول إلى الوعاء الذي يغذي الفقاعة بالدم، وهو المكان الذي سأقوم بربطه بالملقط. كان يجب أن أفصله عن دورتها الدموية أولاً، وعندما كشفت على الفقاعة بالمكبر أدركت أن جدارها الخلوي رقيق كورقة، وتمكنت بسبب ضوء المكبر الساطع من رؤية الدم وهو يجري وينبض فيه، وأدركت أنه قد ينفجر تلقائياً في أي لحظة، ولاحظت أن جزءاً من عنق الفقاعة وجدارها ملتصقان بتلافيف الدماغ مما يجعل مهمة فصله دون تمزيقه أصعب بكثير. وهكذا..

بدأت عملية سلخ الفقاعة المضنية والبطيئة جداً وتمكنت من فتح ممر صغير لنفسى بين عنق الفقاعة ونسيجها الملتصق بالدماغ لأجد موطاً للملقط، ولم يكن هناك متسع لمليمتر واحد إضافي. كنت أعرف أن الغشاء سيتمزق إذا زلت يدي وأن خطأ واحداً من قبلي سيحرمها من أغلى ما تملك، ألا وهو الغناء. فتوقفت واستدرت واستعرضت مجموعة الملاقط الموجودة ثم اخترت أحدها ووضعته داخل حامل الملاقط الدقيق ثم عدت مرة أخرى للشريان النابض بالحياة، الشريان الذي يمكن له قتلها. وفجأة، تراءى لي وجهها وفكرت في غنائها وتردد صوتها في ذهني، ثم فكرت بأنها قد تصاب بالشلل، وأنها قد لا تتمكن من الكلام أو الغناء مرة أخرى، فارتجفت يدي، لم ترتعش، بل راحت ترتجف بلا توقف، ولم أتمكن من المتابعة.

إنها صديقتي التي أخبرتني بأن صوتها هو أغلى ما تملك، وقد وعدتها بأن مكروهاً لن يصيبها، وعدتها بأن كل الأمور ستكون على ما يرام.

قد يؤدي التواصل الإنساني أثناء العمليات الجراحية بين الجراح والمريض لأخطاء قاتلة، فالعمل يجب أن يكون تقنياً وعلمياً، على الجراح أن يحوّل المريض في عقله إلى شيء، إذا ما فكر في ما قد يحدث للمريض الإنسان فلا يمكن له أن يجري الجراحة. شعرت بالخوف، إذ لم يحدث لي هذا من قبل.

ارتعشت يداي بقوة إلى درجة أنني اضطررت إلى التوقف والجلوس لبرهة من الزمن. أغمضت عيناى وركزت على سرعة تنفسي وحاولت تناول الشهيق وزفر الهواء ببطء إلى أن تمكنت من خلق مساحة من الفراغ في ذهني كي لا يجد الخوف فكرة واحدة يتعلق بها. كان هناك ما يكفي من الوقت لأفتح قلبي أيضاً وأضع كل ثقتي في مهارتي كجراح وتقنيتي وحرفيتي وذكرت نفسي بأنني قمت بهذا الإجراء نفسه مراراً من قبل، وأني ماهر للغاية في استئصال مثل هذه التوسعات الشريانية. غادرني الخوف واستعدت حالة الهدوء والثقة. تصورت في ذهني الملقط موضوعاً في مكانه الصحيح والتوسع مُستأصلاً، ثم عدت لجمجمة جون المفتوحة وأعدت المكبر لمكانه فوق التوسع الشرياني، وضعت الملقط ببطء

في مكانه رغم ضيق الفسحة المتاحة ثم أغلقت فكّيه ببطء على عنق التوسع. غرزت إبرة في كرة الدماء تلك وسحبت منها كل الدماء المحتقنة. لم تعد الكتلة لحالتها السابقة، مات الغول ولم يعد يشكل أي خطر عليها، لا بد أنها ستغني مجدداً. أغلقت غشاء الأم الجافية ببطء وأعدت عظم الجمجمة لمكانه ثم أغلقت فروة الرأس المفتوحة، وأدركت أثناء تثبيت الضماد الخارجي أن مشغل الموسيقى كان يصدق بالأغنية نفسها التي بدأنا العمل على لحنها: "الحب هو كل ما تحتاج، الحب هو كل ما تحتاج".

نزعنا الأنابيب عن وجه جون ونقلناها لغرفة الإنعاش، جلست منهكاً مغمض العينين بجانبها بلا حراك لعدة دقائق، ثم بدأت بكتابة التعليمات للممرضات. فكرت بها وفكرت بارتجاف يدي، وعندها، سمعت صوتها فجأة.

"أين الدكتور دوتي؟ أحتاج له.. لا بد لي من مكالمته فوراً".

اقتربت منها وأمسكت بيدها:

"مرحباً يا جون، كيف حالك؟".

نظرت بعمق في عيني مباشرة واكتشفت ما كانت بحاجة للتأكد منه.

"أنا بخير.. أنا بخير، أشكرك".

ثم مدت ذراعيها لتعانقني وراحت تبكي لأنها عرفت أنها لن تُحرم من نعمة الغناء.

وبعد عدة ساعات، جلست في سيارتي ووضعت تسجيل صوت جون في مشغل الموسيقى وانطلقت مبتعداً عن المستشفى مع انطلاق أول الأنغام من مكبر الصوت.

ملاً صوتها السيارة فجأة بلحن من أوبرا كارمن (هابانيرا: الحب طائر متمرّد) فرفعت الصوت وأنزلت النوافذ وسمحت للريح بالهبوب في وجهي. جون

موهوبة، يمكن لها أن تلمس قلوب الناس بصوتها وأن تحملهم بعيداً للشعور بما تغنيه، ويمكن لها عن طريق تسجيل لا أكثر أن تتواصل معهم وتدفعهم للتأثر عميقاً بكلماتها ومشاعرها الجياشة.

كلنا نملك هذه الملكة والقدرة على التواصل، عبر الموسيقى أو الفن أو الشعر أو الاستماع للآخرين. هناك ألف طريقة بسيطة تسمح لقلوبنا بالوصال، وهذه هي طريقة جون للتواصل مع قلبي.

تأثرت بالموسيقى، فجمال صوتها أثار في قلبي كل الشجون. سمحت لعقلي بالتساؤل عما كان يمكن أن يحصل لها لو لم تسر الأمور في الجراحة على ما يرام فاغرورقت عيناى بالدموع وشعرت بالامتنان لأنها ستستمر في مشاركة موهبتها مع العالم بأسره، وتسبب كل ذلك الامتنان بمزيد من الدموع. لا يمكن لي أن أغني الأوبرا لكني أشعر بمدى أهمية الأمر لها. رغبت في أن أصل إلى البيت في تلك اللحظة، رغبت في أن أكون قريباً من أحبائي لأعانقهم وامتننت للكون لأنني كنت قادراً على إنقاذها، امتننت للكون لمهنتي ومهارتي كطبيب.

يمكن للحياة بقلب محب للآخرين أن تتسبب بكثير من الألم، لكنه لا يقارن بالألم الذي ينتج عن حياة تعيشها بقلب منغلق خالي من المحبة. كنت ما أزال أبحث في ذلك الوقت عن طريقة تساعدني على التوفيق ما بين الجراح (الذي يجب أن يكون مستقلاً ومنفصلاً عن الآخرين كي لا يتعلق عاطفياً بهم) والإنسان الراغب بالتواصل مع الآخرين بكل محبة.

غالباً ما فكرت بروت في تلك الأيام وغالباً ما تمنيت سؤالها بعد ما بلغت من السن ما بلغت السؤال نفسه الذي سألته عندما كنت طفلاً:

"لماذا؟ لماذا مددت يدك لمساعدتي في حين أن الكثيرين لا يساعدون أحداً؟".

لم تكن روث غنية، ولم تكن حياتها تخلو من المشكلات، لكن قلبها كان كبيراً مفتوح الأبواب بما يكفي ليسع الآخرين، ولاحظت شخصاً معوزاً وقامت بواجبها تجاهه. لطالما دفعني ذلك للتساؤل.. لماذا لا يستطيع من يملكون الكثير مساعدة المساكين والضعفاء؟ وكيف يمكن لبعض الناس الذين لا يملكون أي شيء بالمقياس المادي للأمور أن يقدموا كل ما يملكون لشخص أقل حظاً؟ لماذا يتوقف بعض الناس المشابهين لروث ويقدمون المساعدة بينما يدير بقية الناس ظهورهم لمن هم بحاجة ماسة للمساعدة؟

لم تكن تساؤلاتي مجرد أفكار فلسفية مثالية، بدأت بتكريس وقت للأبحاث العلمية الدقيقة وتعاونت مع آخرين ممن يحاولون استكشاف الأمور ذاتها. سبرت فيما مضى أغوار الدماغ وها قد حان الوقت لتكريس ما أمكن من البحث العلمي والدراسات الأكاديمية لسبر أغوار القلب.

عرفت من خلال تلك الأبحاث أن العطف غريزة، وربما كان أكثر غرائزنا فطرية. وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن الحيوانات تبذل جهوداً جبارة في بعض الأحيان وتدفع في أحيان أخرى أثماً باهظة لمساعدة بعضها بعضاً، وقد يكون من تمد له يد المساعدة فرداً من جنس آخر، لتخليصه من العذاب أو لإيقاف معاناته. تهتم القردة ببعضها حين تصاب بالجروح، وتمدّ طيور البومة رفاقها المصابة والمتكومة في الأعشاش بالطعام، كما رأينا بأعيننا دلفيناً يساعد في إنقاذ حوت أحذب كي لا يموت اختناقاً. نملك نحن البشر غريزة عطف أقوى لأن أدمغتنا مبرمجة على الرغبة في مساعدة بعضنا بعضاً، ويمكن لنا ملاحظتها بوضوح عند الأطفال الصغار.

هناك جزء من دماغنا يدعى الدماغ المركزي، أو المادة الرمادية المحيطية، وهي مسؤولة إلى حد كبير عن السلوك البشري بمساعدة من القشرة الجبهية. ينشط هذا القسم من الدماغ حين نلاحظ فرداً ضعيفاً يحتاج إلى المساعدة، أي أننا مبرمجين على رعاية ومساعدة الآخرين حين يحتاجون إليها. وبشكل مشابه، فإننا نشعر بالسعادة حين نمح الآخرين اهتمامنا وعطفنا إلا أن سعادة المانح دائماً ما تفوق سعادة المتلقي. ويزيد التقاؤنا بشخص ودود كريم

النفس من رغبتنا في أن نمنح المزيد للآخرين.

ويسيء الكثر فهم قاعدة دارون التي تقول بأن البقاء لأكثر الأنواع مناسبة للبيئة المحيطة به حين يعتقدون بأنه يقصد أن البقاء للأقوى والأعنف، لأنها تعني أن البقاء حكر على الألف والأكثر تعاوناً مما يضمن بقاء الأنواع على المدى الطويل. لقد تطورنا مع الزمن لتعاون سويًا ونتكاتف ونعتني ببعضنا ونربي صغارنا ونزدهر معاً لمصلحة الجماعة.

بكيت على حالة جون في ذلك اليوم كما بكيت على مرضى آخرين بعد ذلك، مع أنني لم أخض عملية جراحية واحدة مضمخة بمثل ذلك القدر الهائل من العواطف بعدها. ليس في البكاء تأثراً بألم إنسان ما يعيب، بل هو شعور جميل، وأعتقد أنه سبب وجودنا هنا معاً في هذه الحياة.

اكتشفت أثناء كتابتي لهذه الصفحات بأن روث قد ماتت عام 1979 بسبب سرطان الثدي، ولهذا فإني أؤمن كلياً وتاماً - مع أنني لن أتأكد من ذلك أبداً - بأن روث كانت لتعجب برحلي لفتح أبواب قلبي وقلوب الآخرين، وأعتقد أنها كانت لتفهم رغبتني في الحصول على إثباتات علمية لما كانت تعرفه بالغيرة وحدها، لإثبات أننا نتحول لكائنات سعيدة حين تتعاون أدمغتنا مع قلوبنا، نتحول لكائنات صحيحة البدن ونبت الحب فيمن حولنا بشكل آلي، نبت اللطف والعطف والاهتمام واحداً للآخر. أعرف هذا بغيريتي لكنني كنت أحتاج إلى إثباته علمياً. كان هذا دافعي للبحث في العطف والرحمة والإيثار، فقد رغبت في فهم كيفية تطويرنا لمثل هذا السلوك وتأثيره على الدماغ والصحة. وأظهرت الأدلة الأولية آثاراً جلية له بالفعل. وخططت للانضمام لثلة من الباحثين العاملين في ذلك المجال. وقد عرفت أثر ذلك من البداية غريزياً أيضاً على المستوى الشخصي، لكنني تساءلت عن إمكانية إيجاد طرق لتطوير حياة الناس بتلك المعرفة وذلك اليقين. وهل يمكن لي أن أكون طرفاً في ذلك؟ هل يمكن لي المساهمة في تحقيق ذلك؟

وبدأت بالفعل بإجراء بعض البحوث التمهيدية بمشاركة زملاء في علم

الأعصاب وعلم النفس، وحصلنا على نتائج مشجعة ورحنا نلتقي بفاصل أسابيع لمناقشة آخر المستجدات في البحوث ولمناقشة ما يمكن أن نبخته في المستقبل، وأسمينا بحثنا غير الرسمي هذا (مشروع الرحمة). وفي البداية كنت أمول البحث بنفسي، وفي أحد اللقاءات، سمعت اسم الدالاي لاما، حيث أخبرني أحد الزملاء أنه شجع العمل على هذا المشروع لبحث آثار التأمل والرحمة على الدماغ. وبعد عدة أيام، ظهرت لي صورته هكذا من اللاشيء أثناء مروري في ساحة جامعة ستانفورد، وفكرت.. ألن يكون إحضاره إلى هنا رائعاً جداً، ولقاؤه بي وبزملائي والحديث معه عن الرحمة واللطف والتعاطف. وكان ذلك مثيراً للاهتمام، لأنني لم أكن بوزياً ولا أعرف الكثير عن الدالاي لاما، لا أعرف سوى أنه زار جامعتنا بالفعل عام 2005 لمناقشة الإدمان والقلق المزمن والمعاناة. ولم أتمكن من التخلص من تلك الفكرة، ثم اكتشفت أن زيارة عام 2005 تمت بدعوة من زوجة عميد كلية الطب المعجبة بالدالاي لاما. وقد أخبرتني بنفسها أن أحد أعضاء مجلس الجامعة قام بإجراء تلك البحوث التي سُميت ببحوث جامعة ستانفورد في موضوع التيببت عرفها به. فاتصلت به وشجعتني على مشروعني، ثم عرفني بدوره بمترجم الدالاي لاما: ثابتن جينبا، وهو راهب سابق يعمل مرافقاً لقداسة الدالاي منذ أكثر من ربع قرن. تكلمنا على الهاتف ثم رتب لي لقاء مع الدالاي في سياتل أثناء الزيارة التي قام بها لتلك المدينة عام 2008.

وبهذه البساطة، تمكنت من جعل الدالاي لاما جزءاً من واقعي.

رافقني العديد من ممثلي الجامعة في رحلتي للقائه في سياتل، حيث مثل أحدهم كلية الطب، وكان بينهم أيضاً عميد كلية الأديان، ومدير معهد العلوم العصبية في ستانفورد، وأستاذ الدراسات التيببتية الذي رتب لنا اللقاء من البداية بالإضافة لمتبرع محتمل لمشروعنا. كان وفداً ملفتاً وأهم بكثير من تصوّري المبدئي للقائي بالدالاي.

التقينا في غرفته في الفندق وعرفنا عن أنفسنا، ثم شرحت لقداسته سبب اهتمامي بالرحمة والعطف وقدمت له نبذة عن حياتي ومهنتي، ثم أوفيته بمختصر عن البحث الذي بدأناه بالفعل في موضوع العطف ورغبتني في أن

يلقي خطبة بهذا الشأن في جامعة ستانفورد. طرح قداسته عدة أسئلة عميقة حول بحثنا في علم التعاطف والتراحم، ثم نظر لي بعد انتهائي من إجابته مبتسماً وقال:

"نعم. سأحضر بالطبع".

إنه لأمر استثنائي أن يكون المرء في حضرة الدالاي لاما، إذ يشعر الجميع بمحبة مطلقة ولا مشروطة تتضح منه وتبدو كاستنشاق نفس عميق بعد حبس الأنفاس لفترة طويلة. لا يحتاج المرء لأن يكون شخصاً آخر غير نفسه، ورغم هذا فإنه يشعر بالقبول التام لحقيقته تلك. إنه شعور روحي راسخ وكثيف، ولا يمكن وصفه بالكلمات مهما كثرت. وسرعان ما حضر راهب مساعد لتعيين موعد لنا على أجندة الدالاي المزدحمة، ولنتوافق عليه، وفجأة ناقش الدالاي لاما مترجمه باللغة التيببتية بشكل محموم لفترة من الوقت بينما جلسنا جميعاً في صمت بانتظار نتيجة نقاشهما. هل قمت بما أغضبه؟ هل أخطأت في شيء مما أثار غضبه؟ ماذا كانوا يقولون؟

تعرق جسدي وشعرت بالقلق.

انتهى النقاش الحاد فجأة ثم التفت المترجم إليّ وقال:

"جيم.. قداسته متأثر للغاية ببيتك وبالجهد الذي بذلته ولهذا فهو يرغب بالمساهمة مادياً بعملك".

أخبرني بالمبلغ فصعقت، إنه لأمر استثنائي وغير مسبوق، فالدالاي لاما يحصل على تمويله من مبيعات كتبه ويمنحها جميعاً لحل مشاكل التيببت. وقد منح من قبل مبالغ صغيرة لقضايا مختلفة، لكن تبرعه هذا كان أكبر مبلغ منحه لقضية لا تخص التيببت. انتهى اللقاء، وشعر كل واحد منا وكأنه يطفو على غيمة أسطورية، إذ لم يقبل قداسته بالحضور لإلقاء خطبة في ستانفورد فقط، بل أصبح الآن راعي مشروعنا الرسمي، يا له من أمر خارق. أخبرني أحد الحضور بعد ذلك أن الدالاي شعر بأنه مجبر على مساعدتنا في مشروعنا بعد تفاعله

معي وشعوره بصدق رغبتي ونبليها. وبعد أسبوع، اتصل بي مهندس أعرفه من شركة غوغل وكان من المتحمسين للمشروع، وأخبرني بأنه سمع عن اللقاء وتأثر بشدة بالتبرع الكبير الذي قدمه قداسته، مما حداه بالتبرع أيضاً، وفي النهاية، قدم كل من ممولينا الثلاثة مساهمات مالية لا تصدق، تحول مشروعنا الذي بدأ كبحت غير رسمي إلى معهد مدعوم من قبل عميد كلية الطب، بدعم أيضاً من مدير معهد العلوم العصبية ومدير قسمي في الجامعة، وسُمّي باسم: مركز الرحمة والإيثار للبحوث والدراسات. وتحول مترجم قداسته (جينبا) - الراهب السابق والحاصل على درجة الدكتوراه من جامعة كامبريدج - إلى صديق مقرب لي، وراح يقضي أسبوعاً كل شهر لمدة ثلاث سنوات لمساعدتي في إنشاء مركز أبحاثنا هذا من العدم. وفي الوقت نفسه، ساعد برفقة زملاء من قسم علم النفس على وضع برنامج تدريبي لنشر الرحمة يُدرّس الآن لآلاف ونتابع حتى اليوم دراسة آثاره. كما دربنا المرشدين الذين نقلوا معلوماتنا الدافعة والحيوية إلى بقاع العالم المختلفة، والذين سينقلونه بلا شك مع مرور السنين لمزيد من الناس.

ومنذ إنشاء معهدنا، اعتبره القيمون معهداً رائداً في مجال الأبحاث حول التراحم والإيثار وعزز التأثير العميق لتلك السلوكيات على حياة الأفراد في مجال التعليم والأعمال والصحة والعدالة الاجتماعية والحكومات المدنية. نأمل لمعهدنا أن يكون بمثابة منارة تشير لمدى قوة تأثير الفرد على حياة الآخرين ونأمل أن نثبت تجريبياً مستقبلاً قيمة تلك السلوكيات على الصحة والعافية وطول العمر.

اختبرت شخصياً مدى قوة تأثير شخص ما على حياة شخص آخر، وآمل أن يلهم معهدنا الآخرين لتلمس القوة والتأثير نفسيهما. معهدنا هو طريقة لتنفيذ ما طلبته روث مني قبل سنوات، أن أعلم سحرها للآخرين، وها أنا أقود أطباء آخرين لنشر كلمتها بين الناس.

الفصل الثالث عشر

الطريق إلى النور

اعتبرت الحضارة الغربية أبوقراط (أبا الطب) قبل ألفين وخمسمائة عام من اليوم، حيث يتوجب على كل طالب أن يقسم على مبادئه الأخلاقية العليا ليتمكن من ممارسة مهنة الطب. يذكر الكثير من الناس العبارة اللاتينية: *Primum non nocere*، التي تعني حرفياً: لا ضرر ولا ضرار، وهي عقيدة أساسية في مجال الطب ويعتقدون أنها من أقوال أبوقراط نفسه لكنهم مخطئون. لقد ابتدعها الطبيب البريطاني توماس سيدنهام الذي عاش في القرن السابع عشر وألف كتاباً في الطب، وقد استُعمل كتابه لقرنين من الزمن مما حدا بالناس بتسميته بأبو قراط الإنكليزي.

وخلال العقدين الأخيرين في الولايات المتحدة وفي العديد من بقاع العالم الأخرى تحول أداء القسم التقليدي ذاته قبل بدء الدروس الأولى في كلية الطب لطقس يدعى: حفل الرداء الأبيض. حيث يُمنح الطلاب معاطفهم الأولى ويرددون القسم ثم يلقي عليهم شخص محترم يجسّد قيم مهنة الطب العليا خطاباً مُلهماً ويرحب بهم ليكونوا زملاء مهنته.

اتصل بي عميد الكلية بعد مرور ثلاثين عاماً على تخرجي من كلية تولن للطب في نيو أورلينز، العميد الذي قبلني بلا شهادة وبدرجاتي الدنيا التي كانت أدنى من درجات كل المقبولين الآخرين، وطلب مني أن أكون المتحدث الرسمي لإلقاء ذلك الخطاب. لا يمكنني أن أصف لك العواطف التي غمرتني عندما سمعت كلماته.. أنا، جيم دوتي، الطالب الفاشل الذي قالوا له إن دخوله

لكلية الطب سيكون مضيعة لوقت الجميع، يُطلب منه الآن أن يلقي على الطلاب الجدد خطاب الرداء الأبيض في كليته الأولى وأن يكون المثال والقُدوة لدفعة كاملة من طلاب الطب الطموحين.

أصابنتي سيرورة الأمور في حياتي بالدهشة.

من السهل أن ينظر المرء لماضيه ويربط بين محطات حياته، لكنه لا يعتقد أبداً بأن هذه المحطات والمواقف ستتراكب فيما بينها فيما بعد لتشكّل الصورة البديعة التي ستقول إليها عندما يخوض غمار الحياة بعشوائيتها وعشبيتها. لم أنتظر نجاحاتي ولا عثراتي في الحياة، لكنها جميعاً جعلت مني زوجاً وأباً وطبيباً وشخصاً أفضل.

قمت بدوري كطبيب معالج بقدر كبير من الجديّة، وعلمتني دروس روث أن أوسع صدري وأحيط الجديّة بالعطف والرحمة. ولم يدفعني سحرها للتصديق بأنني سأدرس الطب بالفعل فقط بل منحني أدوات إتمام تدريب الجراحة العصبية، وهو أحد أصعب وأعقد الاختصاصات في مهنة الطب، ولأكون أستاذاً في أهم كلية مرموقة في البلاد.

منحني السحر الشجاعة أيضاً للمجازفة والثقة بأنني سأكون على ما يرام بغضّ النظر عن النتائج. لقد جازفت بإدارة شركة طبية فاشلة ووضعت فيها كل ما جمعته لأنني آمنت بأهميتها لإنقاذ أرواح الناس. وجازفت بالتخلي عما اعتقدت في السابق بأنه أعظم آمالي وقمة طموحاتي، ألا وهو المال، الشيء الذي اعتقدت بأنه سيمنحني السعادة ويسلمني دفعة قيادة حياتي. سمح لي سحر روث بأن أدرك بأنه لا بأس أن أكون ذاتي، مع المال أو دونه، وأن أحداً منا لا يقود دفعة حياته. كنت أطارد وهماً، وقد منحني التخلي عن ذلك الوهم أعظم العطايا على الإطلاق: الصفاء، والهدف والحرية.

والآن، مبدئي هو العطف، كالدالاي لاما تماماً. فالعطف لا يحتاج إلى نصوصٍ عقائدية طويلة. كما أنه لا تسمح لأي شخص بأن يشعر بالتفوق على

الآخر، ويتطلب بالضرورة قبول تساوي الجميع. ألهمني مبدأ العطف البحث في أهمية العطف واللطف لصحة الإنسان الجسمانية والعقلية وطول العمر.

فكرت أثناء تحضيرتي لذلك الخطاب بكل تلك الأمور وأكثر.. ماذا يمكن لي أن أقدم لأولئك الطلاب الموشكين على بدء رحلتهم الشاقة ليصبحوا أطباء؟ ما هو القول الذي يمكن لهم أن يحملوه معهم خلال مهنتهم؟ فكرت بروث وبدروسها التي ترافقني كل يوم، وفكرت بالترتيب الفكري الذي أثبت قوته الجبارة في حياتي والذي أسترجه ذهنياً كل صباح بعد استيقاظي، وأحاول تكراره عدة مرات خلال النهار. فكرت بكل المرضى الذين التقيتهم وتعلمت منهم الاهتمام والمحبة، وفكرت بالموت وبقلة الوقت الذي نملكه في هذا العالم.

تعلمت إرخاء جسدي وتهدئة أمواج أفكاري وتوسيع صدري وقلبي وتصور ما أريد لخلقته في عالمي، تعلمت أن أكثر ما أرغب به هو عالم لا يؤذي فيه الناس بعضهم البعض ويمدون يد المساعدة لبعضهم. تعلمت استعمال بوصلة قلبي لتشير لي إلى الطريق الصحيحة وأن أثق كلياً بأن المكان الذي تنتهي فيه خطواتي هو المكان الذي أحتاج لأن أكون موجوداً فيه. تعلمت أننا نملك جميعاً الأدمغة والقلوب والقدرة نفسها على تغييرها وتحويلها وإعادة برمجةها واستعمالها لصالح الكل. تعلمت ألا أحدد الأشخاص بمكان ولادتهم ومهنتهم وبما يملكون، وتعلمت ألا أحدد نفسي بتلك المعايير أيضاً. فكرت فيما سبق بوجود شيء خاطئ في طبيعتي بسبب ظروف نشأتي، واعتقدت أنني بلا قيمة بسبب فقري، ثم أدركت أنني لم أكن مسؤولاً عن ظروف ولادتي وأن تحديد هويتي تبعاً لتلك الظروف نظرة خاطئة كلياً. كل شخص مهما كان له قيمة، ويستحق أن يعامل باحترام وكرامة. كل الناس تستحق الحب وكل فرد يستحق فرصة، ثم فرصة أخرى.

لكل منا قصة، وكل قصة تحتوي على مقاطع مؤلمة وحزينة، ويمكننا الاختيار في أي لحظة أن نرى حقيقة الناس الماثلين أمامنا وإمكانياتهم. لقد رأت روث في وجهي صبيلاً خائفاً ووحيداً، لكنها شاهدت في داخلي قلباً جريحاً، ولكل منا جراحه، وكل منا قادر على شفاء نفسه. وهكذا ساعدتني على شفاء نفسي،

وبإمكانكم جميعاً فعل الشيء ذاته. يمكنكم منح الحب دوماً، فكل ابتسامة تمنحونها لغريب هي منحة وهدية، كل لحظة غفران تمنحها لنفسك أو لغيرك هي عطية كبرى، كل فعل طيب وكل نية لخدمة الناس هي منحة للعالم وللذات.

نحن نقف على أعتاب عصر تسوده الرحمة، الناس يتوقون لفهم موقعهم في العالم ويبحثون عن سبيل للسعادة والرضى، ويبحثون أيضاً عن طريقة تسمح لهم بالتحول والتبدل. وقد علمتني روث طريقة فعالة معي، ولربما سمحت لها حكمتها ومهارتها بعرض الطريقة لي على النحو الذي حصل، وقد وجد آخرون سبلهم الخاصة لخفض صوت أفكارهم وفتح قلوبهم لمحبة الآخرين. إنها تبدو لي كتموّج على سطح الوعي الإنساني الأشبه بالبحيرة، تدفعه الرحمة وتغذّيه، لكنه تموّج يحمل في رحمه احتمال التحول إلى موجة تسونامي عظيمة.

نحن في رحلة لنتعلم الوصال، رحلة فتح أبواب القلب على الكائنات الأخرى على هذه الأرض، وملاحظة أنهم إخوتنا. كما يجب علينا أن نلاحظ أن فعلاً حميداً واحداً يقود لفعل آخر وهكذا لينتشر هذا السلوك في كامل الكرة الأرضية، وفي النهاية سيقدر مدى مودتنا لبعضنا واهتمامنا ببعضنا البعض مصيرنا كجنس بشري ومصير كوكبنا. ويقول قداسة الدالاي لاما في هذا الشأن: "الحب والرحمة حاجتان أساسيتان، لا يمكن للبشرية البقاء دونهما". وقد لاحظت مدى دقة هذا الكلام في حياتي ومهنتي على حد سواء. كيف يمكن لي صياغة كل هذه القيم والمثل لألقيها على مجموعة الطلاب الشبان الموشكين على مباشرة مهنة خَدَمِيَّةٍ كلياً؟

صعدت الدرجات المؤدية إلى منصة قاعة الاحتفالات في جامعة تولن ونظرت إلى الطلاب البالغ عددهم 1200 طالب، بالإضافة للهيئة الإدارية وعائلاتهم. تفحصت معالم الترقب المرتسمة على وجوه الطلاب، تذكرت نفسي حين جلست مثلهم في الموقف نفسه قبل سنوات بعيدة لكني لم أذكر الشخص الذي ألقى علينا الكلمة ولا أي شيء مما قاله. في الحقيقة، لم أذكر سوى حصولي على الرداء الأبيض ولحظة القَسَم.

بدأت الكلام، وغمرتني مع كلماتي أمواج من العاطفة، أخبرت الحضور عن رحلتي، عن الطبيب الذي ألهمني في الصف الرابع الابتدائي والمرأة التي آمنت بقدراتي، عن روث. أسررت لهم، بأن كل واحد منهم يملك القدرة على تغيير حياة آخرين نحو الأفضل، لا حياة مرضاهم وحسب، بل حياة الأفراد المحيطين بهم. ربما لا يحتاج الأمر منهم في بعض الأحيان سوى لابتسامة أو كلمة لطيفة، وأخبرتهم بأن الطب قد تغير بالفعل، لكنه ما يزال مهنة نبيلة، ثم تكلمت عن أبجدية القلب ومررت على كل رسالة ومعناها، وتهدج صوتي حين انتهيت من الرسالة الأخيرة وشعرت بالدموع تتدحرج من عيني.

"لا يولد الإنسان ضمن أي حياة مثالية، لا مهرب من العذاب خلال الحياة لأنه الواقع المرير، كما لا يوجد مهرب من توحد القلب البديع مع كل ما سبق من عذابات.." ثم توقفت لبرهة عن الحديث لأستعد لختم كلمتي، فرأيت شاباً بين الحضور ذكّرني بنفسي قبل سنوات.

"لقد مهرتم اليوم درب حياتكم بقسم، سيقودكم هذا الدرب لأحلك وأعظم وديان الحياة، حيث ستشهدون قدرة الصدمات والأمراض على تدمير الحياة، وستشهدون بأسى مدى الأذى الذي يمكن لأي إنسان أن يلحقه بآخر، وما يفوق ذلك مرارة هو مدى الأذى الذي يمكن للإنسان أن يلحقه بنفسه. لكن هذا الدرب سيحملكم أيضاً لقمة الحياة حيث ستشهدون قوة الفرد الضعيف الكامنة التي قد اعتقدتم من قبل أنها مستحيلة، ستشاهدون بأم أعينكم حالات شفاء بلا تفسير وستلمسون قدرة الرحمة والعطف الرهيبة على شفاء أمراض بني البشر. وسترون عندها نور السبيل".

أدركت حين انتهيت أنني كنت أركز جلّ اهتمامي على الكلمات إلى درجة أنني لم ألقي بالاً للجمهور. لاحظت أن العديد منهم كانوا غارقين في البكاء، والتفتت لزملائي الجالسين على المنصة فكانوا يبتسمون أيضاً، ثم أدركت أنني كنت أبكي أيضاً. وفجأة، وقف الجمهور كله وصفق. لم يصفقوا لي أو لرحلتي فقط، بل لرحلتنا جميعاً نحو رحمة أكبر وإنسانية أعظم وأشمل من أي وقت مضى.

انتظرنى الكثير منهم بجانب المنصة ليشكروني ويكوا معي ويخبروني
عن وقع كلمتي على قلوبهم وكيف شعروا بأنهم باتوا أكثر انفتاحاً.

فكرت بحياتي وبروث ثم أدركت من جديد مدى قوة تأثير كلماتها
وسحرها. إنه سحر موجود فينا جميعاً وقابع في انتظارنا على الدوام. إنه الهدية
التي يمكن لكل منا أن يمنحها لغيره.

خرجت من قاعة الاحتفالات وشعرت بدفء الشمس على وجهي ثم
وقفت وأغمضت عيني وتركت العنان لنفسي لأشعر بوجودي.

الأمر على ما يرام.

أنا على ما يرام.

بدأت رحلتي لاكتشاف ألغاز الدماغ وأسرار القلب في متجر ألعاب
سحرية، لكن الحقيقة أننا لسنا بحاجة إلى متجر سحر لاكتشافها. كل ما نحتاجه
هو التعمق في أفكارنا وقلوبنا.

الأمر الآن في يدك أنت، لتقوم بسحرك الخاص ولتعلم الآخرين. يمكن
للقلب والدماغ حين يعملان معاً ابتراح المعجزات وفعل المستحيل والقيام بأعظم
سحر على الإطلاق، ولا علاقة لذلك بالأوهام والخدع التي يقوم بها الحواة.

هذا سحر حقيقي.

وكما أنه أعظم سحر تعلمته من روث، فإنه أعظم سحر يمكن لي تقديمه
لك.